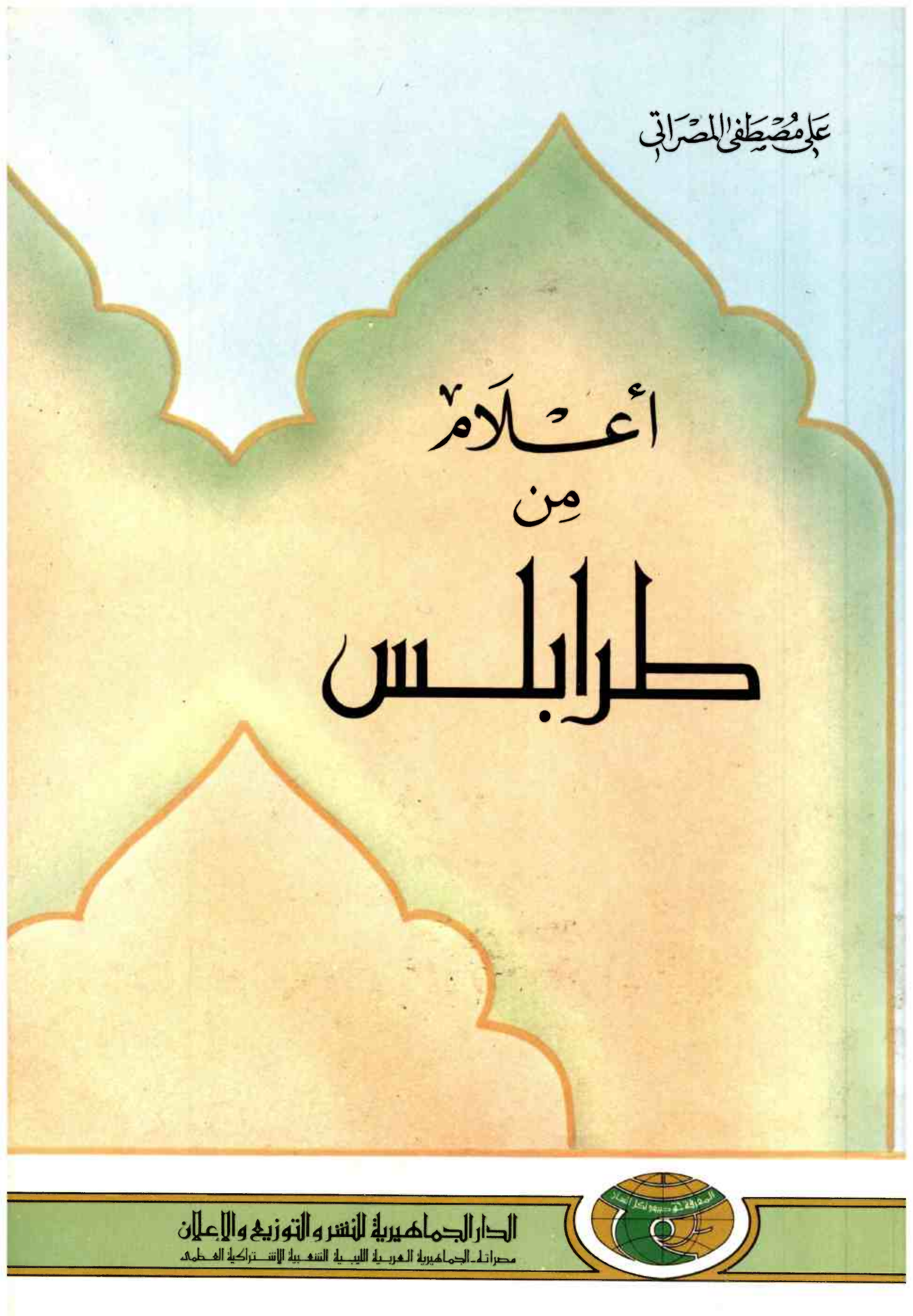
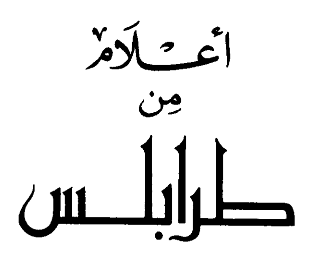

علي مصطفى المصراتي
أعلام
من
طرابلس
الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان
مصراتة - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

خالد علي بورقيبة

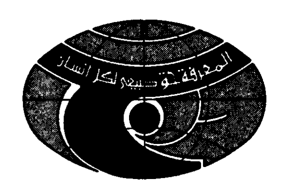


خالد علي بورقيبة

علي مصطفى المصراتي

أعلام من طرابلس

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان
مصراتة - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى



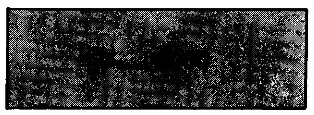
الطبعة الأولى

1955 م

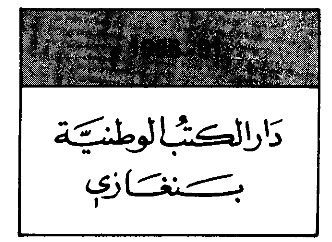
الطبعة الرابعة

1395 و . ر ـ 1986 م

الكمية المطبوعة



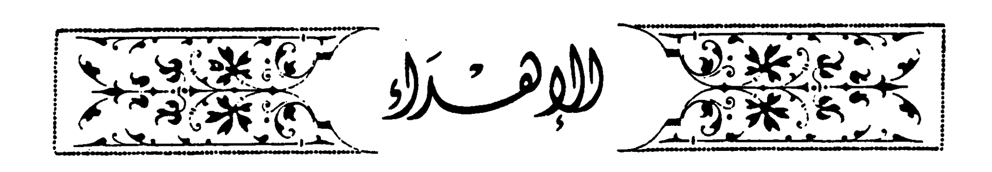
رقم الايداع



الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

مصراتة ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى

ص.ب 17459 مُبرق (تلكس) 30098 "مَطبُوعَات"



الإهداء

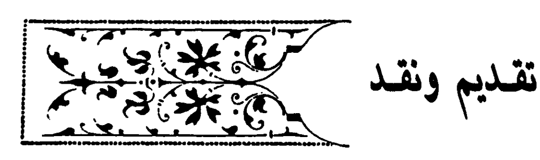
إلى أول شهيد فاضت روحه فى سبيل عروبة ليبيا وإسلامها
أرفع كتابى هذا.

19 أكتوبر، سنة 1955

على مصطفى المصراتى



تقديم ونقد



أرأيت السائح المستكشف إذا نزل لأول مرة فى أرض لم يرها أحد من قومه من قبل؟ إنه يرى كل شىء فى تلك الأرض عجيباً. . . شجرها وترابها وسماؤها وماؤها وسحنة أهلها وألوان أجسامها ونغم حديثهم.

كل ذلك يبدو له عجيباً وهو يجوس خلال تلك الديار الغريبة عنه، فيخيل إليه أن تلك الأرض لم تطأها من قبله قدم، ولم يعرفها من قبله أحد، وأنه قد اطلع على شىء خلقه الله لأول مرة، عندما وقعت عينه عليه.

وهكذا نحن عندما نتطلع ـ مثل هذا السائح المستكشف ـ إلى القرون الماضية، ونتدسس بين آثارها وما تخلّف عنها من قطع محطمة أو خرق ممزقة، فيخيل إلينا أن ذلك الماضى عجيب فى صورته، بديع فى بنيته، ونقف حياله فنعجب أن يكون ذلك الماضى قطعة حقيقية من عالم كان يعيش مثلنا، ويضطرب بمثل أمانينا. . ويتألم بمثل ما نتألم له، ويحلم بالأحلام التى ما نزال نحن نتعلق بها.

وقد استطاع الأستاذ على مصطفى المصراتى، بكتابه هذا الذى بين

أيدينا، استطاع أن يستخرج من أعماق الماضى عالماً جديداً، وأن يوردنا معه قطعة من ذلك الماضى، لنلمح معه طرفاً من حياة الأجداد الذين عمروا الأرض بالحياة المليئة، ثم ذهبوا ولم يخلّفوا وراءهم إلا آثاراً ضئيلة عفى عليها الزمن وجعلها كما قال الشاعر القديم ـ تبدو مثل وشم حائل على معصم . .

ولست أشك فى أن هذا الكتاب، الذى بين أيدينا الآن، سيحمل معه ألوفاً وألوفاً من أبناء هذه الأمة الليبية، وألوفاً أخرى من أبناء أمم أخرى من الشعوب العربية، لأنه يرتاد لنا عصراً مشتركاً نستمد منه جميعاً . . وننتسب إليه جميعاً . . عندما كانت الشعوب العربية لا تعرف فيما بينها حدوداً، وعندما كانت تتعارف وتتمازج وتتزاور وتتشاور، وكل منها يقتبس مما عند الشعوب الأخرى، وكلٌّ منها يهب مما عنده أقباساً إلى الشعوب الأخرى . . كان العالم العربى عند ذلك عالماً زاخراً بالحياة والقوة، عامراً بأسمى ما فى الإنسانية من معانى السلام ومحبة العلم ورغبة الخير .

كان ذلك العالم العربى فى ذلك الوقت سيد العالم، ولكنه لا يعرف الطغيان ولا الكبرياء، بل كان الناس فيه جميعاً من نسل آدم وحواء، ليس فيهم من يمتاز عن غيره إلا بمقدار ما عنده من الفضل والعلم والخير. ولكن ذلك الماضى أيضاً قد انطوى تحت الرمال، واعتورته صروف الأيام، وأصبح أكثره أشبه الأشياء بالمجاهل التى يطلع العالم الحاضر على لمحات منها ولا يكاد يتبين معالمها . . وما أشد ما خسرت الإنسانية باندثار ذلك العالم البعيد الذى كان يعتمد فى حياته على السلام والخير والتعاطف؛ فها نحن أولاء نرى العالم اليوم وقد بلغ من معرفة أسرار الكون ما بلغ . . ما يزال يشكو الشقاء والخوف والحقد، وما يزال يسرف فى ابتكار آلات التدمير، وما يزال يحرص على إذكاء العداوات، على حين تشكو ألوف الملايين مضاضة الجوع والبؤس فى الشعوب كلها .

فنحن إذ نطلع على أخبار العصور الماضية لا نملك إلا أن نرثى أنفسنا إذ نعيش فى هذا العصر الموسوم بالتقدم والتفنن والاختراع .

ولكن الأستاذ المؤلف لم يجهد نفسه فى إخراج كتابه هذا الممتع بقصد

إشعارنا هذا المعنى، وإن كنا نشعر به قوياً واضحاً، فإنه أراد بتأليف هذا الكتاب أن يصوِّر لنا عصراً مضى، كانت فيه ليبيا أرضاً عامرة، وكان فيه شعب ليبيا شعباً حياً مستنيراً، يحب العلم ويحرص على المعرفة ويأخذ نفسه فى الحياة بالمبادىء التى آمن بها واستخلصها من علمه ومعرفته. . فهو - كما يصور لنا الأستاذ المؤلف - يجمع بين وداعة الحياة وقوة النشاط، ويهب كل ما فيه من حماسة وفتوة إلى غرضين اثنين، وهما: تحصيل المعارف والتملؤ من عواطف الخير.

والأستاذ المؤلف يورد فى ثنايا صوره الرائعة معنى آخر أُحب أن أَقف عنده قليلاً. . . فذلك العالم الماضى الذى يصوره لنا، كان يمتاز بأنه لا يعرف الوطنية الضيقة، كما نعرفها فى هذا العصر، ولا يقيم وزناً للحدود السياسية بين الأمم العربية، كما تفعل الدول الحديثة فى العالم العربى؛ فكان الرجل العالم يأتى من تونس إلى طرابلس فلا يأبه لشىء فى إقامته بين أهل المدينة التى اختارها إلا أنها البلدة التى اختارها. فهى وطنه الجديد الذى يحبه ويجله ويعترف له بالولاء، وإن كان الشوق يعاوده أحياناً إلى المدينة الأولى التى نيطت عليه تمائمه فيها، وكانت مهد صباه وشبابه الأول؛ فالشوق والحنين إلى الوطن الأول لا يُنقص المحبة والولاء للوطن الأخير، وهو فى الحالين يرى نفسه مواطناً فى عالم واحد يمتد من المشرق إلى المغرب، ويقيم فيه حين يحلو له المقام. .

ولكن الأستاذ المؤلف ينجرف مع تيار هذا العصر الذى نعيش فيه، وهو عصر التقاطع وإقامة الحدود والتغالى فى الوطنية، فيؤرخ لسلسلة ذهبية من أعلام الفكر والأدب والعلم فى هذه العصور الزاهرة، ولا تسخو نفسه بأن يصورهم كما كانوا يرون أنفسهم: مواطنين فى عالم واحد حر لا يعترف بشىء من الحدود السياسية - بل يتفنن ويبدع بما شاء له قلمه البليغ، متعمِّداً أن ينسبهم إلى وطنه العزيز وحدَه، حتى لا ينافسه فيهم شعب آخر من الشعوب العربية. . بل لعلنى لمحت من ثنايا صوره العذبة أنه يود لو استطاع أن ينسب إلى طرابلس كل عبقرى مبرز اتجهت نيته يوماً إلى زيارة هذا البلد الأمين.

فنحن نلمحه من بعيد وهو ينظر إلى الإمام الغزالى مثلاً كأنما يتمنى لو استطاع أن ينسبه إلى وطنه ليبيا، وينتزعه انتزاعاً من أهل العراق.

ثم نراه مرة أخرى وهو يضع يده فعلاً على ابن منظور.. ونسأل الله أن يلطف بأهل مصر.

على أنه وإن أباح لنفسه مثل هذا التحمس لليبيا، أو لطرابلس خاصة، ليس بدعاً بين المؤلفين ولا بين الأدباء، فإنه يقصد من وراء هذا الجهد إلى معنى آخر لا يسع المنصف إلا أن يحمده ويقره.. فإن الشعوب الفتية فى أشد الحاجة إلى معرفة ماضيها المجيد.. ونحن فى وقتنا هذا نتطلع إلى المستقبل فى حيرة، ولا تتأتى لنا الهداية فى سيرنا نحو هذا المستقبل إلا من قِبَل ماضينا. فالاطلاع على سيرة هذا الماضى هو الذى يحفزنا إلى ترسم الطريق الذى نستقبله، والتعرف إلى أصولنا هو الذى يسدد خطانا ويجعلنا نعرف كيف نُسْلم التراث الموروث إلى أبنائنا. فإذا كان الأستاذ المؤلف قد أبدع فى تصوير حياة العباقرة الذين ازدانت بهم طرابلس فى الماضى.. فإنه يوحى إلى أبناء هذا الجيل بأن المستقبل متسع لمثل ما اتسع له الماضى، وأنهم يستطيعون أن يبلغوا من المجد والمعرفة وحب الخير والتجرد من سفاسف العواطف ما بلغه من قبل أجدادُهم، الذين عرفوا كيف يملؤون الحياة علماً وفضلاً وخيراً.

ولست أقصد من كلمتى السابقة شيئاً سوى المراجعة والمناقشة.. وإلا فإن التنافس على انتساب أهل الفضل عاطفة من أسمى العواطف وأدعاها إلى الفضل. وليس ببعيد عن الأذهان تنافس العرب والإيرانيين على انتساب ابن سينا، ولا تنافس بلاد الشرق العربى كلها على مثوى الحسين سبط الرسول عليه الصلاة والسلام.

وأما الجهد الذى بذله الأستاذ على مصطفى المصراتى، المؤلف، فى تصنيف هذا الكتاب وإخراجه فى صورته البديعة، فقد مررت به بغير أن أبين ما وقع فى نفسى منه وأنا أقرأ فصول الكتاب، وأتأمل الصور التى لوّنها بلمساته الخاصة التى يمتاز بها قلمه.. فإنه يستمد مادة هذه الصور من موارد ما أقلها، وما اشق الوصول إليها. إنه ليلتقط العبارة القصيرة أو اللفتة

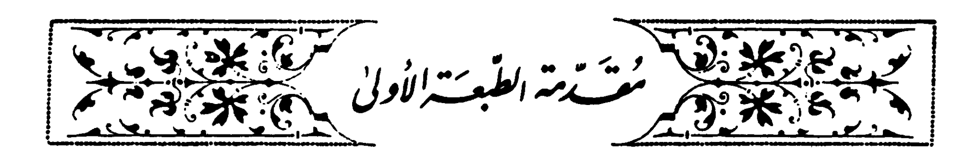
الصغيرة من الكتاب الضخم بعد أن يفحصه كلمة كلمة، وإنه ليجول جولات واسعة فى البحث لعله يجد بيتاً من أبيات الشعر أو إسماً من أسماء الكتب، فإذا فاز بشىء من ذلك عكف عليه بالتحليل والتفسير حتى يستقطر منه حقيقة جديدة أو لمحة تضىء له سبيله. فما أشبه جهده بجهد هؤلاء الباحثين عن أسرار الدهر الغابر، إذ يحفرون وينقبون حتى يفوزوا بقطعة من الأثر يستعينون بها على رسم صورة الهيكل الكامل..

وهذا جهد يكفى وحده لإثارة أعجب الإعجاب.. وأبدع الثناء.. فقد استطاع الأستاذ المؤلف بهذا العمل أن يضرب مثلاً فى الصبر والأناة والإخلاص فى البحث، وما أجمله من مثل يضعه أمام الجيل الناشىء من أبناء هذه البلاد لعلهم يسارعون إلى تجلية ما مر على بلادهم من مجد، وما طمرته عصور الظلام من علم وخير.

وما أجدر أبناء ليبيا الحديثة أن يُبصروا ما كان لآبائهم من مفاخر ويعملوا على إحيائها والإضافة عليها.

محمد فريد أبو حديد





مقدمة الطبعة الأولى

طرابلس الغرب اسم حلو عذب، سمعته لأول مرة من أمى وأبى وهما يقصان على مسامعى تاريخ هذا البلد، وقصص البطولة فيه، وأدوار الجهاد الوطنى لأبنائه، وكانا مشرَّدَين مهاجرين، فرًّا من اضطهاد الاستعمار الظالم مع آلاف المهاجرين وقوافل القادمين على الإبل والأقدام، قاطعين الصحراء اللافحة، تاركين وطناً مغصوباً. . قادمين أرض مصر الحبيبة الكريمة، قبلة الأحرار وملجأ الكرام. ونشأت فى مصر متلهفاً على رؤية هذا البلد العربى. . . ولكن الاستعمار البغيض ضرب بيننا بسور منيع وستار فولاذى وأسلاك شائكة. . .

وكنا، أبناء المهجر، نجتمع ونتتبع القضية وسيرها، ونترقب يوم العودة والخلاص. ولم تتح لى زيارة هذا البلد إلا فى سنة 1948، حيث قدمت الهيئة الرباعية الدولية التى جاءت ليبيا لتستفتى أهلها عما يريدون فى المستقبل وما هى مطالبهم وأمانيهم؛ حينذاك أسرعت إلى طرابلس لأول مرة خطيباً وداعياً إلى المطالبة بالحرية. وطفت ليبيا بلداً بلداً، وقريةً قرية، أخطب من

الأعماق. . . أُلهب وأحمّس، وأنادى بالاستقلال والحرية، متطوعاً متبرعاً، تاركاً دراستى وأهلى فى مصر.

ثم رجعتٍ إلى إكمال الدراسة، وعدت إلى طرابلس سنة 1949 بعد أن صدر قرار هيئة الأمم معترفاً باستقلال ليبيا؛ وأخذت أنقب عن التاريخ وأبحث عن كل ما يتصل بهذا البلد الكريم؛ وأكثر ما همنى وصرفت إليه مجهودى، الجانب الثقافى والفكرى، جانب تراجم الأعلام والعلماء والأدباء. فقد كتب فى التاريخ السياسى والتاريخ القومى كثير وكثير، وأُلفت فى هذه الناحية كتب عديدة، منها الثمين والغثّ، والجيد والردىء، والموجز والمطول، والمترجم والمقتبس. . ولكن تراجم الأعلام باب لم يُطرق وجانب لم يُلمس، مع أنه ناحية هامة؛ وتراجم الأعلام مرآة تنعكس عليها صورة من الحياة الفكرية ويُلمس منها مدى التطوّر الأدبى الذى هو مقياس الحضارة والرقى، ولكنه فى هذا البلد عسير صعب، لندرة المصادر وتعذر المراجع وتناثر المعلومات وقلّتها، ثم ما أُصيبت به البلاد من هزات عنيفة وكوارث مؤلمة ونكبات منوّعة، وما أصابها من استعمار ديكتاتورى بغيض أسود زهاء ثلاثين عاماً كاد يقضى على كل مالها من صله بالعروبة والفكر الإسلامى؛ ومن جرّاء هذا كله ذهبت أكثر الآثار القيّمة والمؤلفات التى كتبها أعلام الفكر والأدب والفقه، وامتدت يد السرقة والنهب والجهل إلى تلك الآثار فكاد أن يصبح هذا الجانب قاعاً يباباً أجرداً. . وهذا ما دفعنى إلى مواصلة الجهد والتغلب على كل الصعاب.

وحاولت، وما الحياة إلا محاولة. . والمحاولة تتطلب الصبر والانكباب والبحث عن الشوارد والأوابد، والمخطوطات والرقاع والأوراق، المبْعثرة المهملة؛ ويعلم الله أنى فى هذا لقيت نصباً وتعباً، ولكن فى سبيل الفكر يهون كل صعب ويتحمل كل عسير. .

وكم ضحك منى زملائى عندما رأونى أبحث عن تاريخ الأعلام وأترك الموضوعات الأخرى السهلة التى فى المتناول؛ ولكنى واصلت المحاولة وبدأت أُلقى فى تراجم الأعلام والشخصيات العلمية، محاضرات، وأنشر مقتطفات.

فأذعت من مذياع (لندن) (ومحطة الشرق الأدنى) ومحطة (هولندا) ومحطة (إذاعة طرابلس الثانوية) ونشرت عدداً من التراجم فى جريدة طرابلس الغرب ومجلة (القلم الجديد) ثم كتبت مجموعة أخرى لم تذع ولم تنشر، حتى اجتمعت لدىّ من هذا تراجم منوعة لشعراء وأدباء وفقهاء من العصور المختلفة من القرن الرابع الهجرى حتى العصر الحالى.

وآثرت أن أبتعد عن التاريخ المعاصر والتاريخ القريب، فإن هذا له مجالات أخرى؛ وآثرت أن أجمعها فى هذا السفر الذى أقدمه لقراء العربية خوف الضياع والتلاشى... ولا أزعم أن هذا كتاب منسق مرتب منظم، فإن مشاغلى الكثيرة تحول دون الترتيب والتنسيق، فقدمته إليك كما هو على علاته... وقد كنت فى بادىء الأمر متردداً فى جمعه وطبعه، ومرة أقدِم ومرة أُحجِم عن الطبع لأجل التنقيح والزيادة، ولكنى تذكرت كلمة العماد الأصفهانى، وقد جرب التأليف والتقديم:

«إنى رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً فى يومه إلا قال فى غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يُستحسن، ولو قُدّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر...».

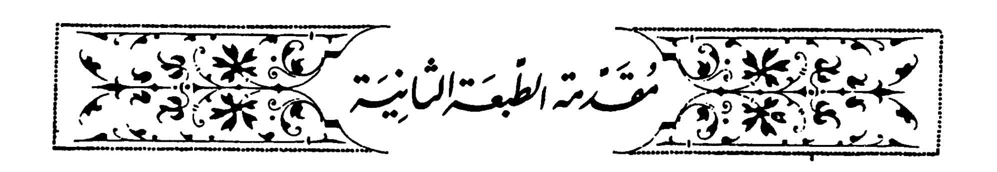
بقى جواب لسؤال قد يجول فى خاطرك: كيف تكتب عن أعلامٍ من طرابلس ولا تكتب عن برقة الحبيبة وفزان الكريم؟ كيف تكتب عن جزء من أرض الوطن ولا تكتب عن ليبيا، وأنت من دعاة الوحدة الوطنية والعربية؟ بل قاسيتَ فى سبيلها ألواناً، ولاقيت كثيراً؟.

إنى أؤمن بوحدة هذا الوطن.. ولكن فى هذه التراجم أكتب عن ناحية من نواحيه، وجزء من أجزائه، كما يكتب الكاتب المصرى عن الاسكندرية مثلاً كتاباً خاصاً وعن علماء أسيوط أو قِنا، أو يكتب الكاتب الشامى كتاباً عن حلب أو علماء دمشق؛ هذا من ناحية، ثم إنى لم أجد مصادر تُسعفنى ومراجع تكفينى فى العصور التى طرقتها من التاريخ الإسلامى.

وأذكر هنا كلمة «يحيى بن خالد»: «لا يزال الرجل فى فسحة من عقله ما لم يقل شعراً أو يؤلف كتاباً»؛ وقالوا: «من ألَّف فقد استهدف»؛ فأنا هدف للناقدين، ولكنى أستميحهم عذراً فى أنَّ هذا مقدار اجتهادى، فإنْ أحسنت فلى أجران، وإن شطَّ المقال وأسأت فإن لى أجراً واحداً يكفينى ويُرضينى؛ فقد حاولت أن أجعل من هذه التراجم الأدبية لَبِنة فى التاريخ الثقافى والتطور الفكرى لبلد إسلامى وعربى. هذا سهمى أدفعه وكتابى أقدمه، وهو أول بحث من نوعه فى تاريخ البلاد العلمى والأدبى. ولن أطيل عليك المقدمة فكتابى يقدم نفسه، ويكشف عن ذاته، والسلام.

طرابلس الغرب، 19 أكتوبر 1955

على مصطفى المصراتى



مقدمة الطبعة الثانية

وهذا كتاب «أعلام من طرابلس» يعود إلى رفوف المكتبات بعد نفاد طبعته الأولى منذ سنوات. وهو أول كتاب كنت قدمته للقراء ودفعت به إلى الطباعة فى ليبيا.. عام 1955 م.

وكنا نبحث عن ملامح الفكر الإسلامى والعربى، ومدى التأثر والتأثير لهذا الفكر فى حياة هذا البلد.. وهو جزء من تاريخ الوطن العزيز.

وكنا نبحث عن عوامل الارتباط الفكرى وأصالة هذا الفكر فى تاريخنا الثقافى.

شخصيات منوعة..

من قبل القرن الرابع الهجرى إلى القرن الماضى..

تسع عشرة شخصية من الذين أنتجتهم هذه التربة الخصبة فى ظل الفكر الإسلامى العربى...

منهم الشاعر والعالم والمؤلف..

منهم المشهور والمغمور. .

منهم من هو جدير بالدراسة الأكثر اتساعاً وشمولاً. .

ومنهم من عدنا إليه فى دراسات أخرى، مسلطين عليه الضوء وباحثين عن آثاره. . ومؤثراته.

وهو كتاب قد شجعنا القراء على مواصلة السير فى هذا الدرب. . درب التراجم والدراسة العلمية. .

وأصدرنا بعده مؤلفات متنوعة. . ولكن ظل الكتاب له فى النفس ذكريات وصدى. . باعتباره الكتاب الأول للمؤلف. . أو الطرقة الأولى فى هذا المجال. .

وتكرر السؤال!.

لماذا لا يعاد طبع هذا الكتاب بعد نفاد نسخه وهو من بواكير المحاولات فى الدراسات الأدبية؟. . وبعد مرور سبعة عشر عاماً ها هو كتاب «أعلام من طرابلس»، يعود إلى القراء فى طبعته الثانية.

وما أظن أن المقدمة تحتاج إلى مقدمة، فلقد كانت للكتاب مقدمة من أستاذنا المرحوم فريد أبو حديد. . الذى كان وجوده فى بلدنا من مواسم الفكر الخصبة. . وهو أستاذ نذكره بكل خير وفضل. . فقد كان من الأساتذة الذين عملوا فى حقل الفكر والأدب العربى بكل جهد وإخلاص، وكان للكتاب مقدمة للمؤلف تحكى قصة مخاض الفكرة. . وظروفها الدافعة للكتابة. .

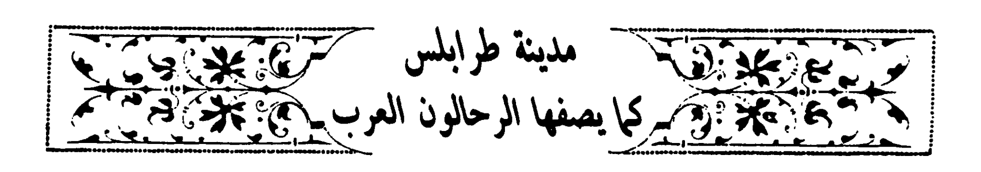
وكما أن الصعب أن يعيد المحاضر نفس المحاضرة. . أو المطرب نفس المقطع والنبرة، فإن إعادة المقدمة بأسلوب آخر يكون شيئاً فيه إجحاف. . فلندع الكتاب كما هو. . بصورته الأصلية وهو من نوع الطرقات على باب البحث، وهو من نوع لتىء المفاتيح. . من أجل أن نجد اليد التى هى أمهر من يدنا. . لفتح مجالات أوسع فى الدراسة والبحث.

ولا يفوتنى أن أقدم الشكر للأصدقاء أصحاب دار الفكر بطرابلس،

الذين أعادوا طبع كتابى «أحمد الشارف» ثم كتاب «المجتمع الليبى»، وها هم يعيدون طبع كتاب «أعلام من طرابلس»، وللقراء الشكر على التشجيع والمعذرة على التقصير من جانبى.. ولله وحده الكمال.. والله وحده الموفق.

طرابلس، 1972

ع. مصطفى المصراتى



مدينة طرابلس
كما يصفها الرحالون العرب

عندما كنت فى مصر طالما اشتقت إلى طرابلس، باب المغرب وسيدة الصحراء، وطالما تصورت منها صوراً ذهنية. وكنت أستمع لوصفها من الأهل والأقارب والأصدقاء حتى إذا ما كبرت قليلاً ذهبت إلى كتب التاريخ وإلى مشاهدات الرحالين علّى أجد فى ذلك صورة أو صوراً عن طرابلس وآثارها ورجالها فتكوّن عندى من ذلك صورتان: صورةٌ من القصص والأحاديث والأسمار، وصورةٌ من الرحلات.

وتشاء الظروف، أو يشاء الله، أن أرى طرابلس وأحلّ بها وأعيش فيها أياماً طوالاً، فكونت من هذ الصورة الثالثة عن طرابلس... صورة المشاهدة والرؤية والإحساس. ولكن الصورة التى قدمها لنا وحدثنا عنها الرحالون من العرب فيها طرافة، وبها دراسة، وهى صفحة من صفحات التاريخ وسطور طيبة من الذكريات. فقد كانت معبراً وسبيلاً للمشارقة الذين يريدون التوجه إلى المغرب أو بلاد الأندلس. كما كانت بطبيعة الحال معبراً وسبيلاً للمغاربة والأندلسيين الذين يريدون التوجه للمشرق. ومن هنا كانت طرابلس محطًا

هاماً وموقعاً طيباً يأخذ ويُعطى، يستقبل ويودّع. وكانت الرحلة للحج أو لطلب العلم فى الأزهر، أو لطلب المجد والطموح.

مرّت بطرابلس الجيوش الإسلامية والقوافل العربية ورِكَاب الحجيج وطلاب العلم وطلاب المجد؛ وكل راحل وقادم من هؤلاء أخذ صورة وكتب صفحة عن طرابلس، باب المغرب، وطريق الأندلس، وسيدة الصحراء... وفى كلمتى هذه سأعرض لوناً من أحاديث بعض الرحالين عن مدينة طرابلس.

أكثر الرحالة حديثاً عن مدينة طرابلس وأصدقهم قولاً وأحسنهم مرجعاً هو (التجانى). كانت رحلته للحج فى القرن الثامن عام 708 هـ - 1308 م، وأقام بطرابلس عاماً ونصف عام. واسمع معى التجانى يصف مدينة طرابلس أعزّها الله:

«ولما توجهنا إلى طرابلس وأشرفنا عليها كاد بياضها مع شعاع الشمس يعشى الأبصار، فعرفت صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء، وخرج جميع أهلها مُظهرين الاستبشار رافعين أصواتهم بالدعاء».

ويصف التجانى عظمة طرابلس وآثارها ومدارسها وواليها والحمامات والشوارع فيقول:

«ودخلت حمام البلد، وهو المجاور للقصبة، فرأيت حماماً صغير الساحة إلا أنه قد بلغ من الحسن غايته ومن الظروف نهايته، وهو الآن محبس على بعض المساجد».

والشوارع الطرابلسية الجميلة يمر بها الرحالة التجانى فيعجب بالهندسة ويعجبه النظام وتروعه النظافة فيقول:

«رأيت شوارعها فلم أرَ أكثر منها نظافة وأحسن اتساعاً واستقامة، وذلك أن أكثرها تخترق المدينة طولاً وعرضاً من أولها وآخرها على هيئة شطرنجية. فالماشى يمشى مشية الرُّخِّ خلالها. ورأيت بسورها من الإعتناء واحتفال البناء ما لم أره لمدينة سواها».

ويصف أبواب طرابلس وموقع الغنم وباب البحر ومتنزهاتها:

«ويخارج باب البحر منظر من أنزه المناظر، مشرف على الساحل، حيث مرسى المدينة. وأما داخل البلاد فلا تكاد دار منه تخلو من نخلة أو كرمة».

والأزهار والرياحين والنرجس والورد المختلف العجيب يملأ طرابلس:

«وينبت بخارج البلد صنف من أصناف النرجس دقيق الورق لم أرَ أقوى منه فوحاً ولا أعطر روحاً. وبالبلد مساجد كثيرة مشهورة ومدارس كثيرة».

ويزور هذا الرحالة المدرسة التى أسسها ابن أبي الدنيا، المحدِّث الطرابلسى المشهور، ويحضر بعض الدروس فيها، ويذهب إلى أضرحة العلماء والأدباء، ويسأل عن كتب علامة طرابلس ولغويِّها الفذ أبى إسحاق الأجدابى، ويزور قبره ويشاهد بعض رسائله وكتبه بخطه. وبعد أن يمكث بطرابلس المدينة عاماً ونصف عام يودِّعها بقصائد طيبة ويثبتها فى رحلته.

وقال البكرى فى رحلته: «وأهل طرابلس أحسن خلق الله معاشرة، وأجودهم معاملة، وأبرهم بغريب؛ وعلى مدينة طرابلس سور جليل البنيان، وهى على شاطىء البحر، ومبنى جامعها أحسن مبنى، ولها أسواق حافلة جامعة، وحمامات كثيرة فاضلة، وبطرابلس مسجد يعرف بمسجد الشعاب مقصود، وفيها رباطات كثيرة يأوى إليها الصالحون، أعمرها وأشهرها مسجد الشعاب. ومرساها مأمون من أكثر الرياح».

وهذا الرحالة العياشى يأتى من أقصى المغرب، يسعى ويحل ضيفاً على طرابلس فى القرن الحادى عشر سنة 1072 هـ ـ 1660 م فيقول:

«كان دخولنا مدينة طرابلس قرب ظهر يوم الأبعاء 17 رجب. وهى مدينة مساحتها صغيرة وخيراتها كثيرة ونكايتها للعدو شهيرة، ومآثرها جليلة، ومعائبها قليلة. أنيقة البناء مجسمة الغناء، عالية الأسوار متناسبة الأدوار، واسعة طروفها سهل طروقها».

ويعجب العياشى بأخلاق الطرابلسيين وقوة ذكائهم وكثرة حدبهم على الغريب وحبهم له، فيقول فى رحلته:

«. . .إلى ما جُمع لأهلها من ذكاء الأوصاف وجميل الإنصاف وسماحة على المعتاد زائدة، وعلى المتعاقبين بأنواع المبرورات عائدة. لا تكاد تسمع من أحد من أهلها لغواً إلا سلاماً. ولو لمن استحق ملاماً. سيما مع الحجاج الواردين، أو إلى من انتسب إلى الخير من الفقراء العابرين. فإنهم يبالغون فى إكرامهم».

ويصف العياشى أبواب طرابلس ومساجدها وعلماءها ورياضها، ويذكر فى رحلته كثيراً من الأخبار والأشعار. إلا أنه ـ والحق يقال ويكتب ـ كان العياشى مخرِّفاً فى التاريخ، كثير الاعتقادات فى الأولياء والكرامات. فمن الخرافات التى رواها «العياشى» عن مدينة طرابلس: إن أهل المدينة كانوا أهل دنيا عريضة، وما لهم بالحرب عبرة. وقدم عليهم سبعة من الأجانب تجّاراً نزلوا بالشاطىء، واشترى طرابلسى من عندهم، واستضافهم رجل آخر، وقد قدم لهم مائدة ودق ياقوتة ثمينة دقاً ناعماً وذرها على الطعام. فبُهت الأجانب من هذا الصنيع. فلما أكلوا قدم لهم «دلاعا». وطلبوا سكيناً. فلم يجدوا فى الدار ولا عند الجار، إلى أن اشتروا من السوق سكيناً. فلما رجع الأجانب إلى ملكهم قالوا: ما رأينا بلداً أكثر من طرابلس مالاً ولا أقل سلاحاً وأعجز عن المدافعة، وكان بعد هذا أن أُخذت طرابلس فى ليلة واحدة. هذه خرافة طبعاً؛ كيف لا يوجد فى البيت سكين وصاحبه ثرى؟ ثم كيف يدق الياقوت على الطعام؟

مكث «العياشى» فى طرابلس أشهراً قليلاً، ونظم فيها أشعاراً كثيرة من نوع شعر المتأخرين، الذى يقعد على الطريق مدلياً بلسانه؛ منها قصيدة تبلغ 150 بيتاً سماها نفثة المصدور إلى الإخوان والصدور. . وهى مع ذلك مرجع طيب.

أما الرحالة ابن جبير الأندلسى فكانت رحلته فى القرن السادس سنة 578 هـ 1182 م، ولكنه مع الأسف لم يذكر شيئاً فى رحلته عن مدينة

طرابلس، وذلك أنه رحل عن طريق البحر فى سفينة صغيرة من غرناطة إلى الإسكندرية، واستغرقت رحلته الخطيرة ستة أشهر وصف الاسكندرية وعمودها، ومصر وأهرامها، ولكن طرابلس لم تظفر منه بشىء.

وأما الرحالة ابن بطوطة فكانت رحلته فى القرن الثامن سنة 720 هـ 1320 م. يحدثنا ابن بطوطة عن طرابلس فى سطور قليلة وكلمات ضئيلة هزيلة: «ثم خرجنا من قابس قاصدين طرابلس، وصحبنا فى بعض المراحل نحو 100 فارس. ووصلنا مدينة طرابلس وأقمت بها مدة؛ وكنت عقدت بصفاقص على بنت لبعض أبناء تونس فبنيت عليها فى طرابلس، وخرجت من طرابلس فى أواخر محرم. وأقام الركب فى طرابلس خوفاً من البرد والمطر وتجاوزنا مصراتة وقصر سرت ووقع بينى وبين صهرى مشاجرة أوجبت فراق بنته... الخ».

ولعل من الطريف أن أذكر هنا معلِّقاً أن ابن بطوطة لم يذكر شيئاً عن مدينة طرابلس سوى أنه دخل وتزوج ثم طلَّق فى سرت ثم تزوَّج مرة أخرى إن ابن بطوطة كان مشغولاً بالزواج، أى كان عريساً فى طرابلس ولم يكتب شيئاً فى مذكراته ويومياته وأيام إقامته فى طرابلس، خوفاً من البرد والمطر. هذا لا يكفينا من ابن بطوطة عن طرابلس المدينة العظيمة، وقد نلتمس له سبباً آخر. لعل ابن بطوطة كتب شيئاً عن طرابلس ولكنه ضاع، وذلك لأن هذه الرحلة التى فى أيدينا ليست كما كتبها ابن بطوطة، بل هى من ضم وجمع (ابن جزى الكلبى)، كما إن رحلة ابن جبير الأندلسى التى بأيدينا جمع وضم (أبى الحسن الشارى). لعل هذا هو سبب الاختصار أو الإغفال. ومهما يكن من أمر فإن ابن بطوطة ما أنصف طرابلس كما أنصف القاهرة والاسكندرية والهند والسند. وأما الذين كتبوا فأكثروا وأشبعونا كتابة فهم التجانى والعياشى والبكرى والعبدرى وصاحب كتاب تفريج الكرب الحشائشى.

سيدى القارىء، يظهر أن قلمى انزلق على الورق فأمسك به الآن، وموعدى معك فى أيام مقبلة حيث أحدثك عن رحالين آخرين، ثم أحدثك عن طرابلس فى الشعر العربى.





أبو الحسن بن المنمّر

الأديب العالم والباحث الدارس
348 هـ - 432 هـ .
959 م - 1040 م .

هذا رجل من رجالات طرابلس شارك فى ميدان العلم فكتب وألف، وأفاد ودرس؛ وساهم فى ميدان الأدب فسمع وروى، ونقل وحاضر، وناقش وحفظ واستوعب؛ وشارك فى ميدان السياسة فغمرته وقدمته وأخرته، حتى جنت عليه حوادثه فكان ضحية من ضحايا الاضطهـاد والنفي والغضب؛ واشترك فى الحياة الاجتماعية فلم يكن شيخاً منزوياً ولا منقطعاً عن موكب الحياة، بل كان حيوياً، أعطى للحياة سهامها حتى راشته السهام؛ وسافر وارتحل وتغرب وشرق، فكان مستفيداً مطلعاً، أخذ من تجارب حياته صلابة الرأى وقوة الفكر والصمود للحادثات مهما بلغ عنف تيارها.

كان أبو الحسن على بن المَنَمِّر، فى طرابلس، علم وقته وشيخ زمنه ورائد قومه؛ فى سبيل مذهبه ورأيه دفع راحته وطمأنينته، وجاهر برأيه عندما كان الناس كل الناس يضعون آراءهم فى أكمامهم، وكـانت تدور همسـاً فجعلها علانية رغم ما تألب عليه وما جرته الحوادث من زعزعات وكوارث. كانت صفاته من قوة الإرادة والجرأة الممتلئة بالمعرفة والمحوطة بالأدب والفطنة صفات حمد وثناء، ولكنها تجر أحياناً على صاحبها المصاعب والأرزاء.

وهو من أقدم رجال الفقه والرأى فى طرابلس الغرب، إذ كان من رجالات القرن الرابع الهجرى، وعلى وجه التأكيد كان مولده سنة 348 هـ - 959 م بمدينة طرابلس. ولد فى بيت فيه نعمة وثراء، ودار متسعة الأرجاء مفتوحة الأبواب للوافدين، شأن الكرماء. وكان بيت ابن المنمِّر فى وسط المدينة ملاصقاً لمسجد (أبى مسلم مؤمن بن فرج الهوّارى)، وقد أُطلق هذا الاسم على ذلك المسجد لأن «أبا مسلم» كان يدرِّس فيه ويُفصِّل مُحكم الآيات ويبسط جوامع الكلم، فى عهد ازدهرت فيه علوم الحديث وفروع الدراسات الإسلامية. وقد توفى أبو مسلم هذا سنة 442 هـ - 1050 م بطرابلس. ومن نافلة القول أن نذكر كيف درس ابن المنمّر، فهو بلا شك سار على درب أترابه من دراسة القرآن حفظاً وعلوم الأوائل على طريقة السلف؛ غير أن نضج الفتى ظهر قبل أوانه، وتفتحت بشائر نبوغه حتى وهبه أهلُه للدراسة والتبحر فيها، وقد كان له ميل إلى (القرآن) وما يتصل بفن (الميراث)، من حساب وتقويم وتقدير وضرب؛ وكان فن الميراث يتطلب حضور ذهن ودقة انتباه.

وكان أبو الحسن بن المنمِّر صاحب رحلة ونقلة؛ وقد استفاد من رحلاته وتنقلاته تأدية فرض الحج ثم ملاقاة أهل الفكر والأدب والعلم من شيوخ وأساتذة. فقد أتيحت له جلسات مع الفقيه أبى محمد أبى زيد فنهل من فيض تبحره؛ ودرس مذهب مالك دراسة خبير فاحص، وناهيك (بأبى زيد) إذا حدّث فى فقه مالك، وناهيك بابن المنمِّر إذا جلس للاستيعاب والالتقاط: . . . أستاذ ممتلىء وتلميذ فهم عطوش إن صحّت هذه الصياغة.

وفى رحلته إلى مكة أُمِّ القرى صقلت ملكته الأدبية عندما زجّ بنفسه فى حلقات أهل الفكر والأدب ورواة الشعر من الذين كانت تموج بهم مكة المكرمة وخاصة فى مواسم الحج حيث تتلاقى الأفكار وتتلاقح العقول. . . ويكون فى سوق الأدب والفن صادر ووارد وآخذ ومعطى. وعند مكة فى عصورها الزاهرة، وفى ظلال الكعبة المكرمة نبتت آثار طيبة وكانت ثمراً طاهراً من لقاح العقول والصدور.

وكان ابن المنمِّر عندما وفد على مكة فى سن مكتملة وعمره 41 عاماً فى سنة 389 هـ ـ 998 م، استوت رجولته ولكنه مازال نهماً للاستفادة وتطلب العلم والتقاط شوارد الأدب. وهل كان يعرف أولئك الرجال الأفاضل سناً يقف فيها طالب العلم عن الأخذ والتناول والرواية والسند والإستناد؟.

وفى مكة لقى ابن المنمِّر الشاعرَ الأديب الظريف «أحمد بن زريق البغدادى»، صاحب القصائد التى تنم عن نفس هزّها الحب وأحرقها الشوق الملتاع. وأخذ الطرابلسى يصغى إلى ابن زريق البغدادى ويروى عنه، معجباً به متأثراً من دقة إحساسه واحتراق أنفاسه. وكم من أمسية عند ظلال الكعبة المقدسة أخذ ابن زريق يروى قصائده وابن المنمِّر وغيره من رجال الأدب والفكر ينصتون ويروون. ويلتف حول ابن زريق لفيف من الأجناس المتعددة الذين قدموا مكة. ولا عجب، فشعر ابن زريق جذّاب، بل كان يقال قديماً «من تختَّم بالعقيق وقرأ لأبى عمرو وحفظ قصيدة ابن زريق فقد استكمل الظرف»... وقد استكمل أبو الحسن بن المنمِّر الطرابلسى كل أسباب الظرف والأدب، فهو أنيق ظريف، فصيح طليق ذليق، وهو يصغى كل الإصغاء لأستاذه ابن زريق وهو يردد:

لا تعذليه فإن العذل يولعه
قد قلتِ حقاً ولكن ليس يسمعه
جاوزتِ فى لومهِ حدّاً أضرَّ به
من حيث قدَّرتِ أن اللومَ ينفعه

وقصيدة ابن زريق، قد أنشدها بمكة ونظمها هناك، ولم ينظمها ببغداد، فهو يحترق ويسمع الملتفين حوله:

أستودِعُ الله فى بغدادَ لى قمراً
بالكَرخ من فلك الأزرار مطلعه

ودعتُه وبُودِّى لَو يودعنى
طيبُ الحياة وأنّى لا أُودِّعه

وكم تشفَّع بى ألَّا أُفارقه
وللضرورات حال لا تشفّعه

ترى... كم من مرة رددها ابن المنمِّر؟ وكأنه يستودع شيئاً له فى طرابلس؟ وما يدرينا... لعله وجد فى قصائد ابن زريق وحرقات أنفاسه صوراً فنية وأحاسيس مشابهة!...، فقد كان من تلامذته ورواة شعره والمعجبين بإنشاده، غير أن الفرائض والمواريث وحسابَ الأزمنة والأمكنة وفروع المسائل الفقهية والمذهبية وحوادث مجتمعة، كل ذلك غطى على شخصيته الأدبية وكشف عن معالم أخرى من شخصيته الفذة.

وكما جلس إلى أبى زيد يستوعب مسائل الفقه، وجلس إلى ابن زريق يروى الشعر الطلبى، فإنه يجلس إلى الشيخ أبى القاسم عبد الرحمن الجوهرى فيروى عنه وينقل منه ويتتلمذ عليه، فيكون قد استكمل الدعائم الثلاث: الفقه والأدب واللغة، وهى مقومات الشخصية العلمية فى عصور مضت.

وعاد أبو الحسن بن المنمِّر إلى بلده طرابلس بعد أن أدّى فرضاً واكتسب جديداً وأراد أن يسهم فى الدرس والتوجيه. وكانت حلقات المساجد مجالاً لنشاطه وإن كان يتطلع إلى أكثر من هذا، فهو لا يكتفى بالدرس والشرح بل كان أكثر نشاطاً وحيوية.

وفى مجال التأليف قدّم كتابه (الكافى)، الذى عد عمدة فى فنه ومرجعاً فى بابه، ودرسه علماء المشارقة وعلماء المغاربة وأشار إليه «ابن خلدون»... كان ما يكتبه ينقله تلامذته ومريدوه بإتقان وعناية.

ومنذ عودته لطرابلس اشتغل بالتأليف والتدريس، ولكن ليس هذا فقط ما يُظهر أثر شخصيته، بل نجد فى تاريخ هذه الفترة موجة تكتسح البلاد، بل تكتسح الشمال الإفريقى كله. موجة عاتية مزمجرة من المذهبية والطائفية والآراء التى انتقلت من حلقات المساجد وألسنة العلماء والفقهاء إلى رؤوس

الحكام وأهل السياسة... فوجدوا فيها ميداناً لما يريدون والتوجه بها نحو ما يبتغون.

وكم شهد تاريخ السياسة وتاريخ الثقافة ألواناً من المذاهب والطوائف والملل والنحل تطورت وانتقلت من المناظرات والمجادلات من بطون الكتب إلى أروقة السياسة، بل إلى ميدان التطاحن الحربى بدل التطاحن اللفظى والخلاف المذهبى؛ وهذا ما يسطره كثير من تواريخ فترات ودويلات وقلاقل وشخصيات ومدارس تجدها مبسوطة ظاهرة فى مكان بحثها، ولا يهمنا من هذا كله هنا إلا شىء واحد.. هو أن صاحبنا الذى نترجم له قد غمرته أمواج من الخلافات الموجودة فى عصره وزمنه... خلافات فى آراء مذهبية واجتهادات فكرية وتطاحن بين القوة الحاكمة باسم ذلك الرأى... الذى تملكوا به الشمال الإفريقى كله وبين آراء أخرى درسها وآمن بها وتمعن فيها الفقيه الفرضى أبو الحسن على بن المنمِّر.

كان الصراع عنيفاً بين (آل عبيد)، الذين نشروا «الرفض»، وبين ابن المنمِّر الذى أراد أن يبسط مذهباً درسه وتعمق فى أصوله وفروعه... هو لا يريد من نشر آرائه إلا إبانة الكتاب والسنة ومذهب ابن أنس، وهم يريدون أموراً أخرى من السياسة والتملك وسيطرة الإدارة. وكان من الصعب جداً أن يجاهر ابن المنمِّر بما جاهر به، وخاصة فى هذا القرن وفى تلك الفترة بالذات سنة 408 هـ. وكاد يندثر مذهب ابن أنس وقد ضاعت آثاره وتأثيراته لولا ابن المنمّر الذى جدّده فى طرابلس الغرب وأحياه من مواته... وأعاد الناس إلى حظيرة أهل السنة والجماعة. وهو، كما أثبت الباحثون، أول من اقتطع من الأذان عبارةً كانت تكاد تكون شعاراً «لبنى عبيد» «حىَّ على خير العمل». ورفض ابن المنمّر الرفض وجاهر بالأذان المعهود (حىَّ على الصلاة)، وكان الأذان طبعاً يتطلب جهراً وإجهاراً فكان سبباً فى تألب (بنى عبيد) عليه والنظر بروح الاحتياط منه.

ثم هو لا يكتفى بهذا بل يدعو الناس إلى صلاة الضحى، التى كان أهل الحل والعقد فى بلدهم قد منعوا منها الناس، وشددوا فى المنع حتى ألقى

فى البحر من صلاَّها. . . فجاء ابن المنمّر يدعو الناس علانيةً إلى إحياء هذه السُنَّة، صلاة الضحى. وليس هذا فحسب بل هو يجد البلاد قد قطعت سُنَّة حميدة، سُنَّةَ صلاة القيام وصلاة التراويح خوفاً من سيطرة (بنى عبيد)، الذين منعوا الناس منها وشددوا. ويذكر التاريخ حيلة من حيلهم فى المنع أن يقرأ المصلى لها ختمة كل ليلة، وكان ذلك يشق على الناس فتركوها كما يريد (بنو عبيد)، وكما تطلب آراؤهم؛ فكان ابن المنمِّر داعياً إلى إحياء سُنّة التراويح والإقامة.

كل هذا جعله فى مستوى النظر أو مصاب المرمى والهدف، فما كانت هذه الشعائر تقام أو يجرؤ أحد على التحدث فى شأنها، لما كانت من ظروف مذهبية مشددة سيطر بها (بنو عبيد) فى القرن الثالث وشيئاً من القرن الرابع؛ وهى فى الواقع خلافات لا تقدم ولا تؤخر فى جوهر العقيدة، ولكن، كما سبق أن أشرنا، هى موجات من الفكر والآراء احتضنها - بنو عبيد - كى يشقُّوا طريقهم نحو التسيطر والتحكم. . ولكن ابن المنمّر العالم الورع الذى يريد إحياء سنة رسول الله وشعائر نبيه أبى أن يرى تشدُّداً فيصمت، أو معروفاً مهجوراً فيسكت، أو منكراً منتشراً فيتغاضى، فتصدى - شأن العالم المسلم الصادق - للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإحياء السُنَّة المحمدية.

وقد حدّث الشيخ أبو الحسن القابسى عن صنيع (بنى عبيد) فى القيروان وغيرها. من هذا الحديث نستطيع أن نفهم مقدار ما كان يعانيه ابن المنمّر فى طرابلس. ويتحدث القابسى عن الموقف الذى وقفه الشيخ أبو زيد القيروانى هناك، وهو أستاذ ابن المنمّر الطرابلسى، فكان موقفاً فيه من الحنكة والترفق ما جعله بمنأى عن العنف والشدة. أما صاحبنا وتلميذه ابن المنمّر فى طرابلس فقد شاءت الظروف والأحوال أن يصطدم مع (بنى عبيد) اصطداماً عنيفاً حتى انتهز بعض الفرص وأراد الإيقاع بهم مقابل ما صنعوه من عنف وتشدد. . فاشترك فى السياسة وهذه السياسة آفة ملعونة فى كل عصور التاريخ، شرُّها أكثر من خيرها، وضررها أكثر من نفعها، ولهيبها يؤذى أصحاب الفكر والعلم غالباً.

وما كان اشتراك أبي الحسن على بن المنمّر فى مجال السياسة قاصداً به مأرباً خاصّاً، إنما ساقته الأحوال ودفعه الدفاع عن الآراء المذهبية التى انبرى لحفظها وصونها من التداعى والانهيار.. ولكنها كانت خطة جرَّت عليه كارثة بل محنة. وفى الاضطرابات السياسية التى هزَّت البلاد واجتاحت أكثر الشمال الإفريقى كان ابن المنمّر يود لو يجد من يسند آراءه ويعضد به مذهبه ويجاهر فى ظله بأفكاره الفقهية واجتهادات أصحاب المذهب السنى الذى حمل لواء الدفاع عنه. وعندما قتل (زغبة) سنة 429 هـ ـ 1037 م سعيد بن خزرون وجد أبو الحسن ابن المنمِّر الفرصة السانحة لبعث دراسة منهجية الذى سلكه وإحياء آراء مالك بن انس. بل ليس هذا فقط... بل نزل أبو الحسن ابن المنمّر إلى ميدان السياسة وخاض فى معامع الحوادث بكل جهده وكل حواسه حتى أشرف على الهلاك من جراء ما جرته الحوادث فى تلابيبها. ارتاح الفقيه العالم من سيطرة (سعيد بن خزرون) وساعد خصمه ومعارضه (خزرون ابن خليفة)... ساعده بالرأى والفكرة بل بالرجال والمال.

ويحكى التاريخ المسجل لتلك الآونة وعواصفها أن الشيخ الفقيه (فتح) مدينة طرابلس؛ وما كان يبغى من وراء ذلك (الفتح) مأرباً خاصاً ومغنماً شخصياً.. وما كان من حركته يريد أن يستأثر بشىء لنفسه، فما كان يطلب حكماً ولا يبغى تحكماً... إنما كان كل همه وغرضه من الحركات المتطورة، والمساهمة فيها.. هو نشر مذهبه وإعلان ما كان يستره الناس من آراء تدور حول ذلك المذهب الذى كاد أن يندثر ويتلاشى.. فأحياه كما أحيا طريقة الإمام السالك (الجنيد)، مما كان له أثر كبير فى تطورات الأحداث فى سنة 429 هـ ـ 1037 م، ووقف مؤيداً (لخزرون بن سعيد). وأقام هذا الأخير حاكماً لطرابلس شهراً، ومن غير شك كان سنده ومستشاره والرجل المفضل عنده هو صاحب الفضل عليه الشيخ أبو الحسن بن المنمِّر.

ولكن هل يطول ارتياح خزرون بن سعيد وصاحبه الفقيه؟

لم يأتِ شهر ربيع الأول من السنة التالية، سنة 430 هـ ـ 1038 م، ولم يكد يرتاح ابن المنمِّر من سعيد وبنى عبيد، حتى يصل إلى مدينة طرابلس

المنتصر بن خزرون، وكان هذا الرجل مؤيِّداً لمن عارضه وحاربه ابن المنمِّر. . وكان المنتصر بن خزرون ساخطاً على ابن المنمِّر وعلى تأييده لخزرون بن خليفة. وجاء هذا الساخط الناقم فى عرمرم من الجيش وكتائب من عساكر (زناتة)، فيهم شدة وبأس، يطيعون أمر المنتصر ابن خزرون طاعةً تقلق راحة ابن المنمّر وحليفه (خزرون بن خليفة). وهنا يشعر حليف ابن المنمّر بالخطر الداهم، ويدرك عاقبته لو وقع أسيراً فى يد الساخط الزاحف. وتسلل خزرون بن خليفة هارباً تاركاً البلد، نافذاً بنفسه ناجياً بجلده. . . ووجد الشيخ ابن المنمّر نفسه بعد فرار صاحبه فى حيرة، والأمور تتطور بسرعة عاجلة. . والحوادث تلتف فى العجلة الدائرة. . هل يستطيع أن يتملص ويُنكر؟ وكل الدلائل أصابع تشير إلى مدى اشتراكه وتوجيهه ودوره فى الحركة المضادة للزاحف الساخط الباحث عن أتباع ابن المنمّر وأتباع الهارب خزرون بن خليفة؟. . لقد مهد ابن المنمر للحركة المضادة واشترك فيها اشتراكاً فعالاً. .

وجد ابن المنمّر نفسه فى مأزق ومزالق وأجواء خانقة. . . إن الرياح تسير بمركبته نحو الهاوية، بعد كل ذلك الجهد وذلك الجهاد. . . إنها أخطار السياسة. . لا تدرى كيف تهب سمومها ولا كيف تتبدل عجلة الأحداث. ويقدم المنتصر بن خزرون فى جلبته وكوبته ويقع ابن المنمّر فى يده. وقف الشيخ تجاه الساخط الزاحف وجهاً لوجه. . ما عساه أن يفعل وليس معه الآن من سلاح سوى الآراء والأفكار. . وهل تجدى فى ميدان اللقاء، لقاء خصم يجر وراءه جيشاً وعساكر؟

وقع فى يده وقعة المغلوب فى يد الغالب المغيظ الحانق، فماذا كان مصير أبى الحسن بن المنمّر، بعد أن هرب من أيَّده وعمل فى جانبه؟ كان يود المنتصر ابن خزرون لو يستطيع أن يفتك بابن المنمّر الفتك الذريع، وأن يهدر دمه، ولكنها حوائل حالت دون ذلك وموانع صدته. . كبرُ سنه، فهو يقارب الثمانين. . وقارُ العلم وشيبة لها أثر وتأثير، ثم مكانته وقيمته. . أهل البلاد جميعاً يحترمون علمه ويقدرون وقاره. . لا شك أن الفتك به سيكون له أكبر الأثر السيء فى نفوس أهل البلاد، وإنها تجر عليه قلاقل فوق القلاقل، ولهذا

آثر المنتصر بن خزرون ألّا يقتل ابن المنمّر كما قتل كثيرا من الخصوم والمحاربين له. ولكن بقاء الشيخ ابن المنمّر فى مدينة طرابلس لا يرتضيه ولا يرضيه.

ولجأ الزاحف الساخط إلى الانتقام من أتباع ابن المنمّر.. وضيَّق كل التضييق على فقيه البلاد، وحاصره وشدّد عليه الخناق وصادر أملاكه ومصادر أرزاقه.. وعذّبه عذاب الهدهد عندما ينتف ريشه ويلقى به فى واد سحيق. وليس بدعاً فى تاريخ الفكر الإسلامى أن يجد أحد الفقهاء والعلماء عنتاً وتعنتاً، ويشرب الكأس مرًّا مراراً.. فقد اضطهد الباحث المرشد الإمام «ابن تيمية» على آراء نشرها وأفكار بذرها، وقبله كان الإمام «أحمد ابن حنبل» ألهبت السياط ظهره، وكادت أن تقطع أنفاسه لأجل الجدال حول مسألة من مسائل التوحيد والتشريع، وكان أحمد ابن حنبل صامداً صابراً لما وجده من شدة، وما لقيه من قسوة.. وعلى منهجه سار كثير من الصابرين من رجال الفكر الإسلامى، تناثروا فى سماء الفكر تناثر النجوم فى الليالى الحالكة.

كذلك لقى أبو الحسن بن المنمّر مثلهم ألواناً من الاضطهاد والتعذيب والتضييق. كانت آراؤه الفقهية واجتهاداته المذهبية تتلجلج فى صدره ولا تجد طريقاً للانطلاق.. وكان الشيخ الفقيه والعالم الدارس يبحث عن تلاميذه فلا يجد لهم أثراً ظاهراً.. فقد انفضوا من حوله بسبب الحصار الذى ضربه عليه الزاحف الساخط؛ وضربت الأسوار بين الشيخ وطلابه، بين العالم وأنصاره، ولم يستطع ابن المنمّر أن يجد حلال رزقه ولا حلقة درسه ولا راحة لنفسه، بل وجد أياماً ذات رهبة قضاها الشيخ فى شدة وحصار ومراقبة وتهامس وحذر وأخذ بالخناق، وكل هذا كان يؤلم الشيخ ابن المنمّر أشد الألم، فصبر صبر أهل الإيمان يبدد ظلام أجوائه بما يجده من حلاوة الثقة بالله والاعتماد عليه.

ولم يكتف المنتصر بن خزرون بالتضييق والمصادرة وإقصاء الناس من حوله ومصادرة الأملاك بل منعه من مواصلة الدرس فى الجامع والدرس فى البيت. والعالم يتحمل كل شىء، ويهون عنده كل شىء، إلا عندما يحبس علمه أو يُحبس عنه العلم، عند ذلك يرى الموت الأحمر والموت الأكبر..

يتجرعه ولا يكاد يسيغه، وأيضاً لم تقف محاربة المنتصر بن خزرون عند هذا الحد بل نفى ابن المنمِّر إلى خارج طرابلس. . نفاه إلى خارج المدينة. . إلى قرية من القرى التى كانت فى ذلك الوقت قليلة السكان كثيرة الصخور والنتوء. .

وكان يود الشيخ المنفىّ أن يحمل كتبه ويصحب معه من يؤنسه فى المنفى

ولكنه ما استطاع أن يحمل معه إلا مؤلفاته التى يعتز بها ويخاف عليها من الضياع. ولم تهم الشيخ ابن المنمّر أملاكه المصادرة ولكن مؤلفاته فى الفرائض وفى الفلك والأزمنة والأمكنة، وغير ذلك من فنون اللغة والتشريع. . خاف عليها من أيدى العابثين، فنقلها معه، وأوصى تلاميذه بالمحافظة عليها. ولولا محافظة طلابه عليها لما بقيت كتب ابن المنمّر فيها بعد أجيالاً طوالاً تدرس وتعتبر من الأسانيد الصحاح فى بابها؛ حتى أنه فى القرن الثامن الهجرى، عندما اجتاز على طرابلس من المغرب الفقيه أبو محمد عبد الله ابن عبد الكريم الغمارى قاصداً المشرق سنة 754 هـ ـ 1353 م، درس عليه طلاب طرابلس كتاب «الكافى» لابن المنمّر. فوجود هذا الكتاب فى القرن السابع، وبعده، وقراءة علماء المغرب له قراءة درس، تدل على قيمته من ناحية، وتدل على مدى محافظة ابن المنمّر وتلامذته على كتبه خوف ضياعها من وهيج الفتنة ولهيب الأحداث.

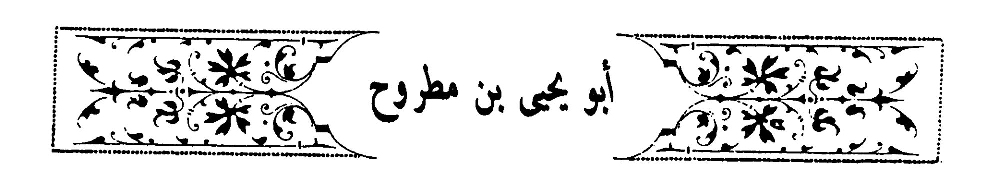
وهناك فى قرية (غانمية) أو (غنيمة) من قرى (مسلاتة) أُلقى بالشيخ مغضوباً عليه منفياً. . . على كبر فى السن. . . وتقدم فى العمر، إذ كان يناهز الثمانين. . . وفى هذه القرية النائية ذات الصخور الناتئة بقى أبو الحسن بن المنمر منفياً عامين كاملين، قضاهما فى التعبد والتهجد، وبين الحين والحين يُقدم إليه منْ أخلص له من طلابه ما يكفيه من زاد، ويُقدم إليه من أراد أن ينهل من معين علمه ويغترف من بحار فضله. كان أبو الحسن ابن المنمِّر فى منفاه (بغانمية) مسلاتة مثلَ عينِ الماء الطاهرة الصافية فى جوف الصحراء، يرد إليها الظمآن فيرتوى ويجد فى ظَلالها أمناً واسترواحاً. . ولقد شعر أهل القرى المجاورة بالعين الصافية وبالمصباح الذى يرسل ضوءه فى فيافى الصحراء

فقدَّروه وعظّموه. وقد سبقه اسمه مشيراً إليه.. ودالاً عليه.. عامين كاملين قضاهما الشيخ أبو الحسن بن المنمر فى منفاه يفيد ما أمكنه الإفادة، ويرشد ما أمكنه الإرشاد. وهكذا كانت سيمة العالم المخلص لعلمه حتى فى المنافى والسجون، وفى أوقات الشدائد يرسل من علمه أشعة ويغدق من فضائله وشمائله إغداقاً دون تقيد بمكان أو زمان، أو تأثرٍ بحالة من الحالات.

وقضى أجله المكتوب له.. وأنهى عمره المقدّر فى مسلاته عام 432 هـ - 1040 م فى منفاه ، وله من العمر اثنان وثمانون عاماً، قضاها في العلم، طالباً وأستاذاً، وفى البحث دارساً ومؤلِّفاً، وفى السياسة متقدِّماً ومتأخّراً، ومسموعَ الكلمة ومغضوباً عليه، وفى الرحلة مشرّقاً ومغرّباً .

وهناك على قارعة الطريق فى (مسلاتة) لا يزال ضريح (ابن المنمّر) موجوداً يزار كأى ولى من الأولياء.. وكثير من الناس لا يدرك من هو هذا ؟ ولا يعلم أهل مسلاتة أن عندهم يرقد شيخ عظيم من شيوخ الرأى والفقه، وضحيةٌ من ضحايا السياسة واضطرابها، وعلَمٌ من أعلام طرابلس (أبو الحسن على بن المنمّر) الذى غضب عليه خصمه ورضى الله عنه .





أبو يحيى بن مطروح

لوقفة عند «باب البحر» ضاحية وباب «هوارة» وموقف الغنم أشهى إلى النفس من كسر «الخليج» ومن «دير الزجاج» وشاطى بركة الخدم «أبو يحيى بن مطروح على شاطىء الإسكندرية، يتذكر أيامه فى طرابلس....»

...وهذا عَلَم من أعلام طرابلس، كتب صفحة فى تاريخها، وشاهد فترة عسيرة من تطور أحوالها، وكانت له كلمة مسموعة ومكانة محترمة. يُجلُّه قومه بما يوازى قدره ويُظهر فضله واحترامه، حتى (الصقليون)، أصحابِ الأسطول فى تلك الفترة.. فقد كان.. (أبو يحيى) رافع بن مطروح سياسياً كيِّساً، اكتسب من تصاريف الدهر تجارب وخبرة وحنكة وحكمة أفادته فى حياته، الخاصة والعامة، فكان (سفيراً) فيما بين القبائل، وحكَماً فيما بين العشائر، وساعياً بالخير ومفاوضاً من طراز السياسيين، أو بتعبير العصر الحديث (الدبلوماسيين). أخلص كل الإخلاص، وجعل فرصه المواتية للصالح العام؛ وامتاز (ابن مطروح) بنظرٍ حاد ونظرة بعيدة وقياس الغائب على الشاهد لاستنباط ما يمكن صنعه والسير عليه، فكانت نظرته الفاحصة الدارسة أبعد من محيطه، وفكرُه أبعدَ من جوه.

وقد كان (لبنى مطروح) فى طرابلس الغرب أصل وحسب وقيمة، وكانت إدارة البلاد فى يد مشائخ (بنى مطروح)، فقد انقرضت أسرة (بنى

خزرون)، وتلاشى حكمها من طرابلس، وظلت فى شبه استقلال ونوع من التحرر، وإدارة يدير دفتها شيوخ بنى مطروح. ولكن وجد هؤلاء بعض القلائل والتأثيرات، ولم تجتمع كلمة الناس ومحبتهم فى البلاد مثل ما اجتمعت (لأبى يحيى بن رافع). فقد كانوا أشد حبّاً له وأعظم تقديراً لما امتاز به من الإشادة والإجادة وحسن التصرف والمعاملة، لما فُطر عليه من خلق سمح ومروءة ورأفة، واتساع أفق ورحابة صدر.

وقد وجدت (صقلية) فرصة مواتية للهجوم على الشاطىء الطرابلسى؛ وطبعاً كان الهجوم أمراً مبيّتاً مدروساً شأن كل الهجمات والصدمات، لا تأتى فجأة وبغتة، بل بعد دراسة وتربّص، ومقايسة وطول انتظار، حتى تسنح الفرصة المناسبة والهجمة المباغتة. وهيأ نفسه قائد الأسطول الصقلى (رجار).

كان ذلك فى الثلث الأول من القرن السادس الهجرى، أو على وجه الدقة سنة 537 هـ ـ 1142 م فى ليلة 9 ذى الحجة، ليلة عرفات، والمسلمون فوق الجبل المقدس يكبِّرون، وأهل طرابلس يعدون العدة للعيد وتكبيرات العيد... وإذ بمشاعل أسطول (صقلية) تضىء وتقترب رويداً رويداً فى تسلل.. وكان على الأسطول الأميرال (جورج ميكائيل)، وقد أُطلق عليه أيضاً فى بعض المصادر وعُرف باسم «جورج الانطاكى». وكانت هذه الغزوة الأولى غير موفقة له، ولم يفلح فيها فأرجع الأسطول كرّته مرّة أُخرى بعد ثلاث سنوات، أى سنة 541 هـ الموافق 1146 م عن طريق الشمال الافريقى. وقد كان تضافر الجهود وتوحيد الكلمة واجتماع مشائخ بنى مطروح سبباً فى صد أسطول صقلية، ولكن فى الهجمة الأخيرة كانت خطة (جورج ميكائيل) أكثر حذراً. وأحاطوا مدينة طرابلس برّاً وبحراً فى ثالث يوم من شهر المحرم، وقد انتهز جنود (رجار) خلاف أهل البلدة وخلاف بنى مطروح أيضاً؛ وقد حاولوا إزاحة بنى مطروح وقدّموا رجلاً «ملثّماً» كان فى طريقه للحج.

وأقام أسطول (صقلية) فى الميناء ستة أشهر كاملة، ثم حفروا وخندقوا وجهّزوا، وأخذوا معهم رهائن وأسرى من قبائل بنى مطروح وأيضاً الرجل «الملثم» الذى وجده الصقليون بديلاً عن بنى مطروح. ثم من هنا تبدأ صفحة

لصاحبنا أبي يحيى. فقد وُلِّي على طرابلس وكانت هذه الولاية من أصحاب الأسطول الصقلي، ولكن هذا لا يُقلل من شأن أبي يحيى بن مطروح بل يبرهن على قوة شأنه وعظم مكانته في قومه، ثم يبرهن لنا أيضاً على إخلاصه نحو بلده وبني قومه فيما أبداه من ضروب الإصلاح.

ولم يكن (أبو يحيى) ميالاً إلى تسيطر وتشدد بل كان فيه رحمة المؤمن وكياسه الحاذق وتروِّي الحازم وصبر المغلوب المنتظر. وقد ظهرت فيما بعد نواياه الحسنة وروحه المسلمة العربية. لقد فاوض في صالح بني قومه، وحافظ على طابع البلاد القومي وشعورها الديني، ومقدساتها وشؤون التعليم والدراسة فيها: وجه (ابن مطروح) جهده مخلصاً لا لقتال وصد أسطول (صقلية)، فقد اتزن ووازن، وقاس بميزان التريُّث فوجد أن الكفة ليست في صالحه، والمجازفة أحياناً تكون ضرباً من التهور، وابن مطروح فيه حنكة الشيوح وصبر المنتظر للحوادث والمرتقب للغد البعيد.

وصاحب النظرة السياسية هو من يعرف ماذا يحتمل أن يكون بين طيات الغد من أحداث، ويوازنها بالموجود من الحوادث، ومعناها الخبرة والدقة وحسن الفراسة.. ولا يكون حكمه قاصراً على معرفة الموجود المشاهد فقط بل ما وراء المشاهد وما بعد الموجود أيضاً. وهكذا كان «أبو يحيى بن مطروح» ينتظر وينظر بمنظار بعيد الأفق واسع المرمى. فبعد أن تسلَّم ولاية طرابلس عكف على الإصلاح الداخلي وتنظيم شؤون الإدارة وترتيب القضاء ومسائل التعليم. وكان أهم شيء تصدى له ووجه إليه جهده، هو المحافظة على مقومات البلاد كبلد إسلامي، وبقاء روحها كروح عربية؛ إذ خشى ابن مطروح أن تضيع مقومات البلد وتذهب شعائره بين هذه الأمواج الصاخبة والجنود الهاجمة.

وقد كان مجهوداً حميداً ووضعاً قويماً؛ فقد حسنت حال طرابلس واستقام ميزانها، ونظمت اقتصادياتها وازدهر عمرانها في عهد «ابن مطروح». وقد شهد بهذا كل من زار طرابلس في تلك الآونة وكل من كتب في تلك الفترة. وقد

شهد بهذا أيضاً «ابن الأثير»، وناهيك به وحكمه فى التاريخ مشهود به مقبول معتمد.

ولقد قام «ابن مطروح» بأول مفاوضة فى تاريخ طرابلس، مفاوضة بينها وبين قوات أجنبية غير مسلمة. أنابه فى الدفاع والمطالبة أبناء البلاد، فاختاروه ليتكلم بإسمهم وأجمعوا على طاعته ومحبته وتفويضه بالاستشارة. وتقدم «أبو يحيى بن مطروح» ممثلاً عن طرابلس إلى «جورج ميكائيل» صاحب أسطول (صقلية)، وأظهر المفاوض الطرابلسى رغبة البلاد فى المحافظة على شعائرها وأمور دينها وإدارتها الداخلية وإلا.. فلا شروط أخرى إلا الجلاء، جلاء أسطول صقلية والعودة من حيث أقبل.

هكذا كانت مفاوضة قصيرة ومصاولة سياسية حكيمة، أظهر فيها أبو يحيى حنكة وسرعة وإيجازاً. وفعلاً غادر الأسطول الميناء بعد أن تمت الموافقة على مطالب أبى يحيى بن مطروح. لا شدة ولا عنت، لا إثارة ولا إرهاق... بل سلّم أصحاب الأسطول بالولاية «لأبى يحيى» وعدم التعرض لشؤون أهل البلد فيما يتعلق بالشعائر الدينية والمسائل الداخلية، فكان إشراف صقلية إشرافاً خارجياً، وأصبحت مثل نظام الاستقلال الداخلى. ذهب أسطول صقلية من الميناء، ولكن ليس معنى ذلك ذهاب سيطرة صقلية؛ بل كان لصقلية فى كل تلك الفترة الإشراف والتوجيه.

ولكن كان ابن مطروح وطنياً حازماً وإدارياً لبقاً وشيخاً يدير دفة البلاد ويحفظ أمنها ويحل مشاكلها وينشر العمران فى ربوعها. كان هذا هو الحل الذى رآه ليوازن بين مصلحة بلاده وبين سيطرة أصحاب الأسطول.. كانت خطوته وخطته لا غبار عليهما ولا شبهة فيهما؛ بل أصرح من هذا، لا نغالى عندما نؤكد أن خطوة أبى يحيى بن مطروح دلت على الإحساس الصادق، والشعور القومى الخالص، والنظر إلى أبعد من البعيد، وانتظار ما يحمله الغد من أحداث وحوادث.

وقد كان أبو يحيى بن مطروح ـ على مادلت عليه أخباره وأحواله ـ يتمتع بقوة شخصية خارقة أكسبته مهابة جعلت الجميع يحترمونه، حتى المهاجمون

والخصوم والمتألبون، وحتى القبائل التى تعودت التمرُّد والإغارة. فقد حفظ أبو يحيى التوازن، وكان عادلاً فى ميزانه. ومن إصلاحاته فى شؤون القضاء والتشريع أن اختار قاضياً عُرف بالنزاهة والعفة وسعة الإطلاع، فجعله قاضى طرابلس، يفصل فيما شجر ويُدلى فيما اختلف فيه بحكم صاحب ورأى يستند على الدلائل، ذلك هو القاضى الشهير «أبو الحجاج يوسف بن زيرى».

عرف هذا الشيخ فى عهده بالورع مع حبٍّ للإمعان والدقة؛ وقد كان أيضاً يميل إلى التأليف والكتابة بجانب التصدر فى الفصل فيما شجر بين الناس. وقد أشارت بعض المصادر إلى تأليفٍ لهذا القاضى فى فن الوثائق، وأطلق عليه «الكافى فى الوثائق». وهذا الكتاب كان معروفاً عند الفقهاء فى عصور مضت، ولكننا مع الأسف نفتقد هذا الكتاب فلا نجده، ونشير إليه ونثبت إسمه عسانا أن نعثر عليه فى مستقبل الأيام. ويكفينا هنا الإشارة إلى أنَّ والى طرابلس أبا يحيى بن مطروح، اختار «أبا الحجاج ابن زيرى» قاضياً لعلمه وخبرته، كما أننا نشير إلى أن بعض الرحالين من العرب كان يطلق عليه «أبا الحاج» بدل «أبى الحجاج».

اثنتا عشرة سنة كاملة وابن مطروح كان مسؤولاً عن البلد وقبائله وأهله وعشائره.. وكان واسطة فى الاتصال بين (صقلية) وبين الناس؛ إلا أنه كان واسطة خير، وكان همزة لا تريد أن تكون موصولة دائماً، بل كان فيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين الخاصة من جلسائه يريد أن يقطع هذه الصلة، ويجعلها همزة مقطوعة، لو استطاع لجعل السيطرة التامة للبلاد لا لأصحاب أسطول «صقلية». ولكنه لم يجد بُدًّا ولم يجد حلاً إلا النظر فيما يحدث بين طيّات الأفق البعيد. كان يحفظ التقاليد ويصون الشعائر وينشر تعاليم الدين ويحفظ موازين الحق، ولكن هذا ليس معناه استسلاماً مطلقا ورضوخاً أبدياً لأبناء «صقلية». إن أبا يحيى يفكر ويقدِّر.. ولكنه صبور منتظر، يقيس حوادث شمال إفريقيا، وحوادث جاراته، فهل يستطيع أن يجد حلاً؟ وهل يستمر على مفاوضته مع (الصقليين)، أم يلجأ إلى صدِّهم وردِّهم بعد أن طالت المدة وأصبحت اثنتى عشرة سنة متوالية..؟

لم يكن ابن مطروح باليائس الذى قطع حبل الأمانىّ، بل إنه يفكر تفكيراً جدياً فى إزاحة الصقليين وسيطرتهم. وقد أثبتت خطوات ابن مطروح أنه كان بحق ينتظر ويتربص، وأنه كان يريد أن يتصيد الفرص السانحة حتى يستخلص منها ويخلص، ويخرج من دائرة حكم «الصقليين». كان يريد منفذاً ومسرباً ومهرباً، فوجد ذلك فى حركات سياسية قامت فى الشمال الأفريقى فى تونس... عندما قام «عبد المؤمن بن على» بحركته التى عضد بها دولة «الموحدين» وأراد بها التوسع فلما كانت قاصرة على بلده بل أبعد من قطره.

وأخذ «أبو يحيى بن مطروح» يزن الأمور ويقدِّر الأحوال بين حالة بلاده وسيطرة الصقليين عليها، وبين حركة (عبد المؤمن بن على) ودولة الموحدين... ولا شك أن أكثرَ من عاملٍ كان يدفعه ويحرضه على الميل إلى دولة (الموحدين). فلا شك أن الشعور الدينى والعاطفة الدينية واللغة، وكلٌ العوامل الأخرى، كانت تجعله يجنح إلى تونس المسلمة العربية، إلى أبناء عمومته وخؤولته، تربطهم ببلاده أكثر من رابطة، وتجمعهم أكثر من وشيجة..

والسياسى الحازم يجد نفسه دائماً فى موقف الموازن والمقارن بين الأمور وما يترتب على الأحداث من نتائج.. وما يعقب الحوادث من عواقب. لقد فعل «أبو يحيى بن مطروح» هذا عندما فاوض أسطول صقلية وها هو ذا يفعل هذا أيضاً عندما فكر فى طرد أسطول صقلية، وفى كلتا الحالتين كان دافعه شعورُ المواطن الذى يريد أن يحافظ على مواطنيه، وشعورُ المخلص الذى يريد أن يستخلص بلاده من براثن الطوارىء، وتكالب الأحداث. وجدها فرصة، واغتنام الفرص للصالح العام ديدن أهل الحزم والعزم: كان ابن مطروح حازماً عازماً فى إنضمامه إلى عبد المؤمن بن على وفى نفض يده من أسطول الصقليين بعد أن سالمهم من غير شك على مضض «اثنى عشر عاماً» كاملة استطاع فيها أن يكون مثالاً لحفظ الحقوق ومراعاة الإمكانات.

ودار الصراع السرّى بين أبى يحيى ابن مطروح من جهة وبين رجال جورج ميكائيل من جهة أخرى.. حرب باردة أو خلق الزوابع وإثارة

الأعاصير. . وشعر الصقليون بأن ابن مطروح سيخرج عليهم وسيفلت الأمر من يدهم حينذاك، فهم لا يرتاحون ولا تهدأ حالهم إلا إذا كان ابن مطروح فى يدهم، واسطة بينهم وبين أهل البلاد، فإذا ما كان راضياً عنهم فقد نالوا الورقة الرابحة، وإذا انحاز إلى ضفة أخرى فإن أسطولهم ستتلاعب به أمواج الأحداث. شعروا بهذا ولمسوا من ابن مطروح ظواهر تدل على تململ وانحياز نحو ضفة أخرى. .

وظهرت علامات فى الأفق ، وأسرع جنود «صقلية» إلى حيلة وخدعة ماكرة. . وأرادوا أن يرموا شباكهم عن طريق إثارة الفتنة. . . أن يباعدوا ما بين أهل البلاد وجنوحهم إلى (عبد المؤمن بن على). والحيل الخداعة قديمة قدم الإنسان نفسه. . لجأ الصقليون إلى حيلة الإثارة قبل الإغـارة. . . عندمـا شعروا بتضافر أهل طرابلس حول شيخهم «أبى يحيى بن مطروح» وفهموا أيضاً أن الشعور الإسلامى يجمع فيما بين هذه الأقطار، وأن (عبد المؤمن بن على) لن يجد من أهل طرابلس صداً ولا رداً. . ، بل سيلقى ترحيب المسلم بالمسلم، فما كان من حيلة (الصقليين) إلا أن أثاروها عن طريق الدين، وطلبوا منهم أن يصعدوا المنابر ثم يتكلموا بسوء فى دولة (الموحدين).

كان ذلك سنة 554 هـ ـ 1159 م، ولكنه أمر عظيم وفتنة سوداء تنبه لها (ابن مطروح)، فوقف شيخ طرابلس موقفاً يتجـلى فيه حـزم المؤمن وعزم المخلص وإباء الحر الكريم. . . أبى أن يكون مطية شر أو آلة ضر أو جسراً يعبر عليه الصقليون ضد أبناء عمومته وجلدته وأنصار دينه وملته. . أبى «ابن مطروح» كل الإباء أن يُعلن أحد من المسلمين من فوق منابر بيوت الله. وقد وقف مؤازراً (لابن مطروح) ذلك القاضى الشهم (أبو الحجاج بن زيرى)، فقد وضع يده مع ابن مطروح، وتآزرا على أن الفتنة السوداء والكارثة البلهاء لن تكون من بين ظهورهم، ولن يخرج شررها من ألسنتهم ومنابرهم. . . ولو صنع (الصقليون) ما صنعوا. وهذا موقف يسجله التـاريخ لابن مـطروح ولقاضى البلد، وفيه شهامة وغيرة.

ولم يكن من (ابن مطروح) هذا الرفض والامتناع فقط بل أصر على

موقفه فى عناد الأباة وإصرار الحماة. وقد وقف أمام (الصقليين) فى ظروف خاصة مفاوضاً فى سبيل حفظ الشعائر والمقومات، أما الآن فها هو ذا يقف كاشفاً لهم القناع مزيحاً للأستار، وجابههم بإصرار فى غضبة الأحرار.. لن نلعن من فوق منابرنا مسلماً وأخاً فى ديننا، وجاراً لبلادنا.. ولن نرضى هذا وإن أصررتم على الإثارة فليكن أقرب منه رحيل أسطول (صقلية). وقويت روحه المعنوية عندما وجد من أهل البلاد سنداً متيناً ودرعاً حصينة، وتأييداً مطلقاً فى مطالبه.

ثم تقدم (ابن مطروح) نحو خطوة أخرى كان يحنُّ لها ويترقب سنوح زمنها. ذلك أنه عقد اجتماعاً سرياً لعله - فى تشكيله ورسم خطته - الأول من نوعه فى هاتيك الأزمان وفى ذلك البلد.. ودبّر فكرة لطرد (صقلية) من شاطىء طرابلس. وأيضاً كان سنده ومستشاره القاضى (أبا الحجاج بن زيرى) ونخبة من رجال البلاد الذين يعتمد عليهم ويعتد بهم. وتعاقدوا وتعاهدوا على التملص من سيطرة (الصقليين).

وكما أظهر (ابن مطروح) والى طرابلس «وابن زيرى» قاضيها عدم رضوخهم لإثارة جنود صقلية وإدراكهم خطر الفكرة التى بثوها وأرادوا زرعها فوق المنابر، فقد أظهر أيضاً بدو الصحراء وزعماء القبائل ما يدل على روح عربية مسلمة. فقد اتصل مبعوثو (رجار) صاحب صقلية بزعماء العرب، أمثال محرز بن زياد، وجبارة بن كامل، وحسن ابن ثعلب، وعيسى بن حسن، وعرضوا عليهم أن يمدهم (رجار) بالمال والقوة، كى يصدوا (عبد المؤمن) ويردوا تيار (الموحدين). وأبانوا لهم أن (رجار) باعث إليهم - إن رضوا - خمسة آلاف فارس من الإفرنج بكامل عددهم ووافر عدتهم وكامل مؤنهم... يقاتلون معهم جنود (عبد المؤمن) بشرط أن ترسل الرهائن إلى صقلية... فشكر أمراء العرب وزعماء البوادى هذا شكراً ممزوجاً بالاستغراب، وردوا ممثلى (رجار) ردًّا رقيقاً في عنف جارح: رقيقاً فى أسلوبه عنيفاً فى معناه... ومغزاه. وقالوا كلمة تدل على روح طيبة خالصة: «ما بنا حاجة إلى نجدته، ولا نستعين بغير المسلمين».

ولا أريد أن أنفى قتال العرب لجنود عبد المؤمن؛ فقد حدثت مصادمات وتقابلت جموع منهم، وخاصة من بنى هلال والأثبج وعدى، ورياح وزعب، ولكن الذى يسجل بفخار أنهم رفضوا معونة صقلية، وأبوا أن يكونوا مطية لأسطول صقلية، وأبوا أن يكون معهم خمسة آلاف من المدججين الإفرنج. وقد كان لرفضهم هذا أثر سيىء فى (صقلية) فها هوذا أبو يحيى ابن مطروح يأبى أن ينفذ خططهم... والقاضى يأبى أن يقرأ مناشيرهم... والأمراء من العرب يأبون أن يتقبلوا منهم السلاح والجند!

إذن، أصبحت سيطرة الصقليين فى خطر، تتأرجح... وعبد المؤمن يـزحف بجنوده صـوب حدود طـرابلس. وهنا يـزداد أبو يحيى فى إمعـانه للحوادث...، وتقترب الصورة وتتزاحم على منظاره الذى يرقب به الأفق من بعيد... منظارٍ ليس من زجاج...، ولكنه من بصيرة وتريث وحذر وترقب.

وقد أشرنا فى أسطر ماضية إلى أن (ابن مطروح) عقد اجتماعاً سرياً وضعت فيه خطة محكمة لنبذ الصقليين والتخلص من سيطرتهم...، وملأوا الطرق والميادين بالأناشيط والخوازيق والعراقيل...، حتى تكون عائقاً لخيول الصقليين عن الجرى والسير. وأتقن (ابن مطروح) الخطة مع ممثلى البلاد وشبابها، بل إن علماء البلاد كانوا يشمرون عن سواعدهم بكل همة وعزم كى تنجح خطتهم ويزيلوا جنود (رجار) من شاطىء طرابلس؛ وكان ذلك فى سنة 555 هـ 1160 م، فى السنة التى توفى فيها الإمام أبو حامد الغزالى، الذى طالما قرأ له (ابن مطروح) فأعجب بثاقب فكره وشفاف روحه ودراسته للتصوف الإسلامى.

وهكذا وجدت طرابلس فى الشيخ ابن مطروح (رجل الساعة) كما يعبر أهل السياسة فى العصر الحديث، رجل له قيمة ولكنها تزداد، ويكثر فضلها عند الحاجة واللزوم؛ فهو مسالم وقت المسالمة، وساكت وقت السكوت؛ وقد فاوض وقت المفاوضة، وثار وقت أن دعت الحاجة إلى الخروج عليهم والتألب ضدهم. كل خطواته كانت متزنة بحسب الحاجة وما تدعو إليه الضرورة، وما يدفعه ويوجهه إليه صوت الواجب الذى كان مقياساً لحركاته ودافعاً لسكونه

وقت السكوت، ولكلامه وقت الكلام. وكـان رغم ملاينتـه، فيه شهـامة المتصلب أمام الزعازع والهزاهز الداخلية والخارجية.

ويقال إن حركة (ابن مطروح) وأهل البلد كانت سنة 553 هـ ـ 1158 م، وقد نجحت فى تدبيرها وأمسكوا جنود صقلية باليد بعد أن تعثرت خيولهم ليلاً وكبت فى الشوارع والميادين. وبويع (ابن مطروح) من طرف أبنـاء البلاد بالولاية بيعة جديدة، وكان ذلك بالإجماع. ووجدها ابن مطروح فرصـة، فذهب فى وفدٍ من أعيان طرابلس وشيوخها إلى عبد المؤمن فى إفريقيا (تونس حالياً) كى يظهر له ولاء المسلم للمسلم، وأقر عبد المؤمن شيخ طرابلس أبا يحيى بن مطروح على الولاية فاستمر حـاكماً أو شبـه حاكم. . . فى مـدة الصقليين اثنى عشر عاماً، وفى مدة الموحدين ما يزيد عن اثنين وثلاثين عاماً، أى حوالى أربعة وأربعين عامـاً وهو يتـولى إدارة طرابلس وتنـظيم شؤونها الداخلية، فحسنت سيرته ونظمت إدارته وانتشر الأمن وازدهرت المساجد.

وكان بجانب إدارته أديباً يقرض الشعر، وعالماً يجيد المناقشة، وصوفيًا يعرف التعفف؛ لقد كبرت سنه، وتقدمت به أيام عمره، وجلّل الشيب رأسه ولحيته، وأصبح يكاد أن يعجز عن القيام والقعود، ومشاكل الإدارة كثيرة وإدارة الحكم تتطلب جهداً ما عاد يستطيعه. وقد أعطى للبلاد كثيراً من صحته، وفكره. . أما كان له الحق فى الراحة وطلب الاستجمام!؟ إنه شيخ طعن فى السن، وقد شعر بحاجته إلى الراحة وإلى زيارة الأراضى المقدسة والمدينة المنورة، وموسم الحج قد حان، وبشائر شهر رجب حيث تبدأ مواكب الحج قد لاحت، ودفعه الشوق الدينى إلى هاتيك الربوع. . وقد هزته أصوات تلك الجموع. فطلب أن يسرح من إدارته، وأن يذهب للمشرق.

كان ذلك فى عهد ابن عبد المؤمن؛ وسرَّحه السيد أبو زيد بن أبى حفص، وجمع ابن مطروح أهله وجمع أهل بيته وهاجر من البلد الذى أحبه كل الحب، والموطن الذى نيطت به تمائمه. وكان رحيله من شاطىء طرابلس

فى شهر رجب سنة 586 هـ ـ 1190 م، واستقر به المقام فى مدينة الإسكندرية حيث أنبتت تلك الشجرة فروعاً طيبة وغصوناً مباركة. وكان من سلالة ابن مطروح الطرابلسى علماء أجلاء وأدباء فضلاء، وكان من نسله الشاعر المصرى المشهور (ابن مطروح)، وله ديوان صغير مطبوع؛ وكان أيضاً من آثاره أنّ سُمِّى ذلك الميناء (مرسى مطروح)، فى حدود مصر، باسم ابن مطروح، أو بإسم ابن من سلالته.

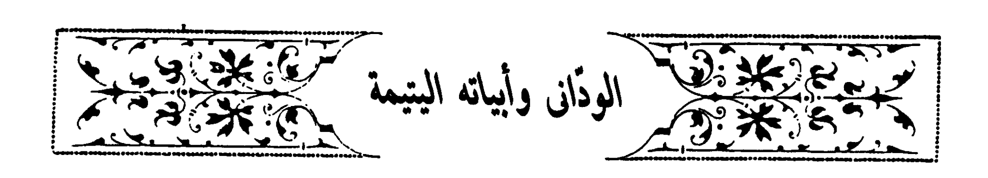
ورغم أن ابن مطروح قد اختار بنفسه وعن طيب خاطر الهجرة إلى أرض مصر والبقاء فى شاطىء الإسكندرية، إلّا أنّ الحنين كان دائماً يلوِّعه ويدفعه إلى طرابلس الغرب، موطنه الأول والبلد الذى نشأ وترعرع وكبر فيه . فهو ينظم الشعر تحناناً إليه، ويصوِّر شوقه إلى ترابه ومرابعه. يذكر (باب البحر) و(باب هوَّارة) والأماكن الأخرى عندما يشاهد خليج مصر ومرابع الإسكندرية وبركة القاهرة ودير الزجاج. . . يشاهد جمالاً ويشاهد بناء فخماً وهندسة وروعة، ولكن فى حسه ونظره لا يعدل (باب هوارة) وموقف الغنم فى طرابلس. واسمع معى ابن مطروح يصور وقفته فى مصر ويطير به الشوق إلى طرابلس الغرب فيقول:

لوقفة عند (باب البحر) ضاحية
و (باب هوارة) وموقف الغنم
أشهى إلى النفس من كسر (الخليج) ومن
(دير الزجاج) وشاطى بركة الخدم

كان ابن مطروح يحنُّ إلى طرابلس وقد أبعده الكبر، وأيضاً فإن أبناء طرابلس كانوا يحنون إلى حكمه؛ فقد اختلت بعده موازين الإدارة وكان يضبط ويعدل، ولكن (الموحدين) سمحوا لأنفسهم باستغلال نفوذهم. أحداث وأحداث احتاجت إلى حكمة ابن مطروح فلم تجدها، وإلى رأيه واتزانه فلم تعثر عليها؛ وبعدها كانت زوابع، وكانت موجات، جاء على أثرها من الشرق قره قوش من قبل صلاح الدين .

كل هذا القول يبرهن على قوة الشخصية التى امتاز بها ابن مطروح وصائب فكره .

رحمه الله ، لقد كان من طراز نادر.. جمع العلم والإدارة، وحسن المشورة وبعد النظر .



الودّانى وأبياته اليتيمة

هذا رجل أتعبنى ، وظللت أبحث عنه فما عثرت على طائل، ولا يوجد لدينا من شعره سوى ثلاثة أبيات يتيمة، ولكنها درة، والشعر إحساس لا أكيال، والأدب الرفيع (كيف) لا (كم). وهذه الأبيات كانت دلالة على شاعرية مرهفة، شاعرية مصقولة، وعلى أدب عاش فى الصحراء.. صحراء ودّان.. فى طرابلس الغرب ، ثم على شاطىء جزيرة (صقلية). كان فيه إرهاف ما كان عند شاعر البادية والحاضرة .

وشاعر الصحراء والمدينة، الشاعر الوجدانى (على بن الجهم) بدوى، فيه شاعرية تفتحت وتحسنت عند أفياء الحضارة؛ وكذلك .. الودانى .. الشاعر الطرابلسى الذى ترنم فى صقلية فى عهدها الزاهر العربى وأيام مجدها الإسلامى التليد ..

أدب فيه أصالة .. وشعر فيه حنين مذاب ، وحرقة وشوق فائر ، أبو الحسن على بن إسحاق الودانى ، وغير هذا الإسم وذلك اللقب والكنية لم نعرف شيئاً عن أهله وأصحابه .. وقبيلته وعشيرته سوى أنه من (وَدَّان)، وأن

وَدَّان فيها حضريون وسهميون ، وبها نخل وزروع ، وأن منها الشاعر «الودَّانى». هكذا تشير المعاجم وتثبت قواميس البلدان عن غير زيادة ولا نقصان . . وعليك أن تغوص فى رمال الماضى حتى تعثر على شطرات أو أبيات. وقد تقطع أنفاسك ويضيع عمرك من غير أن تزيد معلوماتك شيئاً عن (وَدّان) والشَّاعر أبي الحسن على بن اسحاق الودانى. . فكل لاحق يأخذ من السابق أسطره القليلة، ثم يسوقها بأمانة ودقة، وعليك أن تتحسر على شاعر غمرته القرون، وشعر رائع لم يبق لنا منه سوى ثلاثة أبيات فقط . . فحسب . . ليس غير . .

ذُكرت الأبيات الثلاثة فى كتاب (النائب)، ثم وجدناها فى دائرة ـ البستانى ـ ، ثم أسلمنا البستانى إلى (ابن خلكان) ، وأخذنا بخناق صاحب الوفيات حتى أسلمنا إلى صاحب (المعجم) ياقوت. كل ما عند هؤلاء السادة لا يعدو كلمة مجترة عن (وَدّان) بطرابلس الغرب ، والشاعر الودانى القائل الثلاثة الأبيات . . وله شعر . . وكان صاحب (الديوان) . . فى صقلية . . وبعدها . . صمت مؤلم وسكوت يبعث الحسرة فى نفس الباحثين عن تراثنا الأدبى فى الصحراء وفى البحر وفى الشواطىء . . أين ضاع ؟ لعنة الله على النكبات التى ضيعت تراثنا ثم جعلتنا نستجدى من (أهل الاستشراق) وجعلتنا نترقب (بضاعتنا) عندما تعود إلينا مختومة بطابع الاستشراقيين .

ولا أتبرم لقلة (المادة) هنا إنما أعود ممسكاً هؤلاء السادة. . . النائب والبستانى، وابن خلكان، وياقوت: من أين لهم هذه (المعلومات) عن الشاعر الودَّانى؟ . . ولنكن هنا مثل قصاص الأثر، قصاص (الجرة) كما يقول أهل طرابلس. . . فلنتبع خطوات هؤلاء وآثار أقدامهم أو آثار أقلامهم إلى أين توصلنا وإلى أين يصل مصدرهم عن شاعرنا الطرابلسى، الذى عاش فى (صقلية)، لعلنا نجد قبساً أو نجد على النار هدى. كلهم. . . فى (المنهل)، وفى (الدائرة)، وفى (المعجم) و (الوفيات) يشيرون إلى (ابن القطاع)؛ فمن هو هذا المؤرخ، وهل كان معاصراً للشاعر (أبى الحسن على بن إسحاق الودّانى)؟

(ابن القطاع) من علماء وشعراء الجزيرة (صقلية)، أبو القاسم، على بن

جعفر السعدى، ولد فى 10 صفر عام 433 هـ وتوفى وله من العمر 74 سنة، سنة 510 هـ.

وأشار ابن (خلكان) إلى أنه من أئمة الأدب واللغة، ألَّف كُتباً منها كتاب «الأقوال» أجود من كتاب (ابن القوطية) وإنْ كان (ابن القوطية) سابقاً متقدماً، وهذا كله لا علاقة له بالحديث عن الشاعر الطرابلسى الوَدَّانى. . . . إنما يهمنا ما أشار إليه بعد. . وله كتاب (الدرة الخطيرة فى المختار من شعر شعراء الجزيرة). . صقلية، وكتاب (لمح الملح) جمع فيه شعر شعراء أندلسيين. وقد رحل (ابن القطاع) عن صقلية لما أشرف على انتزاعها الإفرنج وخرجت من أيدى العرب، ووصل إلى مصر فى حدود سنة 500 هـ - 1106 م، وقد رحّب به أهل مصر. . وبالغوا فى تكريمه.

ماذا يهمنا من هذا أيضاً؟. . . وأين الحديث عن الشاعر الودَّانى. . ؟ أطنبنا فى الإشارة إلى (ابن القطاع) هادفين أن نأخذ من الحديث ما يدلنا على الودَّانى. فابن القطاع أول من أورد شعراً للودّانى، ولولاه ما حفظ لنا التاريخ الأدبىُّ شيئاً عن (الوَدَّانى). فقد ألَّف (الدرة الخطيرة) وأورد فى الدرة مختارات لمئة وسبعين شاعراً من شعراء «صقلية»، ومنهم - بل على رأسهم - صاحب الديوان والأديب الشاعر، أبو الحسن على ابن إسحاق الودَّانى. . . ومنها قصائد مطوَّلات وأبيات موجزات والأبيات الثلاثة اليتيمة التى اتكأ عليها كلُّ من أشار إلى بلدة (وَدَّان) والشاعر (الودَّانى). بقى علينا أن نبحث عن كتاب (الدرة الخطيرة فى المختار من شعر شعراء الجزيرة). . .

حتى حاجى خليفة، صاحب (كشف الظنون) لم نجد عنده هذا الكتاب. . فهل ضاع منذ زمن طويل؟ أم أنه منزوٍ فى ركن من مكاتب أهل الاستشراق من الباحثين، أو التهمته نكبات الحضارة العربية؟. . . قد يكون ضاع. . . ولعله يرجع. . . لست أدرى. ولا المنجم يدرى سوى أن (ابن القطاع) أورد قصائد عديدة للشاعر الودَّانى، ويهمنا إثبات هذا لعل المستقبل يكشف لنا شيئاً، ولعل (الدرة) تخرج من محيطها أو تخرج من مدفنها ويمّها. . . .

وقد يكون «ابن القطاع» معاصراً للوَدَّانى، وقد يكون شاعرنا سابقاً بزمن غير طويل؛ والمهم أن الوَدَّانى كان موجوداً فى القرن الرابع الهجرى وما قبل سنة 500 هـ ـ 1106 م. ومن المعروف أن صقلية دامت فى يد العرب ما ينيف عن قرنين، وقد فتحها المسلمون فى أيام إبراهيم بن أحمد بن الأغلب فى يوم 23 شعبان سنة 289 هـ، الموافق أول أغسطس سنة 902 م، ومن هذا ندرك أن الوَدَّانى الشاعر كان فى القرن الرابع الهجرى أو يقارب ذلك. ومن العسير جدّاً تحديد السنة التى ولد فيها والسنة التى توفى فيها، وإن كان من الثابت أنه كان رئيس الديوان فى صقلية، رئيس الكتاب، ومن المقرَّبين للحاكم الإسلامى فى صقلية المزدهرة.. ولكنْ مَنْ هو هذا الحاكم؟ الجواب عند المصادر المندثرة وبين الأطلال الصامتة...

ولعل من المفيد هنا أن نذكر أن كتاب ابن القطاع، «الدرة الخطيرة»، أشار إليه أكثر من مرجع، واعتمد عليه أكثر من كاتب، وقد ألف «ابن شهبة» تاريخاً ذيَّل به تاريخ (الذهبى) فى ستة مجلدات حتى وصل ابن شهبة إلى سنة 560 هـ ـ 1164 م . وقد أشار فى تاريخه إلى كتاب «الدرة» ، وأنه من تأليف ابن القطاع وفيه ترجمات لشعراء من صقلية . ولا يبعد أن يعرج «الذهبى» على ترجمة «الوَدَّانى» كما ترجم لغيره . وهـذا نوع من الاستنتاج يعوزه التأكيد والاستقصاء .

ولعل القارىء قد اشتاق إلى الأبيات اليتيمة بعد كل هـذا التقديم الطويل العريض الذى ألجأتنا إليه ضرورة البحث... ولعله يزعم أننا لجأنا إلى طـرق الكتابة الصحـافية وإلى طـريق الإعلان والهـرب من الدراسـة الترجمية.. لك أن تزعم ما تشاء.. ولنا أن نكتب كما نريد.. وإليك أبيات الشاعر الطرابلسى الوَدَّانى... أبى الحسن على بن إسحاق... ولو كان عندى مداد من الذهب لكتبتها على رقاع من الورد. وقـد يسوؤك هـذا التشبيه القديم، ولكن أين مداد الذهب؟ وورق الورد؟

مـن يـشـتـرى مـنى الـنهـار بـليـلة
لا فـرق بـين نـجـومـهـا وصـحـابى

دارت عــلى فــلك الــزمــان ونــحــن قــد
درنــا عــلى فــلك مــن الآداب
وأتى الــصــبــاح ولا أتى وكــأنــه
شــيــبٌ أطــل عــلى ســواد شــبــابى

شاعر يريد أن يبيع نهاره ويستبدل به ليلة مع أصحابه، تدور بينهم كؤوس الآداب.. صحاب هم نجوم المجلس فى هذا الليل، ليل الصحراء فى وَدَّان، أو ليل الشاطىء فى صقلية.. من يشترى؟ دلَّال فى سوق الزمان. ولكنْ، هل ايام تباع؟ وهل الليالى تشترى!؟ يا ليت.. كنا ننادى مع الشاعر: يا بشرى!... عندنا نهارات فهل عندكم ليالى للبيع؟ إننا مشترون وبائعون... هذا شعر لا يفوح عبقه إلا من كبد مشوق..؟ تصوير فيه لوعة الفراق... ولوعة الذكريات... ولوعة الأمسيات.. أمسيات شاعر... أحرقته لوافح الهجران ولوافح البعد.

«من يشترى منّى النهار بليلة..): صرخة شاعرية!... ما أظن شاعراً من أهل الأندلس، أو من بنى العباس، أو فى أى عصر مزدهر آخر.. نادى وهتف.. بهذه الشطرة.. وصرخ بمثل هذه اللوعة..

«من يشترى منّى النهار بليلة!..».. القائل من عشاق الليل ولا يعشق الليل إلا شعراء ومحبون. ولعلنا نجد أطياف الماضى تتراءى فى مخيلة الشاعر فيتمنى عودة لياليه مع رفاقه وصحابه... ولكن مما يزيد فى الحسرة أن الليالى لا تعود، وأن أمسيات الأمس لا ترجع.. مهما نادى مدلِّلاً.. من يشترى؟ لا فرق بين نجوم الليل.. طبعاً؛ فنجوم الليل فى صحراء وَدَّان ظاهرة صافية، وقد تكون نجوماً على شاطىء صقلية.. من يدرى! فليلة الشاعر التى يريدها، والتى يود استرجاعها، قد تكون صحراوية «وَدَّانية» وقد تكون «صقلية» شاطئية.. هى نجوم فى السماء صافية.. وفى المجلس مُشِعَّة.. ولكن.. من يشترى..؟!

وهو شاعر مهذب أديب.. أديب العبارة وأديب الخلق.. فهو شريك

مجلس وهم صحاب.. ونجوم وآداب، ولكن لا تدور بينهم كأس صهباء ومراشف من عناقيد حمراء، إنما كؤوسهم أشبه ما تكون بالكؤوس فى مجالس التصوف... أشبه ما تكون بكؤوس (فارضية).. رحم الله ابن الفارض وأنصاره فما كانت كأس الوَدَّانى فى مجلسه وسماره.. إلّا من نوع الأدب والفكر.

وفى «... درنا على فلكٍ من «الآداب» ليس ثمة عربدة... وإن كان أكثرهم يعربدون فى شعرهم. وليل الأدباء قصير مهما طال؛ ويمضى السمر آخذاً فى تنوعه.. أليسوا صحاباً فى مجلس أدب وشعر؟ صفاء جو.. وصفاء بال وحال وطمأنينة.. وهل كانت جنة الشعراء إلّا من الصفاء والاطمئنان..!؟ وأتى الصباح... ولا بد من إتيانه... جاء... وهل يدوم الليل.. وخاصة ليل السمار..؟ أتى وَبَشَّر به الفجر... وما أروع الوَدَّانى فى تشبيهاته وفى تصويراته.. صباحٌ جاء يسعى فى عنق الليل... مثل شيبٍ يطل على السَّواد فى الشباب.. تصوير فيه إبداع وبه جِدة.. إن لم تكن جِدةُ الفكر فجدة العرض والإبانة والأسلوب والموضع...

هذه الأبيات، لا أطيل بشرحها والتعليق عليها. فإن الشعر الجيد لا يحتاج إلى إطالة شرح... والشعر الصادق الحساس المرهف... يفسده الشرح والتعليق، كما تفسد المساحيق والأصباغ الاصطناعية وجه الحسناء. وجه الجميل المليح تفسده الأطلية والأغطية... فلندع هذه الأبيات سافرة.. مكشوفة تُظهر حسنها بنفسها وتدلك على نفسية شاعرنا وأديبنا المغمور، أبى الحسن على الوَدَّانى.

سنترك التعليق والشرح... ولكن لا بد لنا من إثبات أشياء أخرى من أجل التاريخ الأدبى؛ فقداشتهرت هذه الأبيات وسارت بذكرها الركبان كما يقولون، وكانت مثار حركات فكرية فى طرابلس وفى غير طرابلس؛ وشطرت هذه الأبيات بعد وفاة الشاعر بعدة قرون... بعد ما يزيد على ألف عام... والشعر الخالد يرسل شذاه من وراء الآماد والآكام. لقد عاشت أبيات الوَدَّانى وخلدت، وظلت درة «خطيرة»، وسرت فى مجالس أدباء طرابلس، بل رُدِّدت

فى أمسيات «إستامبول» والإسكندرية والقاهرة والحجاز وسوريا؛ أعجب بها الأدباء والشعراء، ولا يدرى أكثر الناس لمن هى. . سوى أنها رائعة وأبيات «حية» يجد فيها الراوى لها والمترنم بها صدىً لما يجيش فى نفسه. .

ومقياس الشعر «الحى» أن يكون صدى، ومقياس الإحساس الأدبى «التجاوب»؛ فأنت تُعجب بالأبيات، بل بالشطرة أحياناً، لأنها مرآة ترى فيها ملامح من صورتك وجانباً من جوانبك النفسية. وقد تقرأ الألف بيت فلا تهز من نفسك ولا تحرك من ساكنك. . ومن أجل التجاوب الروحى والصدى النفسى أحدثت هذه الأبيات الثلاثة حركة أدبية فى طرابلس. . وقد كانت فى أيام الحركة الوطنية وطلقات البارود وميدان الكفاح يفتح. . ولكن هذا لا يمنع من إيجاد سمر أدبى وندوات علمية ومسابقات.

والشعر إحساس وترويح. . والإحساس قد يشب، والترويح يكون ألزم فى أوقات الكروب والحروب؛ لهذا لا تعجب من أن تُحدث أبيات «الوَدَّانى» الثلاثة موسماً أدبياً فى طرابلس فى أيام الجهاد الوطنى. . فالأدب قد يزداد وقد يروج فى أيام الشدائد والأزمات. لقد اقترح أحد الأدباء الأفاضل تشطير هذه الأبيات، ووجد الاقتراح ترحيباً من جريدة وطنية كانت تصدر أيام الكفاح الوطنى. . والجريدة هى «اللواء الطرابلسى» وصاحبها الصحفى «عثمان القيزانى»، وكان اقتراح التشطير ونشره فى سنة 1920 م، وتسابق شباب ذلك الجيل إلى التشطير.

ومن المعروف أن التشطير فن ساهم فيه بنصيب كل الشعراء فى كل العصور وخاصة المتأخرة. . ويشطر الشعر الرائع ويضمن المعانى الطريفة، وأحياناً يفوق التشطير الأصل، وإن كان هذا فى النادر القليل. وناهيك بتسابق الشعراء نحو «بردة» البوصيرى وتشطيرها وقد بلغت مئات التشطيرات. ومن شعراء طرابلس المشهورين بالتشطير أحمد البهلول، ويقال إن «ديوانه» كان تشطيراً لإحدى القصائد. . ونعود إلى تشطير شباب طرابلس لأبيات الوَدَّانى ونعرض لك ألواناً منها، ولا أزعم أنها فاقت الأصل. . كلا. . إنما كان التشطير دالاً على تقديرهم للشاعر ومدى إعجابهم بشعره. وكان من أوائل

المتسابقين للتشطير الشاب الشاعر «الشاطر» أحمد الفقيه حسن؛ فقد شطّرها مرتين، ولهذا ملاحظة نسوقها بعد التشطير الأول:

«من يشترى منى النهار بليلة»
جمعت لنا شملاً من الأحباب
حسنت وحسنت الحياة لأنها
«لا فرق بين نجومها وصحابى»
«دارت على فلك الزمان ونحن قد»
ملنا لصقل حرائر الألباب
وكأننا لما تألف جمعنا
«درنا على فلك من الآداب»
«وأتى الصباح ولا أتى وكأنه»
برق تألق تحت ظل سحاب
وكأنه لما تبسم ضوؤه
«شيب أطل على سواد شباب»

ونشر التشطير فى «اللواء الطرابلسى»، وفرح به الشاعر، ولكن لاحظ عليه والده وفرحات الزاوى رحمهما الله ملاحظة دقيقة جعلته يعدل عنه إلى تشطير آخر أدق وأجمل. وقد أبانا له أن الشطرة «برق تألق تحت ظل سحاب» لا لها وتصوير لا فائدة فيه.. البرق تحت السحاب لا يعطى تصوير الشيب فى رأس الشباب.. أين هو من الأبيض فى الأسود.. وهى ملاحظة تدل على دقة احساس المرحومين.. وكانت سبباً فى أن يشطر الشاعر أحمد الفقيه حسن هذا التشطير الثانى، ولم ينشر ولكن تكرم فناولنى إياه من مجموعة شعره ووريقاته المبعثرة:

«من يشترى منى النهار بليلة»
قد ألّفت بينى وبين رباب
هى ليلة العمر التى بصفائها
«لا فرق بين نجومها وصحابى»

«دارت على فلك الزمان ونحن قد»
درنا على راح كظلم كعاب
وكأننا والشوق ألف بيننا
«درنا على فلك من الآداب»
«وأتى الصباح ولا أتى وكأنه»
طيف الرقيب سرى إلى الأحباب
وكأن ضوء الصبح فى أثر الدجى
«شيب أطل على سواد شباب»

ولا شك أن تصوير «طيف الرقيب سرى إلى الأحباب» فيه روعة لا تجدها فى التشطير الأول.. والحق أن أروع ما عثرنا عليه من تشطيرات أدباء طرابلس هو هذا الذى عرضناه؛ ولكن لسنا فى ميزان النقد الأدبى، إنما نحن فى معرض التاريخ الأدبى، ونحاول إثبات الرائع وغيره لئلا تضيع حتى التشطيرات بعد ضاع شعر الودّانى وديوانه وآثاره؛ فعلى الأقل نحتفظ بلون من الإعجاب بشعره ونعرض مجهود المساهمين فى التشطير من «الشطار». فهذا فتى من زليطن فى يوم 12 أغسطس سنة 1920 م. ينشر مساهمته فى هذا المجال هو عبد الله بن موسى أبو حجر:

«من يشترى منى النهار بليله»
تزهو بحسن جمالها أترابى
وأنال منها حظِّىَ الأوْفى إذا
«لا فرق بين نجومها وصحابى»

«دارت على فلك الزمان ونحن قد»
تِهنا بها طرباً بصفوِ شرابِ
دام الوصال بها لنا صرفاً كما
«درنا على فلك من الآداب»
«وأتى الصباح ولا أتى وكأنه»
واشٍ أتى يسعى بسوء عتابى
بُعداً له من مُزعج فكأنه
«شيب أطل على سواد شباب»

وعبد الله أبو حجر فى تشطيره نراه طرباً بصفو الشراب مع أن الوَدَّانى كان شرابه من كؤوس الآداب؛ ولكن يظهر أن المشطِّر يرسم صورة ماثلة أمامه، ولعله من الذين لا يطيقون رؤية الكأس.. ثم نلاحظ (هزات) لا شعرية إنما «هزات» فيها خلل وخضخضة تكاد تسمع لها (قرقعة) عند شطرته: دام الوصال بها لنا صرفاً كما ـ هذه الألفات.. هذه الممدودات، كأنها أعمدة فى الحلق.. أو شعرات واقفات فى العين. وليست لائقة بأبيات الوَدَّانى ذات الرقة والرنين الذهبى... وخير ما فى شطرات (أبو حجر) تشبيه الصباح الآتى بـ (واش أتى يسعى بسوء عتابى».

هذان شاعران، أحدهما ساهم مرتين فى التشطير والآخر اكتفى بواحدة ولم نعثر له على أثر آخر، وعثرنا على مساهم ثالث أدلى بدلوه ورمى بسهمه ولكنه آثر أن يكون مطوىَّ الإسم مجهولاً، وأبى الإفصاح عن نفسه إلا فى تشطيراته التى نسوقها إليك.. ونوصيك بالصبر.. إن الله مع الصابرين. وقد بدأ صنيعه صارخاً:

نادى منادٍ فى عكاظ أجله
يروى صداه معنعناً عن خولة
«من يشترى منى النهار بليلة»
فتخلخلت منا عرى الأعصاب
وتلت على السقف المحيط ودره
«لا فرق بين نجومها وصحابى»
«دارت على فلك الزمان ونحن قد»
همنا نطوف على ديار رباب
فتراجعت ألبابنا فإذا بنا
«درنا على فلك من الآداب»
«وأتى الصباح ولا أتى وكأنه»
موج تكافحه جنود عباب

صـــاح الشبـــاب عـــلى الشبـــاب بحســـرة
كـــتـــحـــســـر الـــلـــهـــفـــان ألـــفـــى مـــرة
هـــذا عـــدوى فـــاقـــتـــلـــوه بـــشـــفـــرة
«شـــيـــب أطـــل عـــلى ســـواد شـــبـــاب»

وبعد أن تقرأ أرجو أن تمسح العرق المتصبب من أثرها؛ فهى أبيات جامدة، وتشطيرات متكلفة، تدل على أن مشطرها أحسن باستتار إسمه... وعدم الإفصاح عنه، وإلا رجموه. وهذا الشطر يصدق عليه ما قاله أحد النقاد عن أحد الشعراء المتكلفين بعد أن أسمع الناس مثل هذا الصنيع.... يا فلان، لقد رحمت نفسك، فلو لم تتلفظ بها لأصابك شىء خطير فى جسدك.. إنها غصة... لا بد من إلقائها... وهكذا كان هذا الذى أمسك شفرة وأخذ يعبث بأبيات الوَدّانى... إنه مثل من يُمسك ديوان الشاعر ويقصه بالمقص جزازات؛ عبث هذا التشطير، ولولا أنى أثبت هذا المقال والتشطيرات لأجل التاريخ الأدبى لما أزعجت القارىء بسردها.. وإلقائها...

والتاريخ الأدبى مثل التاريخ القومى... والتاريخ الدولى... فيه الغث والثمين.. والصالح والطالح.. والمشرق والمظلم.. ومثل هذا التشطير الجامد يدل على (تطور) الشعر فى هذا البلد فأثبتوه ولو كانت (نماذج جامدة) وكلمات (محنطة). وهذا المشطر المجهول رمانا بأبياته الصخرية عندما بدأ شطرته بألفاظ (معنعاً).. هذه الألفاظ مثل تضارب عربات السكة الحديد عند تزاحمها وتراجعها وتصادمها فجأة.. ثم فى الشطرة الثانية لا يرحمنا فيقول: (فتخلخلت منا عرى الأعصاب)... أهذا شعر؟ إنه تفوح منه رائحة البعر... خلخلة. وأعصاب.. ارحم أعصابنا يا مجهول... ثم هو سريح (نطوف على ديار رباب) ثم هو يرجع لنا ألبابنا التى طارت من شعره وسرده... «فتراجعت ألبابنا» ومن قال إن لبه رجع إليه...؟ بل من قال إن عنده لباً عندما سطر هذه التشطيرات... يظهر أنه كان فى يده (ساطور) لا قلم شاعر.

ثم إتيان الصباح بماذا يصوره...؟ (كموج تكافحه جنود عباب). وعليك أن تجلس على الشاطىء وترى موج البحر المتلاطم وتقارن بينه وبين الصباح عندما يأتى فى الأفق بعد ليل.. أين هذا من ذاك..؟ بل أين ألبابنا يا مجهول الإسم؟ ثم هو يبدأ بالمناداة كأنه (بياع) (ربابيكيا) وينتهى بالصياح المزعج (صاح الشباب على الشباب بحسرة) ندّاب.. لطّام، ثم مثل أى شىء هذا الصباح عند مجهول الإسم المتشاعر؟ كتحسر اللهفان ألفين من المرات.. اللهم احفظنا وباعد عنا الشر... وماذا يقول صاحب الفين حسرة وندامة: (هذا عدوى فاقتلوه بشفرة) يدل على الجبن أولاً لأنه يريد من الناس أن تقتل عدوه ولا يقتله هو... ضعف وجبن... وخور... ثم القتل بشفرة... لا بد أن الناظم... جزار أو حلاق... فعندهم الشفرات الحادة... أكثر حوادث الجزارين والحلاقين بالشفرات.. وخيال الناظم السقيم سمح له بهذا لأن الشيب يُزال بالحلاقة والشفرة.. ولكن هل يجدى أن تحلق الشيب أو أن تصبغ الشيب؟... إن حلاقة الشيب وصبغه لا يعيد القوة ولا يبعث الحياة، كما أن هذه التشطيرات.. لا فائدة منها وكادت أن تمسخ الشعر الرائع البديع.. تكاد أن تخنق أبيات الوَدَّانى عندما «أطبقت» عليها وأحاطت بها.

وهناك تشطيرات أخرى ساهم بها ضعاف الخيال وضعاف الشعور لا أثقل على القارىء كثيراً بسردها، ويكفى هذا النموذج، فإننى شعرت بأننا فى جو خانق فى شهر يوليو.. ولكن لا بأس من أن نعرج على شاعر رابع ساهم فى المسابقة هو عبد الرحمن حمودة وقد نشر تشطيره فى يوم 23 سبتمبر 1920.

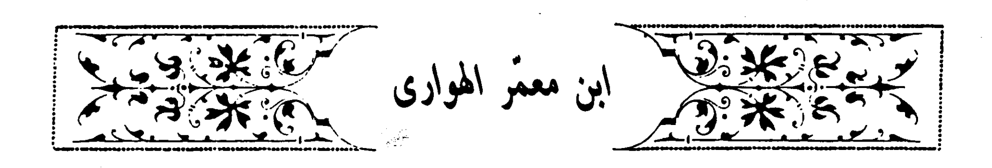
«من يشترى منى النهار بليلة»
فيها نلذ بمطعم وشراب
وصفا لنا الدهر الخؤون لأنها
«لا فرق بين نجومها وصحابى»
«دارت على فلك الزمان ونحن قد»
ملنا لأنس الخِل والأحباب

وكـأنهم لمـا احـتـفـوا وكـأنـنـا
«درنـا عـلى فـلك مـن الآداب»
«واق الـصـبـاح ولا أق وكـأنـه»
بـدر كـسـى بـغـمـامـة وسـحـاب
وكـأنـه لمـا عـلى الأفـق انـجـلى
(شـيـب أطـل عـلى سـواد شـبـاب)

ويظهر أن الشطر كان جائعاً أو كان صاحب بطنة... فهو يلذ بالطعام والشراب؛ وتشبيهاته ضعيفة ولكن لا تصل إلى درك السابق مجهول الإسم، وهى بالنسبة لغيره متوسطة وإن كانت لا تصل إلى جودة تشطيرات السيد أحمد الفقيه حسن المتقدمة.

بقى أن نشير إلى أن أبيات الوَدَّانى الثلاثة لا بد أن تكون قطعة من قصيدة، ولا بد أن يكون تراثه متناثراً هناك وهنالك، ولكن هذا ما عثرنا عليه وهذا كل ما أمكننا أن نحصل من شعره الرائع، وعسانا بهذه الكلمة الموجزة العاجلة قد وضعنا إشارة ونبهنا على شاعر وأديب جدير بالمدارسة والعناية والبحث.





ابن معمّر الهوارى

العالم المغامر، والشيخ الأديب
609 هـ - 683 هـ
1212 م - 1284 م

أتحدث فى هذه الصفحة عن شاب طرابلسى كان مغامراً فى الحياة العلمية والحياة الاجتماعية. أوتى قوة من الذكاء وطلاقة فى اللسان وتوسعاً فى العلم، فأخذ يضرب فى شعاب الحياة، وشق طريقه بين العلماء حتى تصدّر، وبين أصحاب الرأى حتى سُمع واحترم. ذلك هو الفقيه أبو الحسن بن موسى بن معمّر الهوارى الطرابلسى، من أعلام القرن السابع الهجرى.

وكان إلى جانب التضلع من الفقه وما يتصل به من علوم الدين، أديباً له شعور الشاعر، ولديه آفاق الخيال. يحلّق ولكنه لا يصل، ويسير ولكنه يصطدم، ويطمح ولكنه يحارب، ويتكلم ولكنه يؤذى، ويسجن ويطلق ولكنه يتحمل ويصبر، ويترك وطنه طرابلس، ويفارق الأهل والخلان، ولكنه لا يذوب فى الغربة ولا تقضى عليه الفرقة بل يظهر إسمه وتتكون شخصيته رغم الصعاب وما يعانيه من تقلبات الأحوال.

رجل حياته كلها عذاب واضطراب، ولكنها جديرة بالإعجاب؛ يتشوق ويتحرق ولكنه مغمور مطمور فى حاجة إلى كشف وإبانة. وكم فى تاريخ

المغرب الإسلامى، وخاصة هذه البلاد، من بحوث فى حاجة إلى اكتشافات وكتابات. . . إنه تاريخ حافل، ولكن أين من يبحث فيه ويدلنا على التراث المجهول؟ ولد ابن معمَّر فى مدينة طرابلس الغرب سنة 609 هـ ـ 1212 م، وجلس كما يجلس أقرانه وتلامذة أهل زمانه إلى فقيه يعلمهم القرآن والكتابة ومبادىء العلوم. وبعد أن يقوى عوده ويشتد ساعده يلمس فى نفسه طموحاً يدفعه إلى مجال أكبر، إنه يتطلع إلى عالم أكثر، وإلى حياة أعظم وكانت نهضة العلوم الإسلامية وسوق الفقه والحديث رائجة فى بلاد المغرب: فى مساجد تونس، وحلقات المهدية، ويسمع بهذه النهضة ويجتمع مع رجالات التفقه الذين يرحلون من بلادهم فيمرون بطرابلس قاصدين المشرق فيجد عندهم شيئاً كثيراً يبحث عنه ويتشوق إليه، ثم يأخذ ابن معمَّر يده ويضعها فى يد أخيه أبى موسى ويتوجهان إلى تونس، ـ إلى المهدية ـ، ويجلس الأخوان إلى فقيه زمانه وعلّامة أوانه (أبى زكريا البرقى) ويظهر ذكاء طرابلس لماعاً على جبين هذين الشابين، وتظهر الفطنة فى الحفظ المتواصل والإتقان المتزايد والتعطش الغريب.

ويهمس أبو موسى فى أذن أخيه أبى الحسن: ـ أريد العودة إلى طرابلس. ولكن أبا الحسن ما زال متطلعاً متعطشاً راغباً متشوقاً ملازماً لشيخه (أبى زكريا البرقى) يسطر ما يسمع ويناقش ما يقال ويعارض ما يقرر.

ويعود أبو موسى إلى طرابلس ليتولى القضاء والإفتاء؛ أما صاحبنا فيبقى فى تونس، فى المهدية، يلازم شيخه ملازمة الظل، يصاحبه فى الغدوات والروحات ولا تفوته حلقة من الحلقات أو كلمة من الكلمات.

ولكن الظروف تتبدل والأحوال السياسية تتغير ويكفهر الجو ويتلبد فى البلاد التونسية، وتقع فتنة (أبى الحمراء) بالمهدية، وليس الحديث عن الفتنة السياسية أو الفتنة الدينية وأسبابها مما يهمنا هنا حتى نبسط فيها القول ونتعرض لها بالتوسع، إنما المهم هنا أن الشيخ أبا زكريا البرقى اضطهد مرّ الاضطهاد، وقتل فى تلك الزوبعة السياسية أو الدينية (أبو الحمراء)، وحمل الشيخ البرقى على حمار وسيق إلى الأمير، وكان معه خواص أصحابه والمخلصون من

تلامذته، وبطبيعة الحال كان ابن معمّر الطرابلسى يصحب شيخه ويشاركه الألم والاضطهاد.

ولكن الشفقة تتسرب إلى قلب الأمير فيطلق سراح الشيخ البرقى ويعيده إلى موطنه آمناً سالماً. ترك الشيخ البرقى تلميذه ابن معمّر فى العاصمة التونسية، وهنا تبدأ مرحلة جديدة وصفحة جديدة فى حياة الشيخ الطرابلسى، ويخطو إلى الحياة الحرة الرحيبة خطوة قد تكون واسعة حيناً وقد تكون ضيقة مؤلمة أحياناً؛ وهكذا حياة من يصل إلى مجالسة العظماء... حالة لا تستقر، وصاحبها دائماً فى خوف لا يدرى ما الأمر وما المقر. فقد أصبح ابن معمرً فى حياته الجديدة يناظر الفقهاء ويحاج العلماء ويجلس مع العظماء والأمراء. وتفتحت تلك المواهب فى الأجواء المضطربة الجديدة.

وكان ابن معمّر صاحب لسان طليق ذليق، خطيباً موهوباً ومحدثاً لبقاً وعالماً متوسعاً ومناظراً بليغاً، يأخذ بأعناق الحجة أو يأخذ بأعناق خصمه، فإذا ما تحدث سمع، وإذا ما ناظر غلب، وإذا ما تكلم وجد الناس فى كلامه ما لا يجدونه فى كلام الغير من أهل العلم أو الحديث وهذه صفات تجمعت فكوّنت منه شخصية لفتت إليها الأنظار وتجمَّع حوله المعجبون والأنصار. ولكنها هى الطبيعة وقانون الحياة... الصفو والأكدار والنسيم والإعصار، والإقبال والإدبار... تقلبات وتطورات انسجمت الحياة لابن معمّر، فولًى القضاء وسار أو قفز بخطوات سريعة فى سلم المجد. وفى دولة الخليفة (المستنصر) ينقل ويتدرج فى سلك القضاء فى البلاد الإفريقية باجه وبياجه الخ...

ولّى خطة العلامة الكبرى والإشراف على خزانة الكتب، فأشرف ابن معمّر على الخزانة العلمية، وهذه مرتبة سامية ومنزلة عالية لا يستطيع القيام بها والنهوض بأعبائها إلا عالم كثير الإطلاع وأديب عظيم الباع، وباحث ذو إطلاع. والإشراف على خزانة الكتب يعطينا صورة من حياته العلمية والاجتماعية، ومثل هذه الوظيفة شغلها ابن مسكويه الفيلسوف الإسلامى، وقد أشرف على خزانة آل بويه فى المشرق. وأخذ ابن معمّر يرتب خزانة

الكتب، أو، بالتعبير الحديث (دار الكتب) ينظمها ويسد فراغها ويملأ رفوفها، وكانت تبلغ الثلاثين ألف مجلد.

ولكن العاصفة تجتاح هذه الحياة الهادئة فتتبدل الأحوال، وتتطور. فبعد أن استقر ابن معمَّر بعض الاستقرار، حاول أن ينظِّم حياته كما نظَّم دار الكتب، فهو يبحث عن الطمأنينة ولكنها تفر منه، ويبحث عن الهدوء ولكنه لا يواتيه. فبعد هذا الاستقرار المؤقت فى القضاء والإشراف على خزانة الكتب، إذ به مغضوب عليه، ينتقم منه الخليفة (المستنصر) ويسلط عليه شواظ غضبه وقوارص قوله. وويل للعلماء من غضب الأمراء، وويل لأهل الفكر من أولى الأمر... ويأمر الخليفة بنفى ابن معمَّر إلى المهدية... وخرج يوم السبت 18 ذو القعدة سنة 667 هـ 1268 م ناكس الرأس حائراً مغضوباً عليه. وظل فى منفاه عاماً كاملاً، يعانى ألم الغربة وألم الفرقة والوحدة وألم النفى وغضب السلطان صاحب الحكم والشأن.

وفى هذه الجفوة قدم صديق له، وما استطاع ابن معمَّر أن يزور هذا الصديق، ولا أن يجلس إليه فيبثه شكواه ولو اعج نفسه ودفائن حسه؛ فازداد ألمه وتكاثر شجنه، فتحركت شاعريته المتألمة وكأنما كان قدوم الصديق إلى البلد نفخاً لجمر يتأجج فى نفسه، فأرسل ابن معمَّر إلى الصديق سراً بطاقة تحتوى شكوى على الشوق الجريح:

كتبت ولولا الحكم كنت إليكم
من الشوق فى متن الرياح أطير
وما فى صميم القلب من خالص الوفا
فسيان فيه غيبة وحضور

وظل ابن معمَّر منفيًّا فى المهدية ينتظر الفرج ويرسل الشعر بينه وبين نفسه، وقد يرسله إلى أصدقاء تباعدوا، وأخلاء فرّقته عنهم حوادث الزمان. وأخيراً رضى عنه الخليفة (المستنصر) وأمر بالإفراج عنه فى أيام عيد الأضحى سنة 668 هـ ـ 1269 م.

وعاد إلى دنيا الطلاقة والحرية، وبدأ الشيخ الطرابلسى يخطو من جديد نحو آماله فى الحياة الاجتماعية والعلمية. ولكنه، والحق يقال، كان سليط اللسان شديد التعرض للناس، كثير النقد الجارح، يلذع الناس بنقده، وينشر معائبهم، ويشير إلى مساويهم ونواقصهم. وهذه خصال دائماً تدفع صاحبها إلى الهاوية، وتزج به فى المآزق الحرجة، وتسلط عليه الحكام، وتغضب عليه أولياء الأمور. واللسان السليط سوط يجلد صاحبه وهكذا كانت قوارص القول ولذعات الكلام سبباً فى ملء الصدور غيظاً على ابن معمّر الطرابلسى. وبعد إطلاق سراح ابن معمّر بسبع سنوات مات الخليفة (المستنصر) وولى بعده ولده الواثق.

وهنا تبدأ صفحة أخرى وخطوة جديدة فى حياة صاحبنا؛ ففى يوم السبت التاسع عشر من ذى الحجة سنة 675 هـ ـ 1276 م أمر الخليفة الجديد أن يعود ابن معمر إلى خزانة الكتب، وينظر فيها ويسوى من أمرها ويصلح ما فسد، فهو بعلمه واطلاعه وخبرته وتجاربه جدير كل الجدارة بهذه المرتبة. ويقف ابن معمر أمام خزانة الكتب بعد غيبة طويلة وسنين غير قليلة، فيهوله الأمر. لقد وجدها مبعثرة، مهلهلة، ناقصة، مهملة، موزعة، ممزقة، مشوهة. وأطرق العالم أسفاً لهذه الفوضى التى عبثت بالمكتبة القيمة.

ويسأل بعض العلماء والأدباء ابن معمًّر عن أمر هذه المكتبة وما مر عليها من أعاصير، فيذكر لهم أنها كانت ثلاثين ألف مجلد ثم أبعد عنها، ثم أعيد إليها فوجدها عشرين ألفاً؛ واختبرها وفحصها فى عودته الأخيرة فوجدها تنقص عن ستة آلاف مجلد. ويسأل ابن معمًّر عن سبب هذا النقص فيقول: المطر وأيدى البشر.

وعاد ابن معمّر يصلح من أمر المكتبة، وصفا الجو قليلًا، وأراد أن يرتب حياته ويهدأ باله، ولكن عاصفة أخرى تبدو فى الأفق ثم تجتاح. . . فسرعان ما تغير عليه رئيس الدولة أبو الحسن ابن أبى مروان من أجل بعض القضايا التى كان ابن معمًّر يصدر حكمه فيها. وأمر رئيس الدولة باعتقال الشيخ ابن معمًّر، وأن يشدّ وثاقه فى دار الإشراف.

هنا نجد صفحة أخرى فى حياة صاحبنا الشيخ... حياة المعتقل.. حياة العزلة... حياة الشعر والشكوى، حياة الألم المزدوج، والغربة الممتلئة بالحرقة... هذه الغضبات المتواليات، وهذا السجن والنفى والاعتقال والاضطهاد، كل هذا طبع أحاسيسه بطابع الشكوى والتذمر والتحسر والتلهف والأنين والحنين؛ نلمس هذا فى أشعاره القليلة التى وصلت إلينا، وقد يكون هناك شعر كثير ضاع فى خضم الزمان ولعبت به رياح الحدثان.

وجلس ابن معمَّر مع زمرة من الأدباء فأنشد صديق منهم بيتين لابن الوليد سليمان بن خلف الباجى:

مضى زمن المكارم والكرام
سقاه الله من صوب الغمام
وكان البر فعلاً دون قول
فصار البر نطقاً بالكلام

ويسمع ابن معمَّر هذه النغمة التى تحمل طابع التأسف والحسرة فيراها ناقصة ويجب أن يتم هذه النغمة... فيرسل آهة أطول، وتأسفاً على الزمان، ويبالغ ابن معمَّر فى تصويره أكثر من ابن خلف الباجى، فيرتجل قائلاً:

وزال النطق حتى ليس تلقى
فتى يسخو بمرجوع السلام
وزاد الأمر حتى ليس إلا
سخىٌّ بالأذية والملام

فهو بهذا يعبر أصدق تعبير عما وجد فى دنياه، ولقى فى حياته من الأذى والنفى والاعتقال والغربة.

واعتقل مع ابن معمَّر أبو عبد الله محمد بن يحيى الفضلى، وتوطدت بينهما صداقة متينة، وأفرج عن صاحبنا قبل إطلاق سراح الفضلى، فأرسل الفضلى يهنئه فرد عليه صاحبنا ببيتين فيهما طابع الصداقة الخالصة والشعور الصادق:

(لئن سرنى فك الأسارى من الحبس
لقد ساءنى فقدى لما فيه من أنس
ولو أنى خيرت فيها أريده
لآثرت تقديمى سراحك عن نفسى)

وله أشعار متناثرة فى بعض الأوراق، مطوية فى صفحات الإهمال ضمها النسيان ومضى بها الزمان ؛ كما له قصيدة على نمط المنفرجة الشهيرة يقول فى أولها ـ ولعله نظمها أيام سجنه واعتقاله أو بعد سراحه :

الله أنعم بعد اليأس بالفرج
يا أزمة الدهر بعد الشدة انفرجى

وقد أثبتها الرحالة التجانى فى رحلته.

ورغم ما لقيه ابن معمَّر من زعزعات وهزّات وهموم وغموم فإنه كان ظريفاً رقيقاً يحب الفكاهة والملح. ويحكى عنه ابن «الأباز» فى بعض كتبه قال: أنشدنى القاضى ابن معمَّر فى أبى المجد الوفى المهدى، وكان يريد مداعبته بتزويجه العجائز:

أبا المجد كم يغرى بحب العجائز
وذلك فى شرع النبى غير جائز
كلفت بأطلال محا الدهر رسمها
فأصبحت تبغى الفوز بين المفاوز

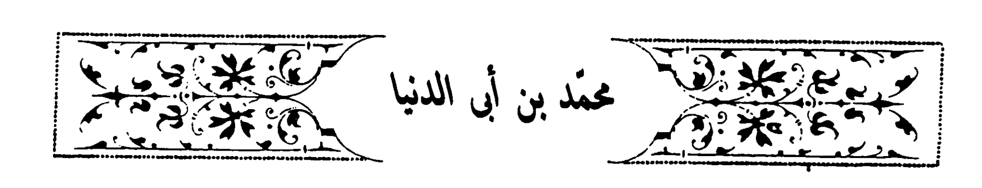
رحم الله ابن معمَّر، لقد قضى عمره فى غربة، وكفاح، وكربة. وكان علماً من أعلام الفقه والقضاء، جرفته تيارات السياسة، وأهدته طرابلس الغرب إلى تونس فكان خير هدية ونعم العطية. توفى فى تونس سنة 683 هـ ـ1284 م وله من العمر 74 سنة. وقد لاحظت أن النائب، المؤرخ الطرابلسى، لم يشر إليه فى تاريخه مع أنه أشار إلى القاضى أبى موسى الهوّارى، ابن أخيه، ومع أنه أشار، وأحياناً أفاض عن كثير ممن لا يستحقون الإشارة والكتابة. ويلاحظ أيضاً أن «هوارة» باب من أبواب طرابلس الغرب،

وهو الآن عند «سوق المشير» بالقرب من مسجد أحمد باشا، نسبة إلى قبيلة كبيرة. ويوجد كثير من أبناء هذه القبيلة فى مصر وخاصة فى الصعيد؛ ويرى بعض المؤرخين أنهم عرب حضروا من الجزيرة وقطنوا المغرب.

مات ابن معمَّر وفى فمه أبيات يرددها أنشودة حزينة ونغمة كليمة، منها:

وارحمتاه لقلبى كم أجشمه
أمراً يذيب من الأصلاد ما صلبا
وكم يعانى ملماتٍ بأيسرها
يهون الأمر من دنياه ما صعبا
وكم يلجلج فى أفكاره لجج
سود تأجج فى أحشائها لهبا

* * *



محمّد بن أبي الدنيا

حديث الأعلام الذين نشروا العلم ورفعوا إسم طرابلس فى العالم الإسلامى حديث حلو وبحث شائق ولكنه صعب عسير، تكتنفه المشاكل المتعددة. وأولها وأخطرها، قلة المراجع وعدم الاهتمام من الذين يجب عليهم أن يهتموا بهذه الناحية فى تاريخ الأعيان والأعلام، الذين كان لهم فى عالم الفكر حدث، وفى التاريخ الإسلامى حديث. . . وسيكون الحديث هنا عن رجل عرفه العلماء المحدثون؛ رجل عرفه المتصوفة، وتتلمذ عليه العلماء، وأكرمه الأمراء وسارت إليه الرسائل ووفدت إليه الوفود، وملأ عطره وذكره الدنيا. . ذلك هو محمد بن أبى الدنيا، من أعلام القرن السابع الهجرى.

فى بيت من البيوت العريقة فى طرابلس ولد ثم درج وتربى ونشأ بين المدارس والمساجد، يحفظ كتاب الله ويردد آياته، ويتلقى العلوم على منهج القدامى. يتسلق صخور المتون، نزهته فى كتاب يقرأه، وحديث يردده، ثم جولات الشاطىء الطرابلسى الجميل، والمسجد الكريم والبساتين اليانعة والحدائق المزدهرة والصمت الرائع، والمدرسة الدينية، يسمع الأحاديث

مسلسلة ومعنعنة فيروى ويحدث، ويجد كتاب الله يرنو إليه، فيقبل الفتى الطرابلسى عليه يتلوه فى الفجر وفى وقت الصفاء والضجر، وخاصة عندما تهجع العيون وتستسلم الجفون للمضاجع يقوم ابن أبى الدنيا وقد خلا بنفسه فيردد الآيات ويقبل قلبه على عالم آخر يجد فيه الأنس والصفاء والمحبة والجلاء.

وهكذا فى مدرسة الليل بصمته وصفائه، والنهار بتحركه ونشاطه، وفى محراب التقديس والطهارة نشأ (ابن أبى الدنيا) صوفياً صادقاً هذبته تعاليم السماء، فيتكلم وكأنه يهمس، ويمشى وكأنه يحذر، ويمزح ولكنه يتحفظ، ويرتاض ويلهو ولكنه يفكر ويقدر...

ليس هذا ما نلاحظه فى تكوين الفتى الطرابلسى، بل هو يذهب إلى الآثار القديمة بقية الإغريق والرومان، يجدها عند الشاطىء بارزة ظاهرة، صامتة متكلمة، ولكنه يعجب بصمتها، ولا يفهم كنه حديثها. وهو الباحث الدؤوب والطالب الرغوب يجد فى آثار الأقدمين وأطلال الغابرين مراحاً وموطناً يسرح فيها ناظره وخاطره، كيف بنيت؟ كيف أسست؟ متى؟ ولماذا؟ ومن؟ هذه أسئلة تجول فى خاطره فلا يجد لها حلاً ويتطلع إلى الأسطر المكتوبة والحروف المرقومة، فلا يجد عندها جواباً... ولا تزيل حجاباً.

وهكذا نشأ محمد بن أبى الدنيا... صالحاً وباحثاً فى ملكوت الأرض والسماء، وفى آثار الخالق والمخلوق، وقد ورث العلم والفضيلة من بيت كريم وإن كانت وراثة العلم والفضيلة كوراثة البطولة والرجولة شىء نادر فى عالم الوراثة ومحيط الأسرات.

وبعد أن اشتد عوده وقوى ساعده، وأتم القرآن حفظاً وأكثر من الحديث المحمدى رواية ولفظاً، وملأ شاطىء طرابلس سيراً وحسن سيرة، إذ به ييمم وجهه شطر المشرق إلى الأزهر المعمور، ينبوع العلم والعلماء، ومناط الأمل والرجاء. الأزهر... الأزهر قد ملأ هذا الإسم سمع ابن أبى الدنيا

فأخذ يهرول إليه وكله طموح فى أن يملأ قلبه علماً كما ملىء صلاحاً وتقى..
وكما ملىء هذا الرأس فكراً وبحثاً.

ويضع قدميه عند باب الأزهر ويسمع فيه دويًا كدوى النحل.. ويدخله بإسم الله حذراً ملأته رهبة المكان وقدسية العلم، وخشوع المتبتلين؛ فيرى الحلقات المتزاحمة، والكتب والأوراق والأزياء المختلفة، واللهجات المتعددة. وينتحى ابن أبى الدنيا ناحية فيجد جماعة من أبناء طرابلس فيقبل إليهم ويتحدث معهم... ويضع عصا تسياره ويدور الحديث عن طرابلس وما بها وما فيها وكلهم يستزيد ويحدث ويفيض... ولكن ما لفتانا القادم قلقاً لا يستقر؟ بالأمس هزه شوق إلى مصر وأزهرها لينهل من ينابيع العلم ويغترف من بحاره.. ثم بعد أن يصل لا يستقر بل نراه قلقاً يريد وجهة أخرى... إنه صوت يناديه، صوت مقدس، صوت له هيبة ورهبة.. إنه صوت الحج.. إنه الأذان المسموع... تهرع إليه من كل صوب الجموع!.. ويسرع ابن أبى الدنيا ليلبيه ويذهب إلى بيت الله.

ثم يعود الشاب الطرابلسى إلى مصر، إلى الأزهر. ويلقى رحله ليملأ هذا القلب المتعطش والفكر المتطلع.. ويجد الأستاذين، علامتى زمنهما، الريغن، والصفراوى، صاحب التقريرات المشهورة، وفى ذلك الزمان يتتلمذ عليهما ويظهر نبوغه فى العلوم التى كانت مدروسة. والتى لم يكن هناك سواها فى سوالف الأيام... فالتصوف كان فناً يدرس كما يدرسه اليوم المستشرقون والمستغربون. أستغفر الله، بل كان التصوف يدرس علماً وعملاً؛ فكان التصوف رياضة روحية ورياضة فكرية ورياضة بدنية، فوجد هذا الفن فى قلب ابن أبى الدنيا مجالاً كما تجد المياه الصافية فى الأرض الخصبة قابلية وأثراً وتأثيراً، فنهل من موارد القوم.. وأخذ من أورادهم.. وردد ألحانهم.. فى حدود لا ينكرها الشرع.

كان التصوف على حقيقته والتشريع صنوين وواجهتين لحقيقة الحقيقة وطريق الحق إلى الصراط المستقيم. ودرس ابن أبى الدنيا (أصول الفقه) أو فلسفة الفقه، واتخذ من العقل آلة ومن (الاستنباط) و(القياس) طريقاً.

ولهذا كان فى أحكامه ودراسته يستدل ويبرهن ولا يرمى القول على عواهنه. وعندما جلس الشيخ الطرابلسى للتأليف سطر رسالة (حل الالتباس فى الرد على نفاة القياس)؛ وهذه الرسالة تدل من عنوانها على أن شيخنا المحدث ـ منذ ما يزيد عن سبعة قرون ـ كان يدافع عن طريق العقل، ويجعل للاجتهاد مكانه، ويفكر فى التفكير المنهجى السليم، الذى يبحث عنه أحرار العلماء ويتطلبه المعتزون بالتراث الإسلامى العزيز. وإذا كان ابن أبى الدنيا حر الفكر يرجع للأقيسة والاستنباطات، ورسالته تدل على أنه كان يدافع عن وجهة نظره، فقد تصدى له ولغيره قوم آخرون، متمسكون بالنصوص قاعدون على الحروف، فانبرى لهم ابن أبى الدنيا فرد عليهم فى بحثه ونقد أولئك الذين ينفون (القياس) ولا يريدونه. . اشهد الله أن هذه نقطة خطيرة تدل على روح التحرر والتجديد، والفكر الطليق، من شيخ طرابلسى كان يعيش فى القرن السابع الهجرى.

ثم كانت معانى البطولة والدفاع المقدس تختلج فى صدر ابن أبى الدنيا، ولهذا جلس مرة أخرى وسطّر رسالة فى (الحض على الجهاد)، ومعنى هذا أن أبواب الفقه المحفوظة المطروقة من نواقض الوضوء وأنواع المياه والخلافات اللفظية والمعارك الهامشية لم يعرها الشاب الطرابلسى أى اهتمام عندما أخذ يؤلف، بل كتب عن الجهاد. . ، هذا الباب الذى كان علماء الدين يدرسونه باعتناء ثم جاءت فترة انكمش فيها هذا الباب وأصبحت الدراسة الفقهية صوراً وألفاظاً معادة محفوظة، وخلافات على مسائل بسيطة.

ويظهر أن ابن أبى الدنيا ألّف رسالة القياس ورسالة (الجهاد) فى مصر، ثم عاد إلى بلاد المغرب. . . عالماً محدثاً راوية، وعلوم الحديث المحمدى قد تبحر فيها علماء أجلاء برهنوا على سعة الأفق والمقدرة على تفهم رسالة الدين ورسالة الخير. وقد ضرب ابن أبى الدنيا بسهم وافر فى علوم الحديث وما يتصل به، فذاع صيته بل إن سمعته وصلت بلاده وما وراء بلاده قبل أن يعود إلى طرابلس؛ ولهذا ما كاد يرجع إلى طرابلس ويستقر بها أياماً حتى رحل إلى تونس وتعرف بعلمائها وجالس كبراءها، وأفاد طلابها.

وكان ابن أبي الدنيا سفير طرابلس العلمي إلى تونس الشقيقة المحبوبة وكان حلقة ارتباط وهمزة اتصال..، وكان بعلمه ومكانته وكثرة إفادته دليلاً ملموساً على عوامل الامتزاج بين أقطار المغرب..، وخاصة تونس الجارة، وعلى ذكر هذا ألاحظ أن رحلة الشيخ ابن أبي الدنيا إلى تونس ثم مكوثه بها أعواماً طويلة جعل بعض إخواننا الأدباء والباحثين من أبناء تونس يحتضن هذه الشخصية ويتبنون الرجل، مع أنه طرابلسى مولداً ونشأة وأصلاً وفرعاً..، كما إن بعض الباحثين من مصر يريدون أن يضموا إليهم (ابن منظور) صاحب لسان العرب، مع أنه أيضاً طرابلسى نشأة وأصلاً وفرعاً ومتناً. فلماذا يتوزع أبناء طرابلس ويضيع أعلامها من رجال الفكر واللغة والدين بين تونس ومصر؟؟ مع أن طرابلس فى تاريخها الأدبى أحوج إلى أبنائها ورجالها من غيرها؛ وأهل مصر وتونس أغنياء جداً بالشخصيات العلمية والأدبية. فهو طرابلسى، غاية الأمر أنه جلس للإفادة والتدريس فى تونس، فهل يقال إن جمال الدين الأفغانى مثلاً مصرىٌ لأنه ألقى عصاه ـ حيناً ـ فى مصر وله فيها تلامذة، والتشبيه هنا له فوارقه ولواحظه طبعاً...

وعاد ابن أبي الدنيا إلى طرابلس، منبت الأسرة ومسقط الرأس، عاد بعد أن عرفته عالماً واستاذاً ومدرساً. وما مكث فى طرابلس قليلاً حتى شعر الأمير (أبو زكريا بن حفص) بالحاجة إليه وعظم فائدته لتونس فاستدعاه الأمير لأن يكون قاضياً، وقضاء الجماعة كان مركزاً عظيماً ومنصباً خطيراً، وكان له دخل فى تصريف الأمور وسياسة البلاد.

ومركز القضاء فى سالف الأيام وهاتيك الأعصر ما كان يكبره شىءٌ من المناصب إلا الخلافة والإمارة. وبجانب القضاء ولى ابن أبي الدنيا الخطابة فى الجامع الأعظم، جامع الزيتونة، فقد كان ابن أبي الدنيا خطيباً لسناً وفصيحاً مؤثراً ومتكلماً متدفقاً، وذهب صاحبنا الشيخ إلى تونس ليستقبل هذه الحياة الجديدة.

وفى طرابلس اجتمع طلابه وتلامذته فى المدرسة التى أسسها يودعون أستاذهم المحدث والخطيب المربى؛ فقد كانت مدرسة ابن أبي الدنيا من مفاخر

طرابلس وأثراً من الآثار الإسلامية، تلك المدرسة التى أعجب بها الأدباء وتحدث عنا كثرة من الرحّالين. وكان يطلق على المدرسة التى أسسها إسم (المدرسة المنتصرية). تحدث عنها التجانى فأعجب وأطنب؛ ويذهب إلى هذه المدرسة الأديب «أبو الحسن على بن موسى بن سعيد» ويجلس فى حديقة المدرسة التى سحرته وبهرته، وتأخذ حاسة الشم رونقها من العبق الفواح، وحاسة البصر من الألوان الزاهية، هذا الربيع الدائم الضاحك فى حوش المدرسة فيتذكر الشاعر الغريب حدائق تونس وأمسيات شاعرية وأوقاتاً صافية فيترنم بهذه الأبيات، واعلموا أنها من شعر القرن السابع الهجرى، ولكل زمان طابع وأسلوب:

يا حبذا نسمة هبّت لناشقها
غب الكرى سحراً من رودة الحبق
حسبتها عندما هبت وقد نشقت
ببلة من نداها روح منتشق
قرنفل الهند قد وافى التجار بها
محافظين على نشر له عبق
فعندما فضه الراوى ذكرنى
بطيبه طيب عيش مولى أنق
بتونس أنس الرحمن ساحتها
وسقيت أبداً بالعارض الغدق
ولا أموت إلى أن ألتقى قمراً
للحسن مطلعه من ذلك الأفق

ويتحدث الرحالة التجانى فى رحلته عن موضع المدرسة التى أسسّها ودرّس فيها ابن أبى الدنيا يقول:

«وبين هذه المدرسة وباب البحر مبان من المبانى القديمة العجيبة، وهو شكل قبة من الرخام المنحوت المتناسب الأعالى، ولا تستطيع المئة على نقل القطعة الواحدة منه، قامت مربعة، فلما وصلت إلى السقف ثمنت على إحكام

بديع، وإتقان عجيب منيع، وهى مصورة بأنواع التصاوير العجيبة نقشاً على الحجر، وقد بنى عليها الآن مسجد يصلى فيه.. الخ». وكانت مدرسة صاحبنا بالقرب من مخزن الرخام، أى قوس (ماركوس اريليوس).

قلنا فى أول المقال إن الشاب ابن أبى الدنيا كانت له جولات عند الشاطىء الطرابلسى، وأشرنا إلى أنه كان يذهب إلى الآثار القديمة ويبحث عنها ويتأمل فيها، وليس هذا الكلام ضرباً من الإنشاء والاسترسال بل يشير إليه بعض المؤرخين والباحثين.

إن هذه القبة الأثرية سأل عنها وبحث عنها محمد بن أبى الدنيا. ويتحدث أبو البركات الفقيه أبو محمد ابن أبى الدنيا.. أن والده الفقيه محمداً لم يزل معتنياً بالبحث عمن يحسن ترجمة هذه الأسطر، وأنه وجد نصرانياً يعرف ذلك الخط ويفك ذلك الرمز فذكر له نصها الخ... وهذا الكلام من ابن الشيخ دليل على حب ابن أبى الدنيا للآثار وخطوطها وترجمتها.

ويقول التجانى:

«..وبين القصبة وهذه المدرسة، يعنى المدرسة المنتصرية، مدرسة ابن أبى الدنيا - هو جامع طرابلس الأعظم الذى بناه أبو عبيد، وهو جامع متسع على أعمدة مرتفعة».

إن مقالى هذا لمحات خاطفة عن هذه الشخصية الفذة، التى تشير إليها المراجع الإسلامية والبحوث العربية بالإطناب فى الوصف ولكنها مع الأسف تقتضب كل الاقتضاب فيما يهم فى عناصر البحث وفى الجوانب التى تكمل بها الصورة الذاتية عن هؤلاء الأعلام. هذا عيب من عيوب المراجع القديمة وأسلوب من أساليب المتقدمين عندما يتكلمون أو يؤرخون لشخصية فذة وَعَلَمٍ كبير، وأستاذ خطير يقولون: عالم علامة، بحر فهامة، خاتمة المحققين، صاحب دراية ورواية، الخ.. ولكنها تقتضب فيما هو أهم وأجدى وأجدر. وتوفى سنة 684 هـ - 1285 م..

ولم أعثر على كتاب للأستاذ الشيخ ولا على شيء من شعره سوى هذه الأبيات التي نشمّ منها رائحة التصوف والهدوء:

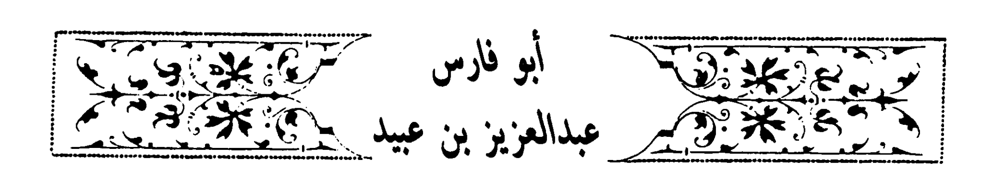
طـرق الـسـلامـة والـفـلاح قـنـاعـة
ولـزوم بـيـت فـالـتـوحش مـونس
يـكـفـيـه أنـسـاً أن يـكـون أنـيـسـه
أى الـكـتـاب ونـوره فى الحـنـدس
وإذا رأت عـيـنـاه إنـسـانـاً أتى
لـيـنـفـرن نـفـور ضـبـى المـكـنس
ولـقـلـما يـنـفـك صـاحـب مـقـول
مـن عـثـرة أو زلـة فى المـجـلس
تحـصـى وتـكـتـب والجـهـول مـغـفـل
حـتى يـراهـا فى مـقـام المـفـلس

ولى على هذه الأبيات ثلاث ملاحظات:

1 ـ إن هذا نظم فاض به على طريقة الوعظ وأسلوب التصوف، ولكنه لم يطبقه على نفسه حرفياً، بدليل أنه لم يكن عزلياً. . . ، بل كان اجتماعياً سافر ورحل وشرَّق وغرَّب ، وقـربـه الأمراء والحكام . ولم يكن فى بيت بالتوحش مونس ـ كما أشار فى نظمه .

2 ـ ثم البيت الثالث فيه ما يدل على لهجته الطرابلسية، إذ أنه نطق (الظاء) (ضاء) وهى لهجة موجودة بطرابلس. . . فينفرن نفور ضبى مكنس. وهذه اللهجة كانت فى أدلتنا على طرابلسية (ابن منظور)، وسأقدم لكم بحثاً عنه إن شاء الله.

3 ـ والبيت الأخير أو الشطرة الأخيرة منه فيها اقتباس وتأثر بالحديث الشريف الذى قال فيه الرسول لأصحابه: أتدرن من هو المفلس. . الحديث الشريف، ولهذا صور النفس حتى يراها فى مقام المفلس والله أعلم.



أبو فارس
عبدالعزيز بن عبيد

كان مولد هذا الشيخ الحافظ والأستاذ الذى تجمّعت حوله حلقات الطلاب من أبناء المغرب والمشرق فى مدينة طرابلس عام تسعة وثلاثين وستمائة هـ. فهو من أبناء القرن السابع الموافق 1240 م وقد كان قرناً ازدهرت فيه الحركة العلمية، واتصلت فيه طرابلس بتونس بل بالشمال الأفريقى اتصالاً وثيقاً، تبودلت فيه حركات القضاء والتدريس، وكثرت رحلات العلماء ومواكب الحجاج حتى أن قاضى تونس كان من أبناء طرابلس وهو أستاذ صاحبنا أبى فارس عبد العزيز بن عبيد، وأعنى به الإمام أبا موسى بن عمران الهوارى، الذى ولى قضاء طرابلس نيفاً وثلاثين عاماً 703 هـ الموافق 1303 م حتى استدعاه الخليفة الحفصى فولاه قضاء تونس نيفاً وعشرين عاماً، وتوفى الهوارى هناك سنة 758 هـ ـ 1356 م.

وقد افردنا ترجمة خاصة عن ابن عمه «ابن معمر الهوارى»، نشرتها مجلة فى شرق الأردن (القلم الجديد). والذى نود الوصول إليه هنا من هذا الحديث أن قاضى طرابلس كان من أبناء المغرب، وهو أبو العباس أحمد بن عيسى

الغمارى، وأن عبد العزيز أبا فارس، كان من أخلص التلامذة لأبى موسى الهوارى، وكان ملازماً له مستفيداً منه مستوعباً لدرره وفوائده. ويذكر لنا ابن غلبون فى «التذكار» ان مولد أبى فارس كان سنة 636 هـ ـ 1238 م، ويذكر لنا التجانى فى رحلته.. أن مولده كان سنة 639 هـ ـ 1241 م. وهذا الخلاف الطفيف فى الترجمة وإن كان لا يقدم ولا يؤخر كثيراً ولا يترتب عليه كثير أهمية إلّا أننا نؤثر نقل الرحالة المغربى على المؤرخ الطرابلسى، لأن الرحالة كان معاشراً للأستاذ المترجم له، ولأنه نقل خبر الميلاد مشافهة عنه من عبد العزيز نفسه ، ولأنه جلس لقيد كثير من المعلومات الخاصة عنه، وفى الحديث عن حياته كان يقول (أخبرنى)؛ فهو بهذا أصدق حديثاً وأصح رواية ونقلاً.. كما أننا وجدنا فى مخطوطة الرحالة نسبة إلى (بن عبيدة) ويثبت التاء، وعند ياقوت الحموى فى معجم البلدان والبستانى فى دائرة المعارف يسمونه (بان عبيد). ورواية ياقوت أصح؛ ولعل نسخة المخطوطة عليها تاء زائدة وبنو (عبيد) عرفوا فى تاريخ هذا الجزء وفى تلك الفترات ولم نعرف نسبة بالهاء المضافة.

عرف بالإمام الحافظ لأنه كان من الذين نالوا درجة الحفظ فى فن الحديث وما يتصل به من العلوم والفنون. وهو بهذا ينال مرتبة الحفاظ الآخرين فى الشرق، مثل الإمام الحافظ ابن حجر العسقلانى والإمام الحافظ جلال الدين السيوطى. ولم تكن درجة الحافظ بالشىء الهين السهل، بل له شروطه المنصوص عليها فى (مصطلح الحديث)؛ وناهيك بمن يحفظ بالسند والرواية عشرات الآلاف من الحديث، ويعرف الصحيح من المعتل، والموضوع من الحسن، والرجال الرواة ودرجة القبول والرفض والطعن.

وكما أن النحو خرج به علماؤه عن القواعد إلى شىء أشبه ما يكون بالفلسفة من التخريج والتعليل والصرف والتأويل والتوجيه، فلم تعد مسائل النحو قواعد فقط ولا مجرد اصطلاحات فقط، إنما العالم النحوى لا بد أن تكون له حافظة قوية تفهم المذاهب وتستوعب مختلف الآراء والتحريات اللغوية والأقيسة العامة والخاصة، والمتعارف والشاذ من الأبنية كذلك عالم الفقه لم يعد قاصراً على قواعد ومسائل، بل لا بد للعالم الفقهى من حافظة

قوية وذاكرة صافية واعية، ومعلومات مستفيضة غزيرة وحاسة دقيقة لإدراك دقائق التأويلات الفقهية والأقيسة الأصولية واستيعاب النادر من مسائل التشريع والأحكام. بل أن عالم الفقه أكثر حيطة وأشد حذراً من عالم النحو لما يترتب على الفقه من الخطورة لأنها مسائل تتعلق بالدين وتتصل بالشرع وأنها أمور مقدسة.

وللفقه جلال وتقدير عند الخاصة والعامة لأن مسائل الفقه مرتبطة أصلاً بالكتاب والسنّة، واجتهاد أهل الفكر من رجالات الفقه الإسلامى.. لهذا كله لم يكن الفقيه فى عصور ازدهار الفقه قاصراً على حفظ الفرائض والسنن، ومعرفة المندوبات والمكروهات والمحرمات، فهذا شىء يمكن أن يستوعبه حتى العامة من الناس، ومن لا تربطه بالعلم أدنى رابطة، إنما كان الرجل الفقيه فى عصور الاهتمام بالفقه هو الباحث الدارس المطلع.. من يستطيع أن يستوعب ويقيس ويستنبط ويؤول ويفرع ويلم بالأشتات.. ويعرف كيف يخرج من شائك الآراء وعويص المشاكل.

وقد كان الحافظ الدارس شيخ طرابلس فى وقته وأستاذ أوانه عبد العزيز أبو فارس، فارس ميدانه فى عالم الفقه أو فلسفة الفقه؛ فهو يجمع بين المنقول والمعقول، بين الفقه والأصول؛ يعرف المسائل من أصلها وما تفرع منها وانبنى عليها.. فهو (أصولى) من فطاحل ذلك العلم الذى يكون لدارس الشريعة النبراس والأساس الهادى له فى دياجى الخلافات...

وليس هذا التقديم من الكلام من باب التهرب من الترجمة أو من المبالغة على الشخصية الطرابلسية والتحيز كى نضفى على فقيه البلاد ديباجة مزركشة ونلبسه ثوباً حريرياً فضفاضاً.. كلا.. بل إن هذا الضرب من الحديث لا بد من سوقه والإشارة إليه كى تظهر ملامحه واضحة من ناحية، ومن جهة أخرى فإن هذا ما شهد به معاصروه واعترف به مشاهدوه... من رجال طرابلس ومن رجال المغرب ومن الطلاب الذين التفوا حوله وأنصتوا له وتخرجوا من بين يديه، وخاصة من أخرجتهم جامعة القرويين فى أيام ازدهار الفقه الإسلامى.

كانت جامعة القرويين حافظة لمذهب مالك، ومن أروقتها وعرصاتها نبع العلم ونبغ العلماء. . وكان لهم فى المذهب مؤلفات وتخريجات شأن فلاسفة النحو والباحثين عن الشوارد والشواهد والقواعد فى لغة العرب. . ، وكان أبو فارس بن عبد العزيز فى طرابلس يحفظ آراء (القرويين) وينقلها بأمانة ودقة، ويعلق عليها وينشرها بين طلابه فى مساجد طرابلس؛ كان واسطة النقل وكان بمثابة الأثير أو جهاز الإرسال، غير أن الجهاز لا يتصرف فيما ينقل، ولكن الشيخ عبد العزيز ـ بما له من الفطنة الزائدة والعلم الغزير والملكة المستنيرة المشرقة ـ كان ينقل ويُعنى بكلام القرويين نقل الفاهم، وعناية الدارس والمعلم المستوعب، والأستاذ المتفهم الذى يحسن النقل ويحسن المحافظة ويحسن الأخذ ويحسن العطاء. . .

ومن المشرق كانت تنبعث نهضة فكرية أخرى فى التصوف والفلسفة الإسلامية؛ وكان أبو حامد الغزالى من أعمدة تلك النهضة، وسارت آراؤه وكتبه هنا وهناك. . وإذا كان أبو حامد الغزالى لم تتح له فرصة لزيارة الشمال الإفريقى، ولم تتشرف طرابلس بدروس الغزالى وحرمت من زيارته ولم تحرم من زيارته القاهرة والإسكندرية، فقد وقف على حدود ليبيا من بعيد، وعاد من الإسكندرية عندما سمع بنكبة ابن رشد.

كان أبو حامد الغزالى يود زيارة الشمال الإفريقى لما سمعه عن «يوسف بن شافين» وعنايته بمذهب أهل السنة، وكراهيته للمبتدعة والفلاسفة؛ إلا أنّ أبا حامد الغزالى، برغم هذا كله، كان له فى طرابلس الغرب تلميذ حفظ آراءه وحافظ على دراسة كتبه وعنى بتراثه الفكرى ونتاج قريحته. تلميذ طرابلسى وإن لم يجلس إلى حلقته، وإن لم يجمعهما زمان ومكان. . . إلا أن كتب الغزالى وبحوث الغزالى لقيت كل اهتمام من أبى فارس عبد العزيز بن عبيد فى طرابلس وخاصة (الإحياء). . و(المستصفى). . وليس بدعاً هذا من الأستاذ عبد العزيز، فإن أحد أجداده قد أغرم بكتب الغزالى وشارك فى المحافظة عليها وحفظها، ومدحها؛ ولعل عبد العزيز وجد كتب الغزالى فى مكتبة جده ذاك فعكف عليها أيضاً وأغرم بها، وكان ذلك الجد معاصراً

للغزالى، وهو عمر بن عبد العزيز ابن عبيد بن يوسف الطرابلسى المالكى، وقد كان فى بغداد وتوفى سنة 510 هـ ـ 1116 م فهو من علماء القرن السادس الهجرى وقد مدح كتب الغزالى بقوله:

هـذب المـهـذب حـبـر احـسـن الله خـلاصـه
بـبـسـيط ووسـيط ووجـيـز وخـلاصـه

ولقيه الإمام السلفى وأثنى عليه؛ وقد أشار ياقوت الحموى فى معجم البلدان والبستانى فى دائرة المعارف إلى هذا الطرابلسى الذى مدح كتب الغزالى.

وكما أن الرحَّالين فى العصور الحديثة تستهويهم فى البلد الذى يزورونه الآثار والمتاحف، ويتطلعون إلى غرائب المعارض ونماذج البناء والهندسة، وإن كان منهم رحّالون يُعنون بالعلم ومسائله ومدارسه، والجامعات وقاعاتها والمؤسسات الاجتماعية والمحاضرات، وأوجه النشاط الأدبى والفكرى، فإن رحالة المسلمين فى العصور السالفة كان أهم شىء يلفت نظرهم ويستحوذ انتباههم حلقات الدرس... ومدارسة الأساتذة والشيوخ... والإنصات لعلماء البلد الذى يزورونه. وهكذا نجد كل مار من رحالة المسلمين على طرابلس الغرب يحدثنا عن حركة العلم وحلقات المساجد؛ ومن هذه المشاهدات والمحادثات نأخذ صورة عن الحركة العلمية...، فى تلك الأعصر وهاتيك الأزمن.

من هذا القبيل نجد الرحالة (التجانى) ـ الذى مكث فى مدينة طرابلس عاماً ونصف عام ـ يحدثنا عن عالم طرابلس والقائم برسم العلم فيها، وأستاذها المجمع على أستاذيته، أى أبى فارس عبد العزيز بن عبيد، ويحضر درسه فى الجامع الملاصق لبيته فيقول بالحرف الواحد: «رأيت رجلاً متضلعاً من العلم، ذاكراً بالمذاهب، لا يجاريه فيه أحد؛ ولا تكاد مسألة تشذ عنه. حسن العبارة، مشاركاً فى علوم جمة». وهذه شهادة من رجل مشاهد زائر، فلو شاهد غير ما يتكلم به لما رحمه، ولما ترك نقده وملاحظته؛ فالكاتب ليس من أبناء البلد حتى نقول إنه حباه أو حاباه أو أراد بالحديث عنه ضرباً من

المبالغة.. بل هى شهادة راحل زائر... بل شهادة رجل له عناية بالغة بعلوم الأوائل... بل شهادة رجل شاهد كثيراً من حلقات العلم فى الشمال الإفريقى ويستطيع بهذا أن يقارن ويوازن وأن يحكم على عبد العزيز حكماً فيه الصواب والإصابة.

وشىء آخر يجب أن يلاحظ فى ترجمة أبى فارس عبد العزيز... ذلك أنه تصدر وتبحّر ولم يخرج من طرابلس المدينة إلا مرة واحدة، ولم يرحل إلا رحلة الحج التى كانت فى سنة 703 هـ ـ 1303 م فى أواخر عمره، وكانت سنه قد بلغت الرابعة والستين 64 عاماً؛ فطوال عمره كان فى طرابلس، بين أسوارها، إلا أنه فاضت معلوماته ونقل عن علماء المشرق والمغرب، وهم بدورهم فيما بعد نقلوا عنه فى الشريعة والحقيقة وعلوم اللسان وعلوم القرآن. وهذه الملاحظة تشير إلى ملاحظة أهم فهى بجانب دلالتها على ذكاء الشيخ وقوة باعه وسعة أفقه فإنها تدل أيضاً على ازدهار الحركة العلمية ورواج سوقها فى طرابلس فى تلك الآونة وخاصة فى القرن السابع والثامن الهجرى، رغم اضطراب الأحوال السياسية؛ وقد يزدهر العلم فى عصور الاضطراب السياسى والاضطراب الدولى.

ولا يفوتنا أن نذكر أن عبد العزيز بن فارس، عندما توجه للحج، كان معه رفيق كريم، ابن أستاذه الذى أجلّته طرابلس وعظمته، الشيخ الصالح «عبد الوهاب القيسى»، الذى كان من رجال التصوف والتزهد، وذهب ابن الشيخ وكان يحمل خير الأسماء (محمد)؛ وكم كانت رحلة شائقة مع عبد العزيز بن عبيد... ومحمد بن عبد الوهاب القيسى... غير أن هذا الزميل الأخير فاضت روحه وعاد عبد العزيز أبو فارس من غير زميل، ولا زال يذكر الرفقة وما شاهد من معالم الطريق ومعالم الناس. ولعله كتب شيئاً عن هذا، فقد وجدنا نتفاً من الأحاديث تدل على اهتمامه بهذه الرحلة الوحيدة واهتمامه أيضاً بصاحبه الذى توفى فى طواف الإفاضة... نضع هذه الاشارات لعل المستقبل يكشف لنا أكثر من حياة عبد العزيز أبى فارس بن عبيد.

ما كان هذا الأستاذ الضليع يكتفى بإلقاء درسه فى المساجد

والمحاريب. . . بل كان أكثر نشاطاً وإفاضة، فقد كان بيته مفتوحاً لطلاب العلم وطلاب البحث، وكانت داره مثل الندوات العلمية والصالونات الأدبية فى العصر الحديث، بل كان لا يقتصر على المسجد وبيته بل كان ينتقل بنفسه إلى فنادق الناس وبيوتهم ليعقد فيها حلقات الدرس وينصب خيام العلم.

ولست هنا بباخل عليك بإعطاء صورة وصفية ونقل حقيقة واقعية من هذا اللون الذى يدل على حب عبد العزيز للعلم والمدارسة والمباحثة. كان ذلك سنة 706 هـ ـ 1306 م والشيخ عبد العزيز فى سن متقدمة، وعمره 67 عاماً، عندما قدم إلى طرابلس ركب حجاج المغاربة. واستدعى الشيخ الطرابلسى إلى مسكن الحجاج ومكان إناختهم ليلقى عليهم درّ علمه فما بخل وما اعتذر، ولا تهرب بل أسرع إليهم ورأى فى إسماع العلم تكريماً للبلد وتشريفاً له، وخاصة (حديث رسول الله). وهو يعلم أن فى الركب علماء وحفاظاً وفقهاء ولغويي وشعراء، ولكن فى صدر الشيخ عبد العزيز ما يستطيع أن يعطى الجميع ويرضى الجميع. . . وجلس إليهم. . . ودهش علماء المغاربة من بحر طغت لآلئه على أمواجه؛ كلما تحركت سواكنه وجدوا عندها جديداً، وفوائد جمة. أنه يشرح حديث الرسول شرحاً يدل على سعة وعمق واطلاع.

وتكاثرت زيارته لهؤلاء الحجاج من العلماء وسرى النبأ إلى أعيان البلاد والمهتمين بمدارسة العلم أن شيخهم عبد العزيز أبا فارس بن عبيد يذهب إلى ركب المغاربة ويدرس لهم. . وأسرعوا يتهامسون: لا نريد أن نحرم من تلك الشروح التى يغدق بها على علماء المغرب وحجاجه. . . سمعناه فى المسجد وسمعناه فى بيته. . . ونود ألا نحرم من الاستماع إليه فى هـذه الدروس الخاصة. . . وكيف تكون دروساً خاصة، والشيخ عبد العزيز أبو فارس يكره أن يكون العلم وقفاً على طائفة من الناس دون طائفة، وجماعة من القوم دون جماعة؟. . وهرع إليه الأعيان وكبار الطلاب منتهزين هذه الفرصة، وكان درساً فيه روعة العلم وقدسية الحديث. . ولو أتيح لك أن ترى تلك المصابيح الطيبة المتلألئة والشيخ عبد العزيز قد وضع متن (مسلم) أمامه وأخذ يشرح، وعلماء المغرب وأعيان البلاد وكبار الطلاب كلهم إنصات وإعجاب لرأيت

صورة خالدة من الصور التى سجلها تاريخ الفقه الإسلامى فى طرابلس، ولكن طواها فى كمِّه الواسع. . .

واقترح أحد الحجاج المغاربة على الأستاذ عبد العزيز أن يدرس أيضاً شيئاً من صحيح البخارى كما درس لهم فى (فندقهم) شيئاً من صحيح مسلم. . ولبى الدعوة. . وأجاب الطلب ليكون الربط بين الكتابين والجمع بين الصحيحين أوضح وأكثر فائدة وعائدة. ولم يكتف حجاج المغاربة وأعيان الطلاب بالاستماع إلى عبد العزيز فى درسه وتعليقه بل أخرجوا أقلامهم وكواغدهم ومحابرهم، وأخذوا يسطرون غرائب التقييدات. . وفرائد الفوائد من شرح عالم طرابلس، شيخها الدارس، عبد العزيز أبى فارس.

قيد طلابه شيئاً غير يسير من شواهده وشوارد فوائده. . . ثم كانت مجالات أخرى للاستماع والإفادة. . . تلك هى (المناظرة) التى كانت تدور بين العلماء، وتحتك فيها الآراء، وتظهر فيها ملكات الحفظ والإجادة والإفادة. . . فقد كان من المتآلف المعروف أن يقوم الجدل والنقاش حول مسألة من مسائل الفقه أو اللغة والأدب، فيتناظرون ويتناقشون على ملأ من الناس. . . كل يدلى برأيه، ويلقى بحجته عن غير خصومة شخصية أو أغراض فردية، إنما يكون الجدل والمناظرة والنقاش من أجل العلم وحدَه، وإحقاق الحق وحده؛ وكانت (المناظرة) بين الفقهاء والعلماء تميز الطيب من الخبيث، والصحيح من العليل من الآراء والأفكار.

وتتطلب (المناظرة) فناً وخبرة وأسلوباً خاصاً ومنهاجاً حربياً؛ فإنه ميدان أشد مزلقة من التدريس والتأليف، وهو يتطلب سعة الحيلة بجانب الإفاضة فى المادة، والفصاحة فى النطق والبلاغة فى التعبير وحسن الإلقاء والإدلاء. . . وهذه أسلحة كانت متوافرة عند الأستاذ أبى فارس عبد العزيز بن عبيد، فقد كان له من سعة المادة وفصاحة القول وبلاغة التعبير وحب الإفصاح عن المكنون من الحقائق. . . كان له من هذا كله ما يدفعه إلى ميدان (المناظرة) ورحاب ـ المجادلة ـ ثم زد على هذا تلك الوفود التى تفد من الغرب مشرِّقة أو من الشرق مغرِّبة، فهى بدورها تدعو إلى (المناظرة) واحتكاك الآراء وتلاحم

الأفكار. هذه الأسباب وتلك المسببات كلها جعلت من عبد العزيز أبي فارس (مناظراً) من الطراز الأول.

وشهدت حلقات طرابلس ومساجدها لوناً من ألوان المناظرات العلمية والجدال اللغوى والفقهى يدير دفته عالم البلد وشيخها، أبو فارس عبد العزيز... وقد شهد له المشاهدون بالبراعة، والبلاغة فى المناظرة والتفوق فى المخاصمة والمعارك العقلية اللسانية الفكرية. ولعل فصاحة عبد العزيز مرجعها إلى أنه من أقحاح العرب وخلصائها، فرغم أمواج الفتوحات وتكاثر الرحلات، وحوادث الأيام من مدٍّ وجزر واتساع وانكماش مما يدعو إلى خلط الأنساب وامتزاج الدماء وتصاهر الأسر، إلاّ أنَّ هناك قبائل وعائلات ظلت محتفظة بطابعها العربى الصميم ونسبها الخالص الذى لم تشبه شوائب المد والجزر، وحوادث الكر والفر والاختلاط والامتزاج. وكانت أسرة عبد العزيز أبى فارس من هذا النوع. فهو عربى قحطانى من ولد سبأ بن يعرب بن قحطان. عربى من أصلاب أعراب.

وكما عُنى الأستاذ بالتدريس فأجاد، وبالمناظرة فأفاد، فإنه أيضاً عُنى بناحية هامة قد تخفى على كثير من الدارسين والباحثين فى فن دراسة التراجم وتطور الحياة الفكرية فى هذا البلد، وأعنى بها كتابة (الإجازة). وهى ليست بالطبع (إجازة) الصيف التى يتلهف عليها المدرسون والطلاب، ولا إجازة الأيام والأعياد التى يتلهف عليها الموظفون، إنما هى (إجازة) العلم التى تثبت أسماء العلماء الذين تلقى عنهم وأخذ منهم .

والسند فى الحديث والإجازة لدى علماء السلف شيئان هامان قد يمل منهما القارىء العادى؛ ولكن من وراء (السند) فى الحديث ومن وراء (الإجازة) فى الترجمة والتاريخ تثبت الحقائق وتتكشف أمور وأمور... فالإجازة كالسند تميز الصحيح من الزائف، وتغربل الحقائق وتلقى الأضواء الكاشفة؛ وهى بمثابة «الشهادات» فى هذا العصر الحديث، غير أنها أشد عسراً وإجهاداً؛ فما كانت (الإجازة) تعطى إلا بعد ملازمة الشيوخ ملازمة فيها نوع من التخصص والعكوف العلمى. وقد يلازم الطالب أستاذه السنين الطوال

ويدرس معه الفن الواحد أو الكتاب الواحد عشرات المرات كى يحوز (إجازة) يُثبت فيها براءة علمية وتفويضاً للإنابة عنه فى هذا الفن أو ذلك الفرع أو الكتاب. وبين يدينا الآن (إجازة) أعطاها عبد العزيز أبو فارس لأحد المستمعين له، الدارسين عليه، وقد وجدنا فيها أملاه عبد العزيز أضواء ترينا فيها أملاه مقدار حرص الأستاذ على تلقى العلم والإفادة من أساتذة المشرق والمغرب عندما حلوا بمدينة طرابلس الغرب.

هذه (الإجازة) أو ذلك الثبت العلمى الذى كتبه عبد العزيز وسمى فيه أساتذته هى عمادنا فى هذه الترجمة التى نقدمها بعد وفاة الشيخ بقرون طوال. أرأيت كيف أن (الإجازة) وتسمية الشيوخ تفيد الترجمة الأدبية؟.. إنها تلقى أضواء على الحركة العلمية.. ولولا هذه الإجازة التى خطها قلم عبد العزيز أبى فارس ما استطعنا أن نعرف شيئاً عن حياته وهو طالب.. ولا أسماء الأساتذة الذين تلقى عليهم علوم العقل والنقل وما يتصل بها.

نعرف من هذه الإجازة أو ذلك السند التاريخى والوثيقة الأدبية أن «أبا موسى بن عمران الهوَّارى» كان له فى طرابلس وتونس تلامذة، منه أفادوا.. وبه اقتدوا. وكان من أوائل هؤلاء الطلاب، صاحبنا عبد العزيز الذى لازم ابن عمران ملازمة طويلة حتى جاء (الأمر) بتولية (ابن عمران) قضاء تونس سنة 658 هـ ـ 1259 م . وقد مكث ابن (عمران) قاضياً لطرابلس، كما سبقت الإشارة، ما يزيد عن ثلاثين عاماً؛ وقد قرأ عليه فى طرابلس كتاب (التفريع) لابن الجلاب ، وكتاب التهذيب . وعندما سافر (ابن عمران) إلى منصبه الجديد بتونس ظل أبو فارس ينهل من موارد العلم على يد الأستاذ (أبى محمد عبد الوهاب الهنزوتى)، وكان معيداً لدرس (ابن عمران الهوّارى) عندماكان يدرس بطرابلس، وعندما رحل تسلم درسه وجلس مكانه. وأفاد منه أبو فارس، أنبغ الطلاب وأحرصهم على تتبع درسه والغوص فى بحثه. وكما لازم أبو فارس ابن عمران فأحسن الملازمة فإنه أيضاً يستمر فى ملازمته للأستاذ (المعيد) عبد الوهاب الهنزوتى.

ومن هذا الثبت نطلع على شىء من نظم الدراسة فى هاتيك الأزمان فى

طرابلس الغرب. . . فقد كان نظام ـ المعيد ـ معروفاً وكان كبار الطلاب القاطعين مراحل ينوبون عن أساتذتهم فى التدريس والإلقاء، كما صنع ـ الهنزوقى ـ عند غيبة أستاذه، ـ ابن عمران الهوّارى ـ . وأبو فارس درس على هذا الأستاذ ـ المعيد جملة من كتاب ـ المحصول ـ لابن المعز. . . وجملة من كتاب (المستصفى) للغزالى. . . وكان أبو فارس مغرماً بكتب الغزالى، يقرؤها مراراً وتكراراً. . . حتى كاد يحفظها عن ظهر قلب؛ وظل أبو فارس ملازماً لأبى عبد الوهاب الهنزوقى حوالى ست سنوات حتى توفى الأستاذ ـ المعيد ـ سنة 663 هـ ـ 1264 م.

وأيضاً نجد من أساتذة أبى فارس شيخ الجميع، وأستاذ عصره المحدث أبا محمد عبد الحميد ابن أبى الدنيا. . . وقد سبق أن قدمنا ترجمة عن هذا الأستاذ المحدث الذى تفخر به طرابلس فى تاريخها الأدبى والعلمى. . . درس عليه أبو فارس كتاب (الإرشاد) لأبى المعالى. . . وهذا كتاب يعتمد عليه، ويعتدُّ به فى فن (الأصول) ودقائق التشريع؛ وأيضاً يدرس عليه مكَّرراً ومعيداً «المستصفى» للإمام الغزالى.

ويسمع أبو فارس بأستاذ يمر بطرابلس عائداً من الحج وذاهباً نحو الأندلس وبلاد المغرب، ويسمع بأن عنده علماً وفيراً ولديه ذخائر من الثقافة الإسلامية، فيسرع إليه، ويجلس ليتتلمذ عليه. . . ذلك هو الأستاذ الأديب الفقيه (أبو الحسين محمد إبراهيم الأندلسى البسطى)؛ وكان الأستاذ البسطى قد ألَّف كتاباً فى (العربية) وفنونها، وله فى الشعر والأدب نفثات ولقطات وليست قراءة الكتاب وسماع القصيدة من بعيد مثل قراءة الكتاب وسماع القصيدة من المؤلف نفسه والشاعر نفسه. . طبعاً يكون النقل أصح، والسماع أحكم. . . وهكذا يظهر شغف عبد العزيز بن عبيد جليًّا واضحاً عندما ينتهز فرصة مرور (أبى الحسين البسطى)، المؤلف الشاعر، فينقل منه ويروى عنه، كما ينقل ويروى عن شيوخ بلده. . . بل لا يكتفى بكتاب العربية للبسطى وسماع شعره، بل يروى عنه (المذهب) (لأبى المناصف).

وفى هذا الأسلوب الدقة فى البحث والاتزان فى النقل، وكلما اجتاز

طرابلس عالم أو فقيه أو شاعر وأديب، وجدها أبو فارس عبد العزيز فرصةً للتلمذة والتطلع نحو علم أوسع وثقافة أكثر غزارة. . .

وكما أفاد من مرور البسطى الأندلسى عندما عاد من المشرق فإنه أيضاً سمع بفقيه محدث آخر يجتاز طرابلس قادماً من المغرب قاصداً المشرق. . الفقيه (أبو محمد بن عبدالكريم الغمارى) ؛ وقد طالت إقامته بطرابلس فوجدها عبدالعزيز من سوانح الفرص فدرس عليه فن (الفرائض)، وخاصة ما ألَّفه (الغمارى) نفسه وما كتبه العالم الطرابلسى (أبو الحسن بن النمر) الذى سبق أن ترجمنا له، ثم كتاب (الحصار) الذى ألّفه فى (الحساب) وكان مرور أبى محمد الغمارى على مدينة طرابلس سنة 654 هـ ـ 1256 م ؛ ومعنى ذلك أن عبدالعزيز ـ عند دراسته على العالم ـ كان شاباً فى أوائل شبابه وسنه لا تعدو الخمسة عشر ربيعاً. . وكانت هناك ما تستطيع أن تطلق عليها (حركة تنقل) أو (مبادلة فكرية) وإدارية فى الشمال الإفريقى. . ينقل من بلد إلى بلد القاضى والعالم والمدرس والخطيب، ويعين مكانه آخر. وهكذا وجد فى تلك الفترة نقل العلماء والفقهاء ما بين طرابلس الغرب وتونس، فقد استُدعى الفقيه ابن عمران الهوارى الطرابلسى ليكون قاضياً لتونس بعد أن مكث فى قضاء بلده طرابلس ما ينيف عن ثلاثين عاماً، ثم عين بدله قاضياً لطرابلس شيخ تونسى جليل القدر والعلم هو الفقيه (أبو العباس أحمد بـن عيسى الغمارى). وقد تسلّم قضاء طرابلس بعد الأستاذ ابن عمران فوجد صاحبنا عبدالعزيز أبو فارس فى هذا القاضى التونسى الجديد. . علماً وأدباً ودراسة. . فجلس إليه كما جلس إلى سابقه، ودرس عليه كتاب (المعالم) الذى ألَّفه (ابن الخطيب) ومن هذا ندرك عدة أشياء :

1 ـ شدة الشغف بالدراسة.

2 ـ والتعلق بكل أستاذ يقدم من هنا أو هناك ما دامت عنده معلومات ولديه إفادات.

3 ـ ثم قد يدرس عبد العزيز أبو فارس الكتاب الواحد مثنى وثلاث.

4 ـ ثم قد يدرس الكتاب على أستاذ من المشرق ثم يدرسه على أستاذ من أهل البلد، ثم يدرّسه مرة ثالثة على أستاذ يقدم من الغرب.

وكل هذه الملاحظات تفسر لنا الحرص والدقة والتمعن وحبَّ التمكن فى الدراسة وحب المقابلة والمقارنة. وكما سبقت الاشارة إلى حبه للمناظرة وبراعته فى سوقها. . . فإننا نجده ـ وهو طالب ـ يحضر مناظرات كانت تدور بين أستاذه ـ عيسى الغمارى ـ وبعض الأساتذة الباحثين. وقد كان كتاب (التهذيب) محور محاورات ومدار مناظرات شهدت مدارس ومساجد طرابلس لوناً منها، واستفاد عبد العزيز أبو فارس الشىء الكثير من حضوره ومشاهداته تلك المجالس العلمية والمناظرات الدراسية. وهذا أيضاً أستاذ جليل يقدم من بلاد الشرق سنة 662 هـ ـ 1263 م ويقصد بلاد المغرب، وعندما يعرج على مدينة طرابلس يمكث بها زمناً غير يسير؛ وشأن الدارس العالم يحمل علمه معه فيرسل منه ويأخذ ويعطى ويفيد ويستفيد ويستمع إليه عبد العزيز أبو فارس فيأخذ منه وينقل عنه. وقد كان الطالب الظمآن قد بلغ سن الشباب وقد بلغ عمره آنذاك ثلاثة وعشرين عاماً، أما ذلك الأستاذ فهو الراحل الفقيه (أبو العباس الأعجمى) ـ ودرس عليه (المعالم) لابن الخطيب. .

وهذا قاض جديد يكون حظه فى القضاء مدينة طرابلس: العالم (أبو عبد الله بن إبراهيم أبى مسلم القابسى) ـ وعندما يصل المدينة، بالطبع، لا يقصر على شؤون القضاء بل يمتد نشاطه إلى مدارسة العلوم وفنونها فى مدارس ومساجد طرابلس، فَيُهْرع إليه شيوخها وشبابها ليقتبسوا من علم «القابسى» اقتباساً منوعاً. وكان من جملة هؤلاء بل فى طليعتهم عبد العزيز أبو فارس، فيضيف إلى سجل أساتذته أستاذاً جديداً جليلاً، وخاصة أن الأستاذ أبا عبد الله القابسى قد سبقته سمعته العلمية إلى طرابلس قبل مجيئه وفوق ذلك قد سمع صاحبنا عبد العزيز أن القابسى زيادة على علمه ودرسه فهو جوَّابُ آفاق. . . رحالةُ شرق وغرب. . وشاهد كثيراً من العجائب والغرائب وأحوال البلدان والناس. وقبل أن تلقى المقادير بالأستاذ القابسى قاضياً لمدينة طرابلس فقد وصل فى رحلته إلى العراق. . . ومكث ردحاً من الزمن فى مدينة بغداد. .

وهذه الأخبار وتلك الأحوال جعلت عبد العزيز يفرح كل الفرح بمقدم الرحّالة الدارس الذى عنده جديد من المشاهدات والدراسات فأقبل عليه وتتلمذ له، وأيضاً قرأ عليه زيادة على كتاب (المعالم) فن الحديث بسنده وفنونه ومتنه، وما يتصل به من اصطلاحات ومقومات... درس عليه - نصف صحيح البخارى... وطبعاً ليست هذه المرة الأولى التى يدرس فيها عبد العزيز «البخارى»، ولكن - كما سبقت الإشارة منذ قليل - كان عبد العزيز أبو فارس مغرماً بتلقى العلوم على يد أكثر من أستاذ... وكان أيضاً من طبعه دراسة الكتاب أكثر من مرة ليكون أدق فهماً وأعمق درساً وأصوب حكماً وأغزر مادة... وهذا تحرّ معناه الدقة والإتقان.

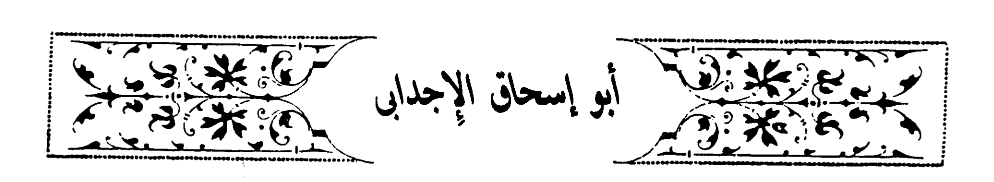
بعد هذه النظرة العاجلة فى (إجازة) عبد العزيز أبى فارس، وبعد أن عرفنا بعضاً من شيوخه وأساتذته، وبعد أن ألقينا لفتة مسرعة على أنواع دراسته ودروسه، نكتفى بهذا القدر، وإن كان بجانبه ضئيلاً، وبهذه اللفتة، وإن كانت غير كافية ولا وافية ولا بالترجمة الضافية. ولكن مع هذا كله نستطيع أن ندرك من هذه اللفتة والنظرة مقدار حرصه على الدراسة وشغفه بالتطلع والاطلاع.. وحرصه البالغ على احترام شيوخ المغرب وشيوخ المشرق الوافدين على طرابلس، ومدى حرصه على استغلال فرصة وجودهم فى البلد فيسطر منهم وينقل عنهم ويتتلمذ عليهم، ويستمع لمناظراتهم ومحاوراتهم، وكأنه بهذا قد استفاد ما عوضه عن الرحيل والرحلات والتغرب والأسفار؛ فرغم بقائه فى طرابلس فهو قد أخذ عن شيوخ من المغرب وشيوخ من المشرق يشهد بهذا حديثه لطلابه وتشهد به هذه (الإجازة) التى حفظها لنا التاريخ، والتى كتبها لأحد تلامذته وسمى فيها أساتذته.. وليتنا عثرنا على أسماء تلامذته أو بعض منهم لتكون الصورة الدراسية أكمل وأوفى.

وقد استطعنا من هذه النقطة والنظرة فى ثبت شيوخه أن نعرف شيئاً عن التدريس والتنقلات الفكرية والإدارية والمبادلات الثقافية بين طرابلس والبلاد الإسلامية، فى فترة تكاد تكون مجهولة أو غامضة، مبهمة التفاصيل على كثير من الناس، حتى المثقفين منهم، بل والمتعرضين لتاريخ هذا البلد. وهناك

شيء نحب الإشارة إليه قبل أن نترك هذه الترجمة، فقد كان عبد العزيز مع تعمقه فى الدراسات الشرعية والفلسفة الإسلامية والحديث وفنونه يميل إلى التاريخ، وخاصة بلده طرابلس وما يتصل بها من أحاديث وأحداث وفترات قلقة وحركات مضطربة، التى يثبتها تاريخ وتطورات هذه البلاد.

عنى بحفظ وثائق التاريخ ومواده الخام التى تكون مصادر ومساند فيما بعد، وعندما كانت قلاقل عهد قراقوش وحركات الموحدين وابن (تافرجين) وغير هؤلاء كانت بالطبع تصدر منهم أوامر وما يشبه فى عصرنا الحديث (منشورات) (وبلاغات) وأوامر ومحظورات.. وكانت همة عبد العزيز منصرة إلى جمع مثل تلك الوثائق التاريخية فى مكتبته بجانب كتب العلم والأدب واللغة والحديث لأنها تتصل بتاريخ بلاده. وقد كان من جملة ما شاهد معاصروه عند عبد العزيز رسالة كان قد كتبها - أبو محمد عبد البر بن فرسان - على لسان نائب الموحدين موجهة لأهل طرابلس. وشوهدت هذه الرسالة محفوظة فى دار عبد العزيز أبى فارس بخطه ومعنى هذا أنه حافظ عليها ونقلها.. لا أنه أملاها.. وهذا يعطينا فكرة عن جمعه لأخبار بلده ومحافظته على الوثائق والمصادر.. شأن العالم الدارس والباحث منوع البحوث. هذا خبر قد تمر عليه سريعاً ولكن من ورائه (هوايات) ودراسات.

وفى سطور وكلمات مجملة كان أبو فارس متأثراً فى دراسته ببعض المدارس والمذاهب؛ فمثلاً فى الفلسفة الإسلامية كان متأثراً ودارساً للإمام أبى حامد الغزالى... وفى (الأصول)، كان دارساً ومتأثراً (بأبى المعالى)... وفى الفقه المالكى كان تأثره واضحاً بمدرسة (القرويين)، ومن هذه الخطوات والتأثيرات تظهر لنا جوانب من شخصيته العلمية وإن كانت تختفى جوانب أخرى فى حاجة إلى دراسة أوسع وبحث أطول.



أبو إسحاق الإجدابى

اللغوى الفذّ، والأديب المؤلف

سأتحدث فى هذه الصفحة عن علم من أعلام المسلمين وشيخ من شيوخ اللغة الباحثين؛ ولد بطرابلس ونشأ بها وجالس علماءها وناظر أدباءها، ووهب نفسه للعلم وأوقفها على اللغة وأوابدها والأدب وطرائفه، ولم يذهب علمه فى صدره ولم يول أدبه فى قبره بل ألّف وحبّر وسطّر وكتب؛ واشتهر اسمه وعلا ذكره وتسارع الناس إلى كتبه وإلى ما يخطه قلمه. فقد أخرجت طرابلس هذا الباحث الأعجوبة والمدقق المتفنن، ذلك هو أبو إسحاق إبراهيم اللواتى الإجدابى.

وقبل أن نتحدث عنه ونتعرض لشخصيته الفذة يحق لنا أن نعرف شيئاً قليلاً عن هذه النسبة وذلك النسب. وأنا كعادتى رجل فضفاض فى الحديث متشعب فى الكلام، سواء كان هذا فى الخطابة أو الكتابة أو الحديث والمحاضرة، ومعذرة مكررة، فهكذا طبعت وعلى هذا نشأ قلمى ولسانى... لقد كانت طرابلس الإسلامية، أو بتعبير أوسع كانت ليبيا مزدهرة الحضارة عظيمة البنيان رائجة الأسواق كثيرة العلم. وكانت مدنها عامرة، ومن تلك

المدن التى ذكرها التاريخ الإسلامى، إجدابية؛ ولاحظت أن أبناء البلاد ينطقونها بالكسر مع أن المعاجم اللغوية تشير إلى أنها أجدابية بفتح الألف، وكانت إجدابية مدينة فى الصحراء وبينها وبين طرابلس ما يقرب من خمس عشرة مرحلة من مراحل الإبل، أو ما يقرب بلغة العصر الحديث من 900 كيلومتر. وبإجدابية آثار وأبنية عظيمة وقصور للرومان والإغريق؛ ونجد كثيراً من الرحّالين المسلمين يعرج عليها عندما يذهب إلى المشرق أو عندما يأتى إلى المغرب، فالرحّالة (البكرى) يقول عن إجدابية:

«وأرضها حجرية وبها عين عذبة ونخل وبساتين؛ وينبت بها شجر الأراك دون باقى الأشجار». ومن ملاحظات البكرى: ذلك المسجد الأثرى ذو المنارة المرتفعة المثمنة الأشكال، وهذا طراز غريب فى الهندسة الإسلامية. وقد كان أهل إجدابية أصحاب يسار وثراء وفيها بيوتات فضل وأهل علم... وكانت (إجدابية) موقعاً عسكرياً لجنود المسلمين، وقبل ذلك كانت معسكراً لجنود الإغريق والرومان، وكان بها ميناء يعرف بـ(المحور) يبعد من المدينة ثمانية عشر ميلاً. وكانت بإجدابية ثلاث قلاع عسكرية، والرياح كانت تشتد بهذه المدينة فاتخذ أصحاب البلاد لمنازلهم سقوفاً على هيئة قباب من الطوب..

ويمر على إجدابية الرحالة (أبو سالم العياشى) ويذكر آثارها وعمرانها. ومسجد إجدابية يرجع بناؤه إلى عام ثلاثمائة من هجرة سيدنا محمد عليه السلام؛ وفى مسجد إجدابية كانت حلقات العلم مزدهرة بدراسة الفقه وأصول التشريع، وبها درس الإمام المجتهد الشهير (سحنون) المالكى عام 191 هـ. وأنت إذا قرأت (الحلل السندسية) - تجد أن (حمديس بن القطان) يحدثك أنه سمع من (سحنون ابن سعيد) يقول: سمع منى العلم سنة إحدى وتسعون ومئة أهل إجدابية. ولا أريد هنا أن أكثر الحديث عن إجدابية وتاريخها ومكانتها العلمية فهذا له موضع آخر، وأسأل الله العون لقلمى والصحة لنفسى، إنما أريد أن أتحدث عن شيخ يلقب بالإجدابى والحديث يجرجر بعضه بعضاً.

نشأ الإجدابى فى مدينة طرابلس ولم ينتقل منها أو يرحل عنها؛ فكان

طرابلسى المولد والنشأة والوفاة؛ وكان شديد الذكاء كثير البحث عظيم الفحص عميق الغوص، يتلهف على مسائل اللغة فيلتقطها كما يلتقط الطائر الجائع الحب. وإذا ذكرنا الإجدابيّ فأول ما يتبادر إلى ذهن السامع والقارىء كتابه الشهير (كفاية المتحفظ) وهذا الكتاب رغم صغر حجمه يدل على غزارة المادة وسعة الأفق؛ وقد كان مصدراً من المصادر التى اعتمد عليها أهل اللغة من أبناء المشارقة مثل (أحمد الفيومى) صاحب كتاب (مختار الصحاح)، وكمال الدين الدميرى صاحب كتاب (حياة الحيوان). وقد كان كتاب الإجدابى هذا فتحاً فى اللغة ومعاجمها مع أنه مختصر ولكنه سهل العبارة واضح الأسلوب بيِّن الغاية لم تكتنفه جلامد الألفاظ ومقاعير الكلمات؛ وقفز كتابه إلى مصاف المراجع وأخذ الصدارة بجوار «المصباح..» و«تهذيب» ابن سيده و«المجمل» و«الخصائص» وغير ذلك من كتب المتقدمين من أئمة اللغة.

و«كفاية المتحفظ» الذى سطره الإجدابى الطرابلسى وجد كثيراً من عناية الباحثين واعتماد الدارسين، ثم تناوله العلماء والأدباء بصورة أخرى: شرحوه وعلّقوا عليه، بل ونظموه فى قالب من الشعر، أو ما يشبه الشعر، ليسهل حفظه وتعلق بالذاكرة أبياته وكلماته. نجد مثلاً قاضى الحرم، الأديب محمد بن عبد الله بن أبى بكر الطبرى ينظمه فى ألفيةٍ، فقد كانت منظومة الطبرى لكتاب الإجدابى تبلغ ألفاً وثلاثمائة بيت. ورغم أن الأديب أبا بكر الطبرى تكبد عناء ومشقة فى نظم كتاب الإجدابى إلا أنه خلط حيناً وغلط أحياناً؛ ولكن مهما يكن من أمر فهو مجهود مشكور مأثور...

وكفاية المتحفظ من كتب اللغة المتداولة كثيراً وحاز شهرة فاقت «الألفاظ الكتابية» للهمدانى وما يشبه هذه البحوث؛ وقد كانت عندى منه طبعات مختلفة: طبع القاهرة، وطبع بيروت، وقد كتب على إحدى النسخ ما قاله جمال الدين ابن العدوى معجباً به مقدِّراً له مثنياً عليه:

من كان يطلب من الغريب وسيلة
من شاعر أو كاتب متلفظ
أو كان يبغى فى الكلام بلاغة
فليحفظن «كفاية المتحفظ»

إن أبا إسحاق الإجدابى ألَّف كثيراً من الكتب وعديداً من الرسائل والبحوث، وخدم لغة القرآن، وشريعة محمد، ولكن أين كتبه وأبحاثه؟ ألَّف فى العروض أو فى علم الخليل بن أحمد كتابين: صغيراً وكبيراً، وفى فن التجويد، ذلك الفن الجميل الذى تظهر فيه موسيقى القرآن ويبدو حسن الألحان وتظهر إجادة القراءة والترتيل، ذلك الفن الجميل السامى، يؤلف فيه الإجدابى رسالة جليلة القدر عظيمة الفائدة؛ وفى رسالة الإجدابى هذه نقد وحرية، رأى وسعة علم وطول باع؛ فقد ردَّ على القرة الإمام «أبى حفص» فى تثقيف اللسان.

وكما كان الإجدابىّ ذا حساسية فنية وأذن ذات حساسية موسيقية، يتبع موازين التجويد فى القرآن الكريم وموازين الشعر فى العروض، فهو أيضاً يتبع ويدرس موازين الألفاظ فى الصرف. وهكذا كان اللغوى الطرابلسى دقيق الإحساس شديد الملاحظة لطيف التأليف غريب البحث. . . والاسم الذى آخره ياء مثل علىّ وثرىّ وغبىّ وسرىّ ونبىّ تكون ياؤه معتلة، ولهذا النوع من الأسماء حكم فى الميزان الصرفى يشرحه الإجدابى، ويؤلف رسالة (شرح ما آخره ياء من الأسماء المعتلة) ثم تغلب عليه روح البحث وضلاعة التنقيب والمقايسة، فلا يكتفى الإجدابى بمجرد السرد وذكر الأسماء، بل يشرح ويعلل السبب الذى من أجله اعتلت هذه الياء. ثم يبين الإجدابى حكم اللغة فى حالة تصغير علىّ وثرىّ، وفى حالة التكسير، وغير ذلك من حالات التغير وطوارىء التبديل.

ولا يكتفى الباحث الطرابلسى فى رسالته بهذا بل تراه يقرأ القرآن لا قراءة بركة وسرد وحفظ، بل بجانب هذا ومع هذا، يقرأ القرآن قراءة باحث لغوى ومدقق محقق، فيجد فى سورة مريم مقاطع بليغة وآيات كريمة، تشتمل على عديد من أحكام الصرف واللغة. قال تعالى: ﴿قال إنى عبد الله، آتانى الكتاب وجعلنى نبياً. وجعلنى مبـاركاً أينما كنت، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً. وبرّاً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقـياً. والسلام علىَّ يومَ وُلدتُ ويوم أموتُ ويومَ أبعثُ حيّاً﴾ صدق الله العظيم . يشرح الإجدابى هذه

الآيات وتلك المقاطع من سورة مريم ويطبق عليها أو يستنبط منها قواعد التصريف ودقائق اللغة ، وبحثه هذا وتطبيقه دلَّ على روح التحقيق وحاسة العلم ودقة الإدراك .

وكان الشيخ الطرابلسى له مقدرة وخبرة بعلم الأنساب وتسلسل القبائل وتفرع الفروع؛ وهذا الفن كانت له مكانة فى هاتيك الأيام والعصور الخوالى، ويظهر أن الإجدابى ما كان يميل إلى التطويل ولا يحب الإطناب، فلهذا يؤلف فى علم الأنساب رسالة مختصرة موجزة، ثم يذهب أبو إسحاق إلى كتاب (نسب قريش) فيقرأه ويدرسه ويهضمه ثم يختصره بأسلوبه ويقدمه مجهوداً نافعاً إلى المكتبة الإسلامية وكان كتاب (نسب قريش) بقلم أبي عبد الله بن الزبير بن العوام.

وأبو إسحاق لا يكون نظره قاصراً على الأنساب وموازين الصرف ودقائق العروض والشوارد والأوابد من اللغة، بل يكون أدق نظراً وأوسع أفقاً وأطول باعاً وأعمق بحثاً فينظر فى هاتيك الأجواء وتلك الجوزاء ويعلم منازل الأنواء ومواقيت الرياح، وما يتصل بهذا الفن من معرفة الزوابع ودراسة الأمطار؛ يدرس حالة الطقس ويطبق النظريات. ولقد كان للعرب فى هذا الفن دراسة مستفيضة ولهم به روايات ودرايات. . ويؤلف الإجدابى كتاباً فى (الأنواء على مذهب العرب)، وأيضاً كعادة الباحث الطرابلسى فى مؤلفاته يكون بحثه عظيماً مفيداً ولكنه مختصر موجز.

قد يسأل البعض: ما فائدة ذكر هذه الكتب وأسماء الرسائل ونحن لا نجد بين أيدينا شيئاً منها، اللهم إلاَّ كفاية المتحفظ؟ ما الفائدة فى سرد الأسماء وعناوين الكتب والبحوث؟. وقد سألت هذا السؤال عندما كنت طالباً أدرس الفلسفة بكلية أصول الدين، وثرت فى وجه الدكتور محمد البهى مسَّاه الله بالخير: ما فائدة ذكر الكتب وسرد العناوين ونحن ندرس الأعلام والشخصيات الفلسفية ثم لا نجد لهذه الكتب والرسائل أثراً فى الخارج، فهل المسألة سرد وفهارس؟ فلطَّف الدكتور من حدتى وأجاب جواباً معناه. . إن هذه الأسماء وتلك العناوين لها فائدة، فهى تدل على مكانة الشخصية والقيمة العلمية، ثم لعل الأيام فى المستقبل تسمح بوجود شىء من هذه المؤلفات.

ونحن أيها القراء الكرام عندما نذكر الإجدابىَّ ونذكر أسماء كتبه ولا نجد بين أيدينا منها إلا كتاباً واحداً إنما نريد بهذا تقديم صورة عقلية ونموذج علمى حتى تكون صورته الذاتية مكتملة النواحى مضاءة الجوانب؛ ثم لعل المستقبل يبرز لنا شيئاً من هذا التراث العظيم الذى تفخر به طرابلس فى ميدان الفكر الإسلامى والثقافة العربية.

كان أبو إسحاق الإجدابى من صدر المئة السابعة للهجرة، وقد أعجب بكتبه كثير من مفكرى الإسلام، وخاصة كتابه فى الأنساب. مدح هذا الكتاب الشيخ أبو الحسن بن مغيث فقال: (هو كتاب عجب لا كتاب نسب)؛ ومرجع هذا على ما يظهر أن الإجدابى عندما اختصر الكتاب لم يكتفِ بالاختصار بل له فيه زيادات وتعليقات أظهرت شخصيته فى البحث حتى استحق الثناء العاطر من ابن مغيث وغيره من أجلّة الباحثين. وقد اعتنى المترجمون بصاحبنا اللغوى، فالشيخ محمد الطيبى الشرقى يؤلف كتاباً يسميه (تجريد الرواية فى تحقيق الكفاية) يشرح فيه كتاب الإجدابى ويترجم له، ويبين لنا مكانته. وأيضاً (المجد اللغوى) أثنى عليه الثناء الذى يشرِّف العقلية الناضجة، وجلال الدين السيوطى يعقد فصلاً فى كتاب (بغية الوعاة فى طبقات النحاة) يتكلم فيه عن الشيخ الإجدابى ومكانته العلمية ومقدرته اللغوية.

ومن أبرز ما يذكر عن أبى إسحاق جودة خطه وحسن اعتنائه به وإقبال الكبراء عليه، وهذا غريب فى الشمال الإفريقى؛ فإن جودة الخط نادرة عند أبناء المغرب. وكان الشيخ يكتب الكتب المطولة وينقلها، وكان للسلاطين والأمراء غرام باقتناء خطه وامتلاك مؤلفاته.

وحدثنا الرحالة التجانى فى رحلته عندما تحدث عنه «وأكثر تآليفه ملكتها بخطه، وكان رحمه الله أحسن الناس خطاً».

وكان الأمير أبو بكر زكرياء الإفريقى شديد البحث عن خط الإجدابى وسمع الأمير أن كتاب الفصيح بيع بخطه فى طرابلس فأرسل البريد يبحث عنه فوجده عند الورَّاقين الطرابلسيين. وسمع الأمير أبو زكرياء أيضاً أن فى

طرابلس كتاب أمثلة الغريب لأبى الحسن الهنائى، المعروف بالكراع، وكان بخط الإجدابى ويملكه بعض بنى (النقاد)، وكان هؤلاء من أعيان طرابلس فوجَّه الأمير إلى هؤلاء الأعيان يريد الكتاب فوجه إليه، رأى الرحالة التجانى كتاب (النقاد) بوصول الكتاب إلى الأمير والشكر له.

طبعاً لم نتدرج فى البحث على طريقة الترتيب والتبويب وسنتحدث عن ملامحه بعد كل هذا الكلام الطويل.

كان أبو إسحاق كريماً طلق الوجه طلق اليد طلق اللسان، ما إن يسمع بزائر أو عالم أو أديب يقدم مدينة طرابلس حتى يسرع إليه ويغدق عليه ويحسن وفادته وضيافته.

وكانت له عناية بكبار القوم والوجهاء وأصحاب المكانة المرموقة، وهذا يدل على ثراء وثروة، إذ لو كان معدماً فقيراً لما استطاع أن يستضيف الأغنياء والكبراء والأدباء والعلماء. وكانت لأبى إسحاق دار فى وسط مدينة طرابلس بمقربة من الجامع الأعظم (مسجد أحمد باشا الآن) وكان الإجدابى أحول.

ولعل من الطريف أن نذكر هذا الحادث: حضر الإجدابى يوماً بطرابلس مجلساً عند قاضيها محمد بن هانش الطرابلسى فحكم القاضى حكماً رد عليه أبو إسحاق الإجدابىّ فقال القاضى: . .أسكت يا أحول فما استدعيت. . ولا استبقيت. فأثرت هذه الكلمة فى نفس الأديب الفقيه الباحث، وغضب غضبة العلم. إنها كلمة جارحة: يا أحول، وذهب لفوره عاصراً ذهنه مستحضراً ذاكرته جامعاً للشوارد والشواهد والنوادر وكتب رسالة عن (الحول). فيا لها من غضبة أهدت للمكتبة الإسلامية بحثاً طريفاً.

ويذكرنى هذا بما صنعه أحد أدباء مصر عندما أُغضب لإحديدابٍ به فكتب المصرى رسالة عن (الحدب) وتقوُّس الظهر. ولكن رسالة الشيخ الطرابلسى عن الحول فاقت رسالة الأديب المصرى عن (الحدب). وكانت ولاية (ابن هانش) الذى أغضب الإجدابى عام 744 هـ وذلك بعد أن فرَّ منها القاضى محمد بن فاضل البكرى الإفريقى وقد فرَّ خوفاً من أهل مدينة

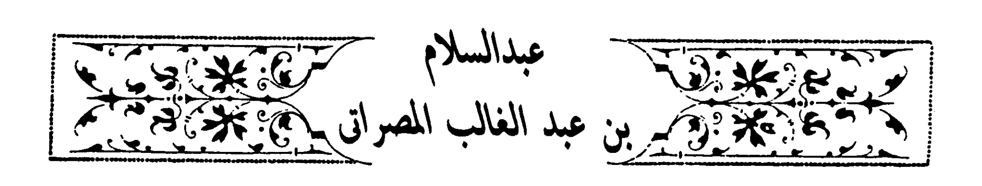
طرابلس وظل ابن (هانش) والياً على طرابلس إلى عام 777 هـ، وكانت ولايته 32 سنة.

وأهم شيء يسترعى انتباهنا أن الإجدابى بلغ ما بلغ من العلم والأدب، واقتبس منه المشارقة واستفاد منه المغاربة، وبحث عن كتبه الملوك والأمراء ومع هذا لم تكن له رحلة عن طرابلس ولا تكبد مشاق السفر والغربة، كما رحل وسافر العلماء الآخرون، ولم يخرج الإجدابىّ من طرابلس المدينة أبداً.

وعدم رحلته وسفره يدل على شيئين: (1) كثرة العلم وازدهاره فى طرابلس فى تلك الآونة؛ (2) علو همته وعظيم عصاميته حيث استطاع أن يكون شخصية علمية وهو لم يخرج من أبواب طرابلس، وهذا عجيب يدعو للتساؤل. وقد سئل فعلاً.. يا أبا إسحاق: أنَّى لك هذا العلم ولم ترحل؟ فقال أبو إسحاق:.. اكتسبته من بابى (هوارة) (وزناتة).. هذا بابان من أبواب مدينة طرابلس نسبة إلى من نزل بهما فى الزمن القديم.. ويريد الإجدابى أنه اكتسب ما استفاد من العلم بلقاء من يفد على طرابلس فيدخل من هذين البابين من المشارقة والمغاربة...

وطبعاً دفن الإجدابى فى طرابلس، ووجدت فى أحد المخطوطات مكتوباً (ودفن فيها قرب باب البحر). ثم وجدت التجانى فى رحلته يقول عندما ذكر طرابلس: «وزرت هنالك أيضاً قبر الفقيه الإمام أبى إسحاق الإجدابىّ وهو قبر معظم يكثر الناس زيارته والدعاء عنده».

وقد بحثت طويلاً عنه وسألت الكثير، ولكن ما استطعت العثور عليه. ونرجو أن لا يضيع قبره كما ضاع فى القاهرة قبر المؤرخ ابن خلدون. وقد قامت بعثة من المستشرقين الألمان منذ سنوات للبحث عن قبر ابن خلدون. وكم من قبور عظماء ضاعت مثل عمرو بن العاص وقبر (موزار) الموسيقى العظيم، وأرجو من علماء البلد وشبابها أن يعنوا بالبحث عن قبر العلامة اللغوى أبى إسحاق الإجدابى وعن رسائله ومؤلفاته فإنها أهم.



عبدالسلام بن عبد الغالب المصراتى

الفقيه الفاحص

من رجال القرن السابع الهجرى، له تآليف ودراسات وأحدث أثراً فى محيطه الذى عاش فيه. وتدرج فى سلم التعليم حتى أصبح أستاذاً فى فنون عصره وعلوم زمنه، وخاصة فى الفقه وفروعه، والفلسفة الإسلامية والتصوف النظرى والعملى.. ذلك هو أبو محمد، عبد السلام ابن عبد الغالب المصراتى. وهو من أسرة ابن عبد الغالب التى لها أصول وفروع فى طرابلس فى بلدة مصراتة... وقد هاجر كثير من أبنائها إلى تونس وبلاد المغرب، فكانت آصرة ترابط وواسطة تصاهر، حتى انصهر كثير من أبناء أسرة عبد الغالب فى تونس، وتصدروا ونبغوا فى مجالات الدرس والتحصيل. وكم كان جميلاً رائعاً من هذا الطرابلسى أن يجلس فى مساجد تونس ومدارسها، كما كان جميلاً أن يجلس فى مساجد طرابلس ومدارسها أساتذة من تونس والمغرب.. تشابك محبوب وتنقلات كريمة.

وقد كان عبد السلام هذا من الذين تتلمذوا على يد الأستاذ (أبى يوسف الدهمانى) وشيخ زمنه (أبى زكريا محمد البرقى)؛ ودرس على الأخير فن

القراءات السبع، والحديث والفقه؛ وقد ألّف فيما بعد فى كل هذه الفنون التى درسها على أساتذته الأجلاّء، وعلى يده تخرج كثير من الذين أصبحوا شيوخاً أساتذة ومؤلفين، مثل (أبى زيد عبد الرحمن الأنصارى). وبجانب علمه فى الدراسة الشرعية فقد كان حسن الترتيل جيد التجويد؛ يعرف ضوابط القراءات ومختلف التلاوات.. وفى التصوف ألَّف رسائل تناقلها معاصروه ووجدوا فيها نبعاً طاهراً، وصفاء ظاهراً وحقائق واضحة. ولا تلمه إن ألَّف فى (التصوف) فهو صوفى فقيه، وهكذا علماء زمنه ولكل عصر رجال ولكل ميدان فرسان وأبطال.

أكثر تآليفه وبحوثه كانت فى الفقه المالكى، هذا العلم الذى كُتِبَ فيه آلاف المجلدات منذ أجيال وأجيال ولا يزال فى عصرنا فى حاجة ماسة إلى تشمير السواعد وتحريك الهمم؛ فإن الفقه هو روح الشريعة وعماد الدين ومحور العبادات والمعاملات وصلة العبد بربه وصلة الناس بعضهم ببعض، لهذا ألّف عبد السلام ابن عبد الغالب كتاباً جمع فيه خلاصة الفقه وأسسه ودعائمه وأوجز فيه وأسماه (الوجيز) على طريقة السلف فى تسمية (المطوّل) (المختصر) (الموجز) (المحيط) (الجامع) (والكامل) وعلى طريقة (المغنى) (جمع الجوامع)، وكلها تدل على التطويل أو الاختصار أو الاتساع والاقتضاب؛ فآثر أن يكون تأليفه فى الفقه موجزاً مختصراً لا يخل ولا يمل..

وأخذ كتابه طريقه إلى المكتبة الفقهية وتقبله الدارسون بقبول حسن واعتمدوا عليه، واستندوا إليه، حتى إننا نجد فى العصور المتأخرة «الشيخ خليل» فى شرحه على «ابن الحاجب» ينقل من (الوجيز) الذى ألفه ابن عبد الغالب المصراتى، وخليل عند فقهاء المالكية يعتد بنقله، ويعتمد على قوله.

ولم يخلُ ابن عبد السلام وكتابه من نقد الناقدين وهجوم المهاجمين... شأن كل من درَّس وألّف؛ فإن شيخاً من شيوخ المالكية رأى فى كتاب صاحبنا ضعاً ولم يعتمد عليه، بل نقده وضعَّف كل من نقل عنه: ذلك هو (ابن عرفة الورغمى). ومرجع رأى ابن عرة فى كتاب (الوجيز) أن عبد السلام المصراتى يحيل آراءه على ما كتبه الإمام «سحنون» ثم يذهب ابن عرفة الورغمى إلى

كتاب سحنون فلا يجد ما أشار إليه المصراتى، وهنا يرمى بالكتاب ويتهم الكاتب بالاختلاق، والضعف فى النقل، ويراه غير جدير بالاعتماد عليه، والاقتباس منه.

وإنصافاً للحق ووضع كل شيء فى مكانه، ومن أجل المقياس النقدى، نؤكد أن «ابن عرفة» قد تحامل على ابن عبد الغالب وكتابه حملة بالغة:

أولاً - إن مؤلف الوجيز لم يحل القارىء على كتاب معين للإمام «سحنون»؛ فمن الجائز أن ابن عرفة لم يجد الرأى فى كتاب معين للإمام سحنون وقد يجده فى كتاب آخر له.

ثانياً - من الجائز أن المسألة التى لم يجدها مسطرة فى كتاب سحنون تكون سقطت من الناسخين؛ وكم جر إهمال الناسخين من مشاكل.

ثالثاً - إن مسألة واحدة لا تضعف المؤلف ولا تدعو إلى إهمال الكتاب دفعة واحدة. وكثيراً ما يسهل إهمال النقل.

ومهما يكن من أمر، فإن كتاب الوجيز قد استفاد منه كثير من المدرسين والمؤلفين فى الفقه وفلسفة التشريع.

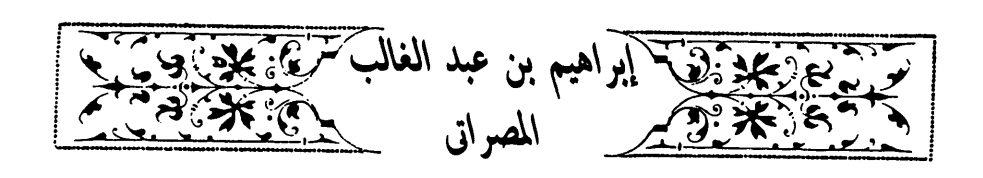
وفى غير الفقه ألَّف عبد السلام المصراتى كتابه (شرح أسماء الله الحسنى)، أى أنه بحث فى (الميتافيزقية) ومعنى كثير من الصفات والأسماء التى قد تبدو مكررة وبمعنى واحد. ومن هذا يتطرق إلى التوحيد وإلى مقدار استخدام العقل فى مثل هذه الشائكات. وطبعاً كان اعتماده على النقل والمأثورات أكثر من أى شيء آخر، ولكنه مجهود علمى يدل على مقدرة ساعدته على الخوض فى مسائل يحار العقل فيها. وقد كانت أسماء الله مبحث دراسة لكثير من رجال الفكر الإسلامى، من معتزلة وظاهرية وباطنية ومتصوفة وفلاسفة وأشاعرة، وفى كل عصر ولكل فريق مؤلفات فى هذه الناحية، وخاصة الإمام «أبى حامد الغزالى»، فقد أتحفنا برسالة لها قيمة فى هذه الموضوع وإن كانت رسالة عبد السلام المصراتى لا تصل إلى درجة ما كتبه الغزالى إلا أنها تدل كما سبق على دراسة ومواصلة وحب للبحث والتأليف.

وكتب عبد السلام المصراق بجانب هذا (الزهر الأنيق) فى قصة يوسف الصدّيق، تعرض فيها لشرح هذه القصة التى هي من رائعات الآيات الكريمة.. قصة النبى الذى تعتبر قصته نموذجاً إنسانياً سامياً.. قصة الشاب المضطهد والشاب السجين.. قصة الشاب الذى تعرضت له المرأة فى أوج جمالها ودلالها فخشى ربه، وآثر العفة والفضيلة؛ وهنا يتطرق ابن عبد الغالب إلى حديث يشوبه كلام رقيق وتعابير حسنة، ويمزج التفسير بالتصوف والأدب بالعلم؛ ولولا اطلاعه على دقائق التفاسير لما تعرض لتفسير هذه السورة والتعرض لتلك القصة، التى تصور النبى فى جميع مراحل حياته.

وهكذا يكتب الشيخ الطرابلسى - الذى هاجر إلى تونس - فى التوحيد، والفقه، والتفسير، والتصوف والأدب الإسلامي، وليت الزمان جاد بكل مؤلفاته لنرى منها صورة أكمل وأوفى. عمَّر طويلاً وتوفى بالقيروان، وقد جاوز السبعين بأشهر قليلة، وآبت روحه إلى ربها يوم الخميس 28 صفر سنة 646 هـ. وبعد صلاة الجمعة سار به الموكب إلى المقر الأخير وتنازع طلابه وعامة الناس على حمل جنازته فكل يريد أن يستأثر بحمله أو يشارك فى توديعه، ورقد بجوار (أبى الحسن القابسى).

وكان للأستاذ أخ شارك فى العلم والتصوف «أبو العباس أحمد بن عبد الغالب»...، فيه صلاح وتقى وفيه ظرف ولطافة.. وطالما ردد المقاطع التى تعجبه أمثال:

أنت غافل وقلبك ناسى
ذهب العمر والذنوب كما هى
لم تبادر بتوبة منك حتى
صرت شيخاً وحبلك اليوم واهى



إبراهيم بن عبد الغالب المصراتى

حلقة من حلقات الاتصال الثقافى بين طرابلس والمغـرب. . . شيخ استفاد منه أهل تونس والقيروان. عرف بالتواضع، ومد يد المعونة للفقراء، وامتاز بطريقته المحببة فى الوعظ والإرشاد، وحفظ غريب اللغة، وغـريب الحديث، وحسن التأويل، فكان له فى اللغة العربية باع طويل واطلاع غزير، شأن علماء تلك الأزمان: يحفظون الغريب النادر، والصعب الشارد، مما يدل على قوة الحافظة وكثرة الاطلاع وغزارة المادة. . . ومن صفات الواعظ المتصل بالعامة والخاصة أن يكون أداة خير دالاً عليه، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر. سمَحَ الجانب وقور السيرة.

وكان ابراهيم بن عبد الغالب صاحب فصاحة وطلاقة وصوت مجلجل مدوٍ، مما أهله لأن يصبح خطيباً لمسجد القيروان. والخطابة فى القيروان لم تكن بالأمر السهل، فلا يقدر عليها، ولا يرشح لها ولا يقوم بأعبائها إلاّ العالم المتضلع، والفقيه المقتدر والخطيب المصقل، أو كما يعبرون، المصقع. فقد كانت مدينة القيروان مزدحمة برجال الفقه والشريعة، وفيها مدارس ومساجد

ازدهرت بالحركة العلمية والثقافية وبرز فيها فطاحل من شيوخ الدين. . . رحم الله الصحابى الجليل (عقبة بن نافع)؛ لقد اختط مدينة القيروان فأهدى للعالم الإسلامى مدينة دفعت السهم وافراً فى خدمة الحضارة والفكر وازدهار العمران.

درّس ابن عبد الغالب المصراتى فى مدينة القيروان فأحسن فى درسه ووعظ فأرشد فى وعظه، وخطب فألهب العاطف بخطبه. . . وعلا شأنه وذاع صيته وأصبح فى القيروان مرموق الجانب مكرّماً محترماً، واطمأن به الحال وهدأ له البال.

ولكن إبراهيم بن عبد الغالب لا يستمر به الحال على وتيرة واحدة، فها هى ذى وشايات تدبر وشائعات تذاع ومكائد تصنع؛ فقد تعرض لألسنة حداد تنقل عنه ما لا يعجب. . ها هى ذى ألسنة أهل القيروان تلمز وتغمز؛ ولعل مرجع هذا إلى مبلغ الصدارة العلمية التى وصل إليها بجده وكفاءته. . . وإلى المركز الأدبى الذى تبوّأة بمقدرته وجدارته، فحسد على ذلك. وكل ذى نعمة محسود. . .

لقى الأستاذ الخطيب فى طريقه أشواكاً تلقى، وقتاداً يُرمى، وما أكثر ما يكيد أهل العلم بعضهم لبعض. . . وتنافس أهل الفكر قد يؤدى إلى المكر والدسِّ أحياناً، والحسد يدفع إلى توليد الشائعات ويصنع الأقوال.

تعرض إبراهيم بن عبد الغالب المصراتى لسهام الرائشين وألسنة الحاسدين، ولما أدرك ما يدَّبر له وما يحيكون له وما يشيعون عنه غضب غضبة العلماء وثار ثورة الكرماء. . . وحزم أمره وكره أن يبقى فى (القيروان) بعد أن أخلص لرسالته وأدّى واجبه فترك البلد وذهب مغاضباً ذهاب يونس ابن متى. وتلمَّسه أصحابه ومريدوه فما عادوا يجدون الدرس النافع، والوعظ الشافى والخطابة المفيدة، وأسفوا لفقده؛ لقد كان فى القيروان هادياً لطلاب العلم ولعامة الناس، فقد تاب على يده كثير من عصاة خرجوا عن الطريق السوىِّ وزلقوا عن الصراط المستقيم. . .

وأدركته الوفود خارج البلد وأمسكت بزمام راحلته آملين منه العودة إليهم، ولكنه خرج خروج الأديب العالم (عبد الوهاب المالكى) من بغداد، وإن كان ذلك لم يجد من أهل بغداد رغيفاً، غير أن إبراهيم المصراتى وجد من أهل القيروان الرغيف والوظيف، لكنه وجد معه الكيد والمكر من الخصوم فآثر أن يبتعد بنفسه عما يُدبَّر له ويحاك... ورأى أنه سيجد فى أى بلد إسلامى يحل به أهلاً وصحاباً وطلاباً، مادام رائده العلم وغايته الخير والسداية.

وقدم الشيخ إلى تونس العاصمة وحط بها رحله. اتخذها داراً وبدأ فى الدرس والوعظ والخطابة، وأكرمه أهل البلد وأنصتوا إليه وتجمعوا حوله، وأخذ يصلح ما بين الخصوم ويرشد التائه. وندم أهل القيروان على خروج هذا المصلح المرشد وتمنّوا أن يعود إليهم ولكنه آثر تونس على القيروان... وامتد به العمر حتى غدا علماً من أعلام القرن السابع الهجرى...

وكان إبراهيم بن عبد الغالب المصـراتى لا يرحم نفسـه من السهر والإجهاد ومواصلة الاجتهاد، على كبر فى السن وعلل فى الجسد. ومن كثرة إجهاده لنفسه والعكوف على التحصيل ومواصلة الدراسة والخـطابة أصيب بأمراض وأعراض، كان أشدها وأعنفها (البلغم)، وأحس منه بضيق واحتباس فى حلقه... فعطل كلامه، وثقل لسانه، وأقبل الأطباء يتفننون فى علاجه. ولكن المرض يشتد وبهجة الصوت تذهب رويداً رويداً، والفصاحة تغيض عنه وما عاد يقدر على اعتلاء المنبر، ولا الجلوس للدرس ولا يستطيع الخروج للعامة... وأقبل طبيب حاذق مهر الطب فنصح ابراهيم بن عبد الغالب أن علاجه سيكون ميسوراً سهلاً فى مناخ (القيروان)، فهنالك أجواء تصلح له، وهناك فى القيروان برؤه وشفاؤه. ونصـح الطبيب الشيخ أن بقاءه فى تونس يزيد صحته تفاقماً، وشفاءه تباطؤاً. ولكن إبراهيم بن عبد الغالب تذكر ما لقيه من بعض الوشاة الحاسدين فى القيروان... فهو يأبى العودة إليها، وامتنع عن الذهاب ولو من أجل العلاج، فهو حاد الطبع غضوب لكرامته، ثائر لعزته...

ولكن طلابه والمعجبين به يلحّون عليه، ويحرّضونه بكل وسيلة على الذهاب للقيروان من أجل الشفاء والعلاج، وظل هو فى إصراره. . .

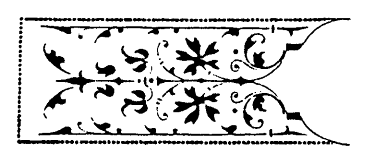
وتطرق الخبر إلى حاكم تونس. . . فهاله الأمر إذ للشيخ إبراهيم ابن عبد الغالب مكانة وهو أثير لديه وبه معجب وله مقدر. . . فأمر الحاكم بأن يتوجه إبراهيم بن عبد الغالب إلى (القيروان) وان امتنع يرغم على الذهاب، فإن الناس على مختلف طبقاتهم يودون سماع خطابته والاستنارة بدراسته. . . وصحته ليست وقفاً عليه وحده بل أصبحت شيئاً تهتم به البلاد كلها. . . وإزاء هذا رضخ أخيراً. . . وذهب مع طلاب خلصاء ورجال أوفياء يصحبون ركب الأستاذ الخطيب العالم. . .

وعند باب مدينة القيروان كانت هناك وفود أهل البلد تنتظر مقدم إبراهيم بن عبد الغالب المصراتى، ودخل البلد دخول الفاتحين فى موكب مهول وجمع غفير. . . وانكمش الخصوم وتلاشى الحساد وتبخر كيدهم عندما شاهدوا هذا الرجل وقد أقبلت إليه وتقاطرت عليه جماهير البلد، تحتفى به وتستبشر برجوعه ، وإن كان مريضاً فقد كان العطف أكثر والحب أوفى وأكبر. . .

وظل فى القيروان مدة علاجه فى عناية وإحاطة. . . وشُفى من مرضه وانطلق اللسان. . . وتهدر الصوت المجلجل وعاد إلى المنبر والدرس من جديد، واستمعت القيروان إلى فصاحة ممتلئة بالعلم وإرشاد ممزوج بالفضل. . . وبعد شفائه عاد إلى تونس العاصمة. . . إلى حلقاته وطلابه، إلى مجالسة الكبراء يفيدهم، وإلى العامة يعظهم، حتى استأثرت به رحمة الله فى شهر رمضان من العشر الأواخر. . . فى الرابع والعشرين عام 704 هـ ـ الموافق 1304 م ودفن بباب تونس فى موكب دلّ على محبة الناس له، وإعجابهم به. . . فقد أخلص لعلمه فأخلص الناس له.



محمد الحطّاب



الحطّاب شخصية تعتز بها طرابلس فى ميدان العلم والبحث واللغة، وكم فى طرابلس الإسلامية من أعلام وشخصيات خدموا الثقافة الإسلامية وبحثوا الأبحاث المفيدة وقدموا نتاج أقلامهم ثروة طيبة إلى المكتبة الإسلامية.

الشيخ محمد الحطّاب من أعلام القرن العاشر الهجرى ينحدر من أصل أندلسى... اتخذ آباؤه طرابلس موطناً وبلداً، وكان والده من شيوخ المسلمين، اشتهر بالصلاح وعرف بالتقوى فاتخذ لابنه أحب الأسماء - محمداً - وكان مولده فى أمسيات رمضان وأهل طرابلس يحتفلون ويستعدون للسحور فى الثامن عشر من الشهر عام 902 هـ - 1496 م. ونشأ محمد بن الحطّاب فى بيت علم وبيئة فضل، وقوم له من التصوف نصيب وافر... وحفظ كتاب الله وتلقى الفقه على والده الحطّاب وعلى أعلام زمانه. ونشأ محمد شغوفاً بالعلم مقبلاً عليه نهماً ويطفىء بالاطلاع ظمأه الذى لا ينطفىء.. وكان شعلة لا يهدأ ولا يمل من الاطلاع والحفظ والبحث، وبجانب هذا كله كان الحطّاب رجل فكر واستنباط واستقصاء... يشغل فكره ويبحث بعقله ويميل إلى البراهين والأدلة، ولا يكتفى - كالشيوخ الغفل - بالنقل والرواية والحفظ والسماع.

وفى كل علم للشيخ الحطّاب باع، وعلى كل شاطىء له شراع. . .
والعلوم الإسلامية كالسلسلة، مترابطة متلاحقة متلاصقة متداعية، فلا يمكن أن يكون هناك فقيه جاهل بالحديث أو محدث جاهل باللغة أو لغـوى يجهل البلاغة وهكذا. . . غير أن درجة التفاوت تختلف بين الإتقان والإطلاع العام، ومن هنا تظهر الشخصية ألعلمية ويتكون النبوغ والتفوق. . وقد كان الشيخ الحطّاب الطرابلسى من تلك الشخصيات الفذة التى لم تكتف بالاطلاع المجرد والثقافة العامة بل كان متفوقاً نابغاً ذا طابع خاص وشخصية لها ميزاتها.

ونجده يؤلف فيكثر التأليف ويبحث فيطيل البحث، ولكنه لا يؤلف فى الفقه فقط ولا يقف عند مسائل التصوف فحسب، بل نراه يبحث فى النحو ومشاكله، والأصول واستنباطه، والفلك وأبراجه والحـديث ورجالـه واللغة وشواردها، وأصولها وشواهدها. وهكذا كان الحطّاب بحق عالماً علاّمة بحراً فهّامة، بلغة الواقع والحقيقة لا بلغة المتأخرين ولهجة أهل المناقب المبالغين. فقد كان علاّمة طرابلس نقادة بحّاثة؛ ومما يدل على روح البحث والتقصى أنه كان ينظر فى كثير من المسائل الدينية فلا يجد فيها نصاً ولا يدور حولها كلام من الفقهاء فيقف الحطّاب أمام هذه المسائل وقفة المتأمل الناظر، ثم يجمعها فى كتاب ظريف، لم يُسبق إليه .

وإذا كان باحثو الفلسفة يعتمدون كل الاعتمـاد على كتـاب أرسطو وباحثو اللغة العربية يعتمدون على كتاب سيبويه، وباحثو التصوُّف يعتمدون على كتاب الإبريز. . . فإن باحثى الفقه المالكى فى العصور المتأخرة يعتمدون كل الاعتماد على كتاب الشيخ خليل. فهو مرجعهم وعمدتهم يعتمدون عليه ويأخذون مسائله قضية مسلّمة، ويحفظونه ويشرحونه وينظمونه ويختصرونه. وكان أكثر الناس عناية به أبناء المغرب، وخاصة أهل طرابلس. . . ولكن الشيخ الحطّاب عندما يقرأ (خليل) قراءة درس وتمعن وفحص فيجده قد قصّر فى بعض المسائل وغلط وخلط فى بعض النقط، فيحرك الحطّاب قلمه ويتناول قراطيسه ويستحضر مسائل الفقه ثم يكتب رسالة يستدرك فيها على خليل ويستدرك على شرّاح خليل وشرّاح «ابن عرفة» و«ابن الحاجب» الأصـولى

المعروف. واستدراك العلّامة الطرابلسى يدل على عقلية ناضجة لا تقلد ولا تكرر كما يصنع كثير ممن قرأ «خليل» وتعبد بكلام خليل ويراه عمدة الفقه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والحطّاب المدقق والنحوى الباحث يتصفح كتب اللغة فيجد كثيراً من أصحاب المعاجم والقواميس يفسر اللفظ بلفظ آخر مرادف له فيكون هذا التفسير وهذا الشرح غير مفيد ولا مبين؛ فمثلاً الجوهرى فى صحاحه أحياناً يفسر اللفظة بمعنى، ويدلك على معنى هو بعينه المعنى الأول.. الإيغال هو التعمق والتعمق هو الإيغال ـ فالحطاب يلاحظ هذا ويؤلف فى أواخر أيامه رسالة لطيفة من الألفاظ العربية التى فسرها صاحب الصحاح بالترادف. وأيضاً الفيروزبادى صاحب (القاموس) لا يسلم من ملاحظات الحطّاب وقلم الحطّاب، فيتتبعه بروح الناقد ويتصفح القاموس بروح الباحث المدقق، ويلاحظ عليه كما لاحظ على الجوهرى فى (صحاحه) ثم يخرج لنا هذه الملاحظات وتلك التعليقات كتاباً كله فوائد وطرائف.

ولا يكتفى الحطّاب بهذا ولا يسكت عن الفيروزبادى بل يتتبعه مرة أخرى بأدق وأعمق، ويلاحظ تلك الأغلاط التى وقع فيها وكم فى القاموس من أغلاط. وهذا البحث الدقيق الذى كتبه علّامة طرابلس يذكرنا بما كتبه علّامة مصر المرحوم «أحمد تيمور» وما كتبه صاحب «الجاسوس على القاموس» مفخرة لبنان أحمد الشدياق، غير أن علّامة طرابلس سبق المصرى واللبنانى فى بحثه ونقده بما يزيد على ثلاثة قرون.

ويكتب رسالة فى الإلتزامات... وهو أن الرجل قد يلزم نفسه معروفاً.. وهذا بحث دقيق يحتاج إليه أهل الإفتاء من رجال الفقه المالكى، وقد أدرج هذا البحث الشيخ «عليش» فى فتاويه المشهورة. وأيضاً لم يسبق الحطّاب بهذا البحث. ولا يكتفى بالعلوم النظرية وبعلوم الحفظ والنقل بل يشارك فى علوم الْفلك، وهذا علم خطير قد ضرب فيه علماء الإسلام بسهم صائب، وما زالت نظريات المسلمين فى الفلك مبحث دراسة عند علماء أوروبا.

والحطّاب ينظر فى الفلك ويدرسه ويؤلف بحثاً قيماً فى كيفية إخراج مواقيت الصلاة بلا آلة كالساعة والمزولة والاصطرلاب. . . وهذا بحث غريب وطريف فى آن واحد لم يسبق إليه أيضاً، وهكذا كان سباقاً فى البحث وغريباً فى التأليف. والجدير بالملاحظة ونحن نتكلم عن علاّمة طرابلس أنه كان يستعمل عقله ويقيس بالمنطق ويستعمل أصول الفقه، ذلك العلم الجليل الذى صعب على علماء وفقهاء اليوم فأهملوه وتركوه ودرسوا الأمور السهلة التى يعرفها الأطفال والبنات والنساء، مثل نواقض الوضوء وموجبات الغسل وترك هؤلاء الكسالى أصول الفقه وفلسفة الفقه والاستنباط والقياس. يقول الشيخ أحمد بابا التنبكتى فى كتابه «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» عن الحطّاب: «كان يقيس المنصوص على غيره».

ويذهب الحطّاب للحج ويظهر هناك علمه وفضله فيتولى رئاسة المذهب المالكى بالحجاز؛ ورئاسة المذهب مركز يدل على مكانته فى العلم وطول باعه فى البحث وشهرته الفائقة. وكان الشيخ الحطّاب الطرابلسى آخر أئمة المالكية بالحجاز، طبعاً لأن المذهب الحنفى ثم الحنبلى انتشرا فى تلك البقاع، ومرجع هذا إلى الأتراك الذين نشروا المذهب فى الشام ومصر والعراق والحجاز، وبقى المغاربة والشمال الإفريقى محافظين على مذهب الإمام مالك، لهذا نجد أكثر المجتهدين والكاتبين والشراح والمؤلفين فى مذهب مالك من أبناء تونس والجزائر ومراكش وطرابلس الغرب. لقد شاركت طرابلس فى حفظ مذهب مالك بن أنس ودرّس علماؤها فى الأزهر ومساجد الشام، بل نرى من أبناء طرابلس من يتولى رئاسة المذهب المالكى فى الحجاز وكان الحطّاب لا يقل فى آرائه مكانة فى الفقه وفلسفة الفقه عن أعلام المذهب، مثل «سحنون» وابن عرفة وابن عبد السلام وخليل.

كتب فى اللغة والفقه والأصول والتصوف الإسلامى. ولا شك أن التصوف هو أقرب الفنون إلى الفقه، لهذا نجد الحطّاب يدرسه ويطلّع على فنونه ورسائله ويجمع بين رسالتى عبد الرحمن السيوطى وابن حجر فى «تفريج القلوب»؛ وكتاب الغزالى «الإحياء» - مرجع المراجع عند المتصوفة ورجال

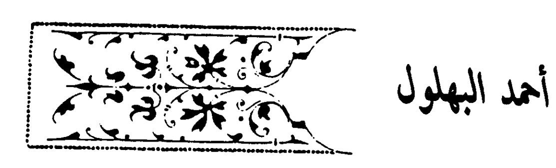
الأخلاق - نجد الحطّاب يشرحه ويعنى به... ومصطلح الحديث هو المعيار والميزان لكلام الرسول ﷺ ونجد الحطّاب يصول قلمه ويجول فى ميدانه، ويبين بعض الأحاديث ويفرد لها رسائل.

وكان الحطّاب أحياناً لا يشرح الكتاب كله بل يتخير موضوعاً منه وينتحى ناحية ويدرسه ويعلق عليه؛ كما أخذ باب الحج من «خليل» وأخذ باب السفر من «الإحياء» وحرر بحثاً مستقلاً... وفى النحو يختصر إعراب خالد الأزهرى لألفية ابن مالك ويعلق على «التوضيح» ويعلق على قطر ابن هشام.

وهل يترك الحطّاب التفسير بدون أن يكتب فيه؟ كلا.. فرغم مرضه وكبر سنه واستلقائه على فراش المرض مازال يحبر ويسطر ويكتب فى التفسير ويعلق على «البيضاوى»، ثم يشرع فى تفسير القرآن كله، ولكن لا يتمّه بل يصل إلى سورة الأعراف. وفى فن القراءات والتجويد يشارك برسالة تدل على إحاطة واطلاع، وفى فلسفة الفقه شرح كتاب إمام الحرمين «قرة العين». وعاد الشيخ الحطّاب إلى طرابلس بعد أن مكث فى مصر طالباً وعالماً، وفى الحجاز رئيساً للمذهب، وظل يكتب ويدرس ويبحث.

وفى ليلة التاسع من ربيع الثانى عام 954 هـ - 1547 م كان الشيخ يسلم روحه وما تجاوز الثانية والخمسين من عمره وبجانبه أوراق ومحابر وأقلام وتفسير لم يتم؛ وخرجت طرابلس تودع علّامتها الخالد محمد الحطّاب، وأما أبحاثه ورسائله فعلى العلماء والشباب أن يبحثوا عنها.





أحمد البهلول

صـلاتـك ربى والسـلام عـلى الـنـبـى
عـلى المصـطفى المختـار خـير البـريـة

طالما رددت هذا اللحن الجميل مع والدى وأختى فى صباى على شاطىء الإسكندرية وفى وسط القاهرة.. ونرى الشموع تضاء ويطلق البخور ونردد الأناشيد ثم يعلو صوت القراء ويمتزج، ونردد معهم فى لهجة حلوة موسيقية لها إيقاع جميل فى النفس وتأخذ بمجامع الحس.. وبعد فصل من القصائد تكرر النغمة ونردد البيت:

صـلاتـك ربى والسـلام عـلى الـنـبـى
عـلى المصـطفى المختـار خـير البـريـة،

أو نقرأ بيتاً آخر حسب القافية :

صـلاتـك ربى والسـلام عـلى الـذى
يصـول عـلى الأعـداء بـالفتـح والنصـر

نردد تلك النغمات ونتلو هاتيك القصائد فى موسم كريم، أيام ميلاد محمد الرسول، صلوات الله عليه.

ومجموعة القصائد الحلوة هى ديوان للشيخ الصوفى الشاعر أحمد البهلول الطرابلسى. فقد كان البهلول من الشيوخ الذين تفخر بهم طرابلس ومن أعيان القرن الثانى عشر للهجرة.

وكانت وفاة البهلول فى مدينة طرابلس يوم السبت ثانى رجب سنة 1113 هـ - 1701 م. ويذكرون فى نسبه أنه ابن حسين بن أحمد بن محمد بن على بن حمد بن قائد بن أحمد بن سيد الناس. ونشأ البهلول طالباً للعلم باحثاً عنه، حتى إذا ترعرع عوده ونضج فكره واشتد ساعده أخذ راحلته «ومزوده» وملأه «بالزميتة» التى اشتهرت بها طرابلس وحفنات من التمر الفزانى، وذهب إلى الشرق، إلى مصر، إلى الجامع الأزهر، إلى رواق المغاربة، ذلك الرواق الذى كان له كبير الفضل على كثير من أعلام الفقه والشريعة والتصوف، أمثال الشيخ زروق والشيخ الحطاب، وكل من جد بعزم فى طلب العلم وحفظ المتون.

وقرأ الشروح وتعمق فى الحواشى على طريقة القدامى ومنهج السلف، وتتلمذ على كبار علماء مصر، أمثال الشيخ أحمد البشبيشى الكبير والشيخ محمد الخرشى الشهير، والعلامة عبد الباقى الزرقانى والشيخ الشرنبلالى، وغير هؤلاء من أولئك الأعلام الذين حافظوا على لغة القرآن وسنة سيدنا محمد، رسول الله.

وذهب حاجًّا إلى بيت الله، ومن هنا انطبعت أحاسيسه بالطابع الدينى وأثرت فيه تلك المعالم المقدسة.

كان الشيخ الطرابلسى فصيحاً حلو البنيان، لسناً منطيقاً يحب المناظرة، ويقبل على المجادلة، ذا نفس طويل فى المناقشة، وله ميل إلى البلاغة والبحث عن المعانى الطريفة والأخيلة الظريفة والاستعارات والمجازات. كان مفطوراً على الأدب وحب الشعر، ولكنه مع هـذا كان متصـوفاً زاهـداً، فهو من

أصحاب الشخصيات المزدوجة التى تعددت ميولها وكثرت مواهبها وانصهرت عواطفها.

يخفق قلبه بالحب، هذا الأكسير الخطير، ولكنه حب عذرى؛ ثم تطهَّر الحب فأصبح حبًّا علوياً، حباً سماوياً، حبُّ محمد بن عبد الله.. ويا له من حب مقدس، وأكبر به من عشق استولى على قلب أحمد البهلول فجعله يترنم ويتغنى، ويتألم، ولكنه ألم الحب الذى فاض شعراً وشعوراً، وأصبح خبره فى العالم منشوراً مشهوراً. ومن أجل ذلك وتلك الاستغراقات العلوية والنفحات السماوية أطلق عليه الطرابلسيون لقب «بهلول» عندما مدحه بقصيدة مطولة منها:

يا فاضلاً فضله بين الورى شهراً
وعاقلاً وهو بالبهلول قد شهرا

ويلاحظ هنا أن أهل طرابلس يستعملون أسماء الأضداد: فالبهلول فى اللغة، هو الشجاع الصنديد، ولكنهم يطلقونه على المعتوه و(السرحان) والأبله.

كما أن كلمة ـ الباسل ـ فى اللغة الشجاع، ولكنهم يطلقونها على الرجل غير المستساغ (دمه ثقيل)، كما أن البياض يطلقونه على الفحم الأسود. و(ارحمه) على الطريقة الطرابلسية أى اضربه بلا رحمة ولا هوادة.. حفظنى الله من الرحمة الطرابلسية.

وأعود إلى الشيخ البهلول الذى ملأ جوانبه حبُّ محمد كما ملأت جوانب كثير من رجالات التصوف، كابن عربى وابن الفارض وأبى العباس المرسى وياقوت والأباصيرى وابن عطاء الله السكندرى والشيخ البغدادى.

وعلى ذكر هذا الأخير أقول، والحديث ذو شجون وافنان وفنون، إن كثيراً من الناس فى هذا البلد يظن أن كتاب المدائح للبغدادى هو لأحمد البهلول فيطلقون على ـ باب الوصول فى مدح الرسول ـ البغدادى... مع أن هذا خطأ محض وغلط متداول. فالبغدادى صاحب كتاب القصائد الوترية فى

مدح خير البرية كان فى القرن السابع وتوفى سنة 622 هـ - وما أبعد هذا من ذاك، وما أبعد طرابلس عند بغداد.

والبهلول له تخميسة العياضية فى مدح خير البرية؛ والتخميس فن من فنون الشعر العربى وضرب من أنماطه تظهر فيه البلاغة وروعة التصوير ودقة التعبير والتلاعب بالألفاظ والعواطف وسرعة الخواطر وحلاوة البديهة وسعة اللغة وقوة الذاكرة، مالم يكن فى التخميس التكلف والتقعر والتنميق؛ فإن التكلف فى كل شىء يضرّ، وخاصة فى عالم الأدب ودنيا الشعر.

و «البرودة» طالما خمّسها الناس وغيرها من مجامع الشعر الإسلامى. والبهلول له رسالة فى الأدب على طريقة القدامى فى القصة سمّاها - المقامة الوترية -. وقد كانت المقامات فى كثير من الفترات فناً له مكانة ومكان، من يوم أن وضعها بديع الزمان الهمذانى وأبدع فيها الحريرى إلى أن قضى عليها بالتكلف الثقيل.

واختصر البهلول - العزية - ولكنه اختصرها نظماً وجعلها سهلة الحفظ ظاهرة المعنى قوية المبنى. وفى التوحيد ينظم البهلول سعبين بيتاً ويسمى قصيدته. «درة القصائد» - وكانت بحق درة يقدمها الشيخ الطرابلسى إلى رفوف المكتبة الإسلامية. ويلاحظ أن شيخنا كان حنفى المذهب؛ ومذهب أبى حنيفة له أتباع قلائل فى طرابلس، وطبعاً ألّف فى مذهب النعمان منظومة أطلق عليها - المعينة - تشبه إلى حد كبير منظومة ابن عاشر فى المذهب المالكى، مذهب الغالبية العظمى فى طرابلس. وعلى ذكر هذا، والحديث دوماً عندى متشعب متفرع، يظهر لى أن البهلول هذا ينحدر من سلالة العلامة أحمد البهلول الانبارى الذى ولى قضاء بغداد عشرين عاماً وكان من أعيان القرن الرابع الهجرى، وقد تكلم عن الأنبارى أبو بكر الخطيب فقال: «كان عظيم القدر تام المروءة يذهب بمذهب أهل العراق فى القياس وأبى حنيفة».

ومنذ عامين أعطانى أحد الناس مقطوعة فى التصوف وزعم أنها لأحمد

البهلول، وهكذا كتب عليها وضعت على أنها لصاحبنا البهلول، وهى بلهجة طرابلسية فيها حكم ومواعظ:

نا مالى قياس أيش عليا منى
اقلق من رزقى ليش والخالق يرزقنى
قالوا لى بعض الناس أتعقل يا بهلول
واترك عنك الوسواس واعلم ما أنت تقول
وابنى الحيط على الأساس إن رباطك محلول
.... الخ الخ

ولكنى بعد بحث وفحص أيقنت أنها ليست لأحمد البهلول، صاحب الديوان المشهور ـ سر باب الوصول فى مدح الرسول ـ لأن صاحب الحكم والمواعظ ـ يسمى يحيى الشرفى البهلول ولم أجد هذا الإسم، فى سلسلة سيدى أحمد البهلول. ولكن فهمت أن المنظومة تدل على أن صاحبنا متصوف طرابلسى، وما أكثر بها ليل طرابلس، ويشبه كلامه كلام ابن عروس.

وفى طرابلس أوجد البهلول حركة علمية ونشاطاً أدبياً بدروسه التى كان يلقيها فى مساجد طرابلس، ولم تكن فارغة مثل هذه الأيام التى نسى فيها علماؤنا رسالة العلم ورسالة الدين.

فقد درس البهلول «الشفا» للقاضى عياض، وهذا من أهم المراجع فى شمائل رسولنا محمد، صلوات الله عليه، ونبع من منابع سيرته.

ودرس صحيح البخارى وكان يحفظه مشافهة، وناهيك برجل يحفظ البخارى ويدرس الشمائل ويقرض الشعر ويدرس التفسير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويؤدى واجب العلم فى الذود عن الحق ومحاربة الأباطيل ومحاربة الجهل.

وليس ما أقوله نوعاً من البسط فى الترجمة والإطناب بل إليك ما يدل على هذا من القصيدة التى مدحه بها أحد تلامذته:

يــا عــالمــاً بتقــاريــر «الـشفــاء» شـفــا
أمــراض قلب الــذى فى درســه حضــرا
وصــح لمــا روى عــنــه مــشــافــهــة
صحيــح متن «الـبخــارى» وارتــوى دررا
. . . . الخ الخ

وعندما كان حفيده مهاجراً فى مصر طالباً فى الأزهر حرّكه الشوق وهزّه الحنين إلى بلاده طرابلس فنظم قصائد وصلتنا منها قصيدة مشهورة حفظناها ونحن تلاميذ صغار بالمهجر وأشار فى آخرها إلى جده البهلول:

طــرابــلس الــغــرا تــرى لى عــودة
إليـك، وهل يـدنو الـذى كـان قـد ذهب
سقى الجــانب الغــربىَّ مــنــك سحــابــة
ولا زال فـيــك مـن ريــاح الـصـبــايـب
. . . . الخ الخ

أريد أن أتحدث عن البهلول الشاعر الطرابلسى كثيراً وأشبع فيه الكلام والبحث، ولكن ـ وويلى من لكن ـ يصعب علىَّ هذا لقلة المراجع وعدم وجود المصادر، وليس لدى الآن من نتائج فكره سوى الـديوان الـذى طبع فى إستانبول وفى القاهرة بمطبعة الخشاب، متوسطة، وطبعة محمد صبيح رديئة، شأن كل الكتب التى قام بطبعها هذا الرجل، أحسن الله إليه: فطبعته كلها أغاليط.

وطبع ثلاث طبعات أو أربع هذا الديوان المبارك، الـذى يقرأه أبنـاء طرابلس فى هذه الأيام المباركة فكنت أحفظه مع أختى الصغيرة، رحمها الله؛ ولا شك أن ديوان الشاعر هو أعظم مرجع له، فيه يظهر شعوره وفيه تحس أحاسيسه؛ كما أن نفسية الكاتب تظهر من خلال سطوره وإدراكات الفنان من تموجات نغماته وألحانه، والرسام من ألـوانـه ولـوحـاتـه، والعـالم من أبحاثه ودراساته، كذلك شيخنا أحمد البهلول قلَّت مراجعه وتعذرت مصادره. . نسيه قوم وجهله أقوام، واقرأ ولا تعجل، فإن العجلة هنا تفسد الإدراك:

عساكم تجودوا أو ترقوا لحالتى
وما كان بعدى عندكم من إرادتى
أكابد أحزانى وفرط صبابتى
ولم ترحموا ذلى وطول بكائى

الليل والنجوم وحرقة الفؤاد المكلوم ودموع العين والذل والاسار والشوق والانتظار، يصوره البهلول:

نزحت دموعى من بكاى عليكم
ولم تنظروا حالى وذلى لديكم
وأسر فؤادى بالهوى فى يديكم
أراعى نجوم الليل شوقاً إليكم
وذاك لرغبتى فى الهوى وشقائى

والبهلول يكثر من ذكر المنعرجات وسقط اللوى والبرق وحادى السرى، وغير ذلك من الأخيلة والأمكنة والظلال والرسوم، التى وردت فى الشعر العربى القديم حتى أصبحت معالم على الحب والشوق. واسمع معى إلى الصوفى العاشق يناجى حادى البيد، حادى القافلة... وهى صرخة حب صادق:

سألتك بالرحمن يا حادى السرى
أعد لأحبابى حديثى وما جرى
أراعى نجوم الليل فيكم مبكراً
بروق الحمى لاحت لعينى وقد سرى

* * *

ولله كم من ليلة قد سهرتها
ونيرانهم ليلاً بعينى نظرتها
بدت عندما جن الظلام رأيتها
لموع سيوف جُرّدت لحروب

وديوان البهلول مرتب على حسب حروف المعجم، وفيه مولد الرسول ومعجزاته وشمائله. وكل هذا بأسلوب سهل وشعر رقيق لا يتذوقه إلا ذو عاطفة ووجدان.

وقد درست شعر البهلول؛ وفى فترة من حياتى همت به ولاحظت من هنا ملاحظة: هى أن الشيخ الصوفى كان محباً وقد أذاقه الغرام ألواناً من السقام؛ ويظهر أن محبوبة الشيخ قد كانت مناط وحيه وينبوع شعره ومطرقة فجرت بيانه؛ ولست أدرى، أهى من مصر القاهرة أم من هنا فى طرابلس!؟ تلك التى هزت مشاعر الشيخ فأحبها ثم تغير حبه وتبدح وتطور، وأصبح حبه للنبى وشعره مدحاً له بعد أن كان يتغزل فى محبوبته. ومع الأسف ضاع شعره الغزلى الأول كما ضاعت محبوبته الأولى فى خضم الزمان العاتى.

ولا غرابة فى هذه النقلة وذلك التطور فى الحب والغرام، وأستأذنا عمر ابن الفارض ـ سلطان العاشقين وإمام المادحين ـ قالوا إن غزله وغرامه كان لمحبوبة حسناء ثم انقلب زهداً وتصوفاً... إلا هياتٍ وقدسيات؛ وأيضاً المتصوف محى الدين بن عربى أحب فتاة فى مكة وأثرت فى طبعه.. والشاعر الشيخ البهلول أيضاً. والدليل على هذا قوله فى ديوانه: وأرجو أن تقرأ بدقة، فالعجلة لا تثمر هنا:

تمكن فى الأحشاء كلَّ التمكن
وصافيته فى الود من كل ممكن...

ولكنه رغم هذا التمكن وذلك الصفاء والود والوفاء فالمحبوب غالى فى صده وتعالى فى دلاله، فقال البهلول:

ولما رأيت العمر فى الصدِّ قد فنى
تغزلت فى شعرى به غير أننى
رجعت إلى مدح النبىِّ بهمتى

ويظهر تأثر البهلول فى كثير من المواطن بشاعر الإلٓهيات والقدسيات عمر ابن الفارض على تباعد الزمان والمكان؛ فقد كان ابن الفارض مصرياً والبهلول

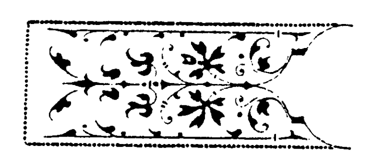
طرابلسياً، وكان ابن الفارض فى القرن السادس والبهلول فى القرن الثانى عشر، أما الموازنة والمقارنة بين عمر بن الفارض وأحمد البهلول فعندى لها بحث آخر سأقدمه فى فرصة أخرى، إن شاء الله.

* *





ابن غَلبون



أيها الغطاريف الميامين ، أحاطكم الله بسلامه ، شاكراً حضوركم هنا وتفضلكم بالاستماع إلىَّ ؛ ثم شاكراً لمدرسة طرابلس دعوتها لى للمساهمة فى هذا الموسم الثقافى . وليس ما أقدمه هنا محاضرة بالمعنى المعـروف والمنهج المألوف ، إنما هو أشبه ما يكون بالمسامرة دون المحاضرة . ثم ليس لدينا من المراجع ما يكفى لإعطاء ترجمة ضافية كافية . وهى أشبه ما تكون بالمسامرة المرتجلة وعذراً فى هذا فهو طبعى ، كما قال أحد الزملاء مداعباً بالأمس . . يظهر أن أمك ولدتك ارتجالاً .

سأتحدث فى هذه الأمسية عن رجلين كان لهما أكبر الأثر فى حفظ تاريخ طرابلس وجمع أخبارها فى عصورها الإسلامية العـربية . وهمـا ابن غلبون والنائب الأول صاحب كتاب (التذكار فى تاريخ طرابلس الغرب) ، الأول شيخ وعالم أزهرى ، والثانى أديب ومثقف ومن وجهاء البلاد .

أبو عبدالله بن محمد بن خليل غلبون المصراتى ؛ وكم أخرجت مصراتة

من علماءِ وأدباء ، مثل ابن غالب المصراتى والشاعر ابن شتوان وآخرين . . ولا زالت أسرة ابن غلبون تمتد فروعها وغصونها فى مصراتة وأنحاء ليبيا وعلى شاطىء الإسكندرية . كان عالماً من علماء زمنه وأستاذاً صريحاً ، فيه جرأة المؤمن وغضبة الحر الكريم ، وله فى ميادين الإصلاح الاجتماعى جولات موفقة وخطوات مباركة . . وليس هذا ضرباً من الأسلوب الانشائى بل سنبرهن عليه بذكر بعض الحقائق وسرد جملة من الوقائع . .

أحب ابن غلبون التاريخ ـ وخاصة تاريخ طرابلس ـ حباً جماً تملَّك عليه حواسه ؛ فأخذ يجمع ويضم ، ويبحث عن الجذاذات والقصاصات والمخطوطات ، ويفصِّل ويبوب ، ويلم أشتات الأخبار عن المعالم والأعلام وينقل ويراجع ويهمّش ويعلّق ، حتى كان من نتيجة هذا كتابه الذى يعد عمدة ومرجعاً فى تاريخ هذا البلد فى عصوره الإسلامية العربية . . ويظهر لى أن ابن غلبون ينحدر من الأندلس فإننا نجد فى هذا اللقب صياغة أندلسية وعلامة التعظيم والتفخيم كانت عند أهل الأندلس (ون) تضاف إلى آخر اللقب ، وأخذها الأندلسيون عن لغة الأسبان ، لهذا نجد كثيراً من ألقاب الأدباء والشعراء والعلماء الأندلسيين على هذه الصياغة وبذلك الشكل زيدون . . حمدون . . سرحون . . سحنون . . وأيضاً غلبون ، ولا نجده فى المشرق . . وهذا من خصائص أهل الأندلس .

وقد امتاز ابن غلبون بصراحة فى الرأى وجرأة فى الفكر وغضبة لله عندما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . . عاصر أحمد القره مانلى مؤسس الأسرة القره مانلية ، وحاكم طرابلس فى زمنه. وكان أثيراً عنده، مقرباً إليه . . يسمع الحاكم لرأيه، ويقبل استشارته ويكرم وفادته ، ويحسن منزلته ويغدق عليه من إكرامه . . وكان أيضاً ابن غلبون سفيراً وشفيعاً بين العلماء وطلاب العلم وبين (أحمد القرة مانلى) . . يعرض مطالبهم ويدفع المظالم عنهم ؛ وعندما تكاثرت الضرائب على أهل العلم كان وسيطاً لإسقاطها عنهم وإزالتها عن كاهلهم . .

ومن مآثره المذكورة المشهورة أن الخمر كانت تقطر فى بلدة مصراته

وتستخرج من النخيل كما هى العادة فى كثير من أنحاء البلاد ، وهى عادة تضر بالناس والزرع . وغضب ابن غلبون من تقطير الخمور وإفساد العقول والنخيل فما اكتفى بالنهى الشفهى والأمر اللفظى ، بل تلمس كيسه ودفع من جيبه ثمن ما استقطر من النخيل كى يمنع هذه العادة وأمر برد المال الذى أخذه المقطرون ودفعه من خالص ماله . ولم يكتف بهذا بل ركب فرسه وتوجه نحو الحاكم فى قصره بطرابلس وطلب منه إصدار أمر وصياغة قانون بمنع تقطير الخمور من النخل (اللاقبى).

وكان يكره البدع ويحارب المستنكرات ويطرد عن الشريعة كل الشوائب والعوائب التى تشوه جوهر الشرع الحنيف. . وكان بينه وبين المبتدعة وأهل الخرافات ، جولات وصولات . . ومحاجات ومناظرات أفحمهم وألجمهم . ومن مناظراته ما دار بينه وبين الشيخ النعاس فى تاجوراء . وقد سجل المناظرة فى كتابه . . .

تلقّى إبن غلبون دراسته فى الجامع الأزهر ، ودرس ـ كما يقولون ـ علوم العقل والنقل ، ومكث فى رحاب الأزهر سنين طوالاً ؛ وعاصر الشيخ عبدالرزاق البشبيشى وأبى يحيى السوسى . وبعد أن أتم الدراسة الأزهرية وصقلت ملكته وتغزرت مادته عاد متوجهاً إلى بلده ومسقط رأسه (مصراتة) ؛ وكانت عودته كما أشار فى كتابه سنة 1113 هـ 1701 م .

وفى مصراتة كانت ولا تزال توجد مدارس وزوايا دينية مثل مدرسة الشيخ الفقيه هدية المغرب لطرابلس أحمد زروق ، صاحب المؤلفات المعتمدة فى مذهب مالك ، ومدرسة عبدالله المحجوب . وكان الأساتدة والطلاب يفدون من أنحاء البلاد نحو هذه المدارس الدينية ، كما أن علماء المغرب فى رحيلهم إلى الحج وغيره عندما يحط بهم الرحال فى البلد يدرسون ويتناقشون ويأخذون ويعطون . وكانت حركة الدراسة العلمية لها سوق رائجة وعملة سائرة . وكان لابن غلبون حلقة مثل أفذاذ ذلك العصر وطلاب معجبون . وهو وإن كان أندلسياً ـ كما يظهر لنا ـ إلا أنه عربى قح ، كما أشار ابن خلدون

عند الكلام على (آل سليم) . . موطنهم مصراتة ورئاستهم فى أولاد مرزوق فى المئة الثامنة لابن غلبون .

وكما ألَّف فى التاريخ كتابه «التذكار» فقد ألّف فى الميراث والفرائض رسالة شرح بها (الرحبية) ، ولا تزال مخطوطة إلى الآن ، ولعل له رسائل أخرى مندثرة ضائعة .

ويمتاز أيضاً بأنه نقّادة ، له صراحة ظاهرة فى نقده وحرية فى بسط فكره ؛ ويدلنا على هذا موقفه مع علماء من زملائه ؛ فعندما ألف الشيخ على بن عبدالصادق كتابه فى (الفتاوى) سماه التذييل . . تصفح ابن غلبون الكتاب وعلق عليه بصراحة وقال : «إنّه زعم أنه ذيّل به المعيار ، وجمع فيه الغث والسمين شيئاً لم يسبق به ». وكان يلوم صاحب (الفتاوى) على اعتماده فى مؤلفاته على أقوال العامة ، والنقل بدون تحر ؛ وكان دفاع على ابن عبدالصادق عن نفسه إزاء نقد ابن غلبون: . . أنه كان يريد حفظ مسائل العلم خوف الضياع . وهو جواب لم يرض ابن غلبون ، الناقد العالم .

•

وفى إحدى ليالى سنة 1139 هـ - 1726 م كان متوجهاً إلى طرابلس فنزل فى تاجوراء ؛ وفى مدرستها الدينية بعد العشاء أطبق عليه الشيخ عبدالسلام بن عثمان التاجورى بمناقشات حادة ومجادلات عنيفة . فقد كان ابن غلبون يستنكر بعض تصرفات التاجورى ويراها منافية للشريعة وأصول الدين والكتاب والسنّة . وكانت مناورة مقصودة ومأزقاً دبَّره التاجورى وتخلص منه ابن غلبون بحكمة العالم واتزان المتدبر الحكيم . ولكنه لم يستسلم بل دافع عن آرائه وفند آراء الغير . هذه الحادثة تعطينا صورة من حياة ابن غلبون ، وما كان يلاقيه من تعنت وجدال عنيف من أهل زمنه ، ومع هذا ما كان يلين إلا للحق ، ولا تكون الصداقة حائلاً بينه وبين النقد الصريح والرأى الحر كما صنع مع صديقه ابن عبدالصادق الذى نقد كتابه سنة 1138 هـ - 1725 م ، كما سبقت الإشارة إليه . وشأن العلماء يترنمون ببعض الشعر فله قصائد وصلت إلينا ، منها أبيات مدح بها أحمد القره مانلى . وإن كانت قصائده لا

تصل إلى درجة الشعر الجيد فما كان شاعراً أخلص للشعر وإنما كان ينظم أحياناً على طريقة زمنه وبأسلوب عصره . . .

هــذا ابن غلبــون مــن عــودتــه كــرمــا
لــدفــع حــادثــة قــد جــاء يــرجــاكــا
ابــن غــلبــون قــد أتى مــن بــعــيــد
زائــراً حــســن ظــن قــد دعــاه

وقد اعتمد ابن غلبون فى تاريخه على مصادر متنوعة :

اعتمد على «البكرى» و «التجانى» وابن «بطوطة» من الرحّالين ، ونزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للإدريسى ، الجغرافى ، و «النيسانى» فى مياومته ، وأيضاً ابن عبدالحكيم وابن الأثير من المؤرخين ، وكتاب آخر أشار إليه فى ثنايا كتابه ودثر مع الأيام ، ذلك هو تاريخ البهلول ابن حسين ابن أحمد ، وأشار ابن غلبون إلى أنه نقل عن خط المؤلف ، هذا أثر من الآثار الضائعة ، وكم من أثر أدبى ضاع فى هذا البلد الذى تكاثرت وتضافرت عليه الأحداث والحوادث .

وعلاوة على ما أشار إليه من المراجع فقد اعتمد أيضاً على أخبار المشافهة والملاحظات العامة ومعلومات ووقائع وحوادث كانت تجرى فى عصره أثبتها وسطرها . . ونستطيع أن نؤكد أن كتاب ابن غلبون أول كتاب يؤلف فى تاريخ طرابلس فى عصورها الإسلامية باللغة العربية ، أعنى سفراً خاصاً مستقلاً بهذا البلد ، إذا استثنينا كتاب البهلول الذى لم يكن على ما نرى كتاباً خاصاً بتاريخ طرابلس ، والذى لم يعثر عليه إلى الآن .

وقد تناول ابن غلبون فيه تاريخ طرابلس فى عصورها الإسلامية من أول الفتح الإسلامى من يوم أن ركز عمرو بن العاص هنا راية محمد ابن عبدالله ، إلى زمن أحمد القره مانلى ، وحتى سنة 1150 هـ ـ 1737 م . وفى هذه السنة تقريباً انتهى المؤلف من كتابه . وطبعاً ـ تاريخه تناول التطورات والتقلبات والأحوال بصورة موجزة مختصرة ، ولكنه اختصار وإيجاز يفيد ولا

يُخلُّ دائماً . . إنه أعطانا الخيوط والفتائل وعلى الشباب والمهتمين بتاريخ بلادهم أن يكملوا الثوب نسجاً . .

وقد كان فى تاريخه سهلاً فى السرد واضحاً فى العرض ، وقد تلمس فيه روح الدارس العالم . فهو يغربل ويصفى ويسبك ؛ والتاريخ كصناعة وفن يحتاج إلى غربلة ومقارنة وسبك ؛ وإذا خلا من الروح العلمية كان ضرباً من النقل الجاف والسرد الممل ، ولكن هذا لا يمنع من أن نشير إلى أنه قد ينقل بعض الخرافات ويسطر بعض الأساطير ، مثل قصة دق الياقوت على الطعام وكون طرابلس خالية من «السكين» عندما غزاها الإسبان. إنها قصة التاجر الذى استضاف بعض البحارة الإسبان ،ثم كان سبب غزو البلاد . خرافة نقلها ابن غلبون ثم أخذها منه فيما بعد «النائب» المؤرخ وصدقها كثيرون . ومرجع هذه الخرافة إلى المرحوم العياشى فى رحلته ، فمنها أخذها المؤرخون مع أنها ظاهرة فى وضعها ، وقلّما يخلو التاريخ من خرافات وأساطير .

وقد ترجم «ابن غلبون» لعلماء بلاده وأدبائها ، وبلغت الترجمات حوالى 33 عَلَماً ، ولكنها مقتطفات وأسطر مقتضبة معدودة تفيد الدارس ولكنها لا تشفى غلة الصادى ، وليته أطنب فى هذه الناحية الهامة التى فقدنا جوانب كثيرة منها . . وهذه الصفحات التى سطرها يراعه تدل على سعة اطلاع وغزارة مادة ، ولكنه أحياناً يستطرد إلى البحوث اللغوية والصرفية وفلسفة الألفاظ ، وقد يجنح به الاستطراد إلى ذكر حوادث من التاريخ لا صلة لها بتاريخ طرابلس . ومرجع هذا إلى أن المؤلف كان شارحاً لقصيدة سيأتى ذكرها ، وشراح القصائد من طبعهم الاستطراد والإفاضة فى شتى أنواع الثقافة الإسلامية ، فهو شارح عالم لغوى مؤرخ ، وصنع مثل ما صنع صاحب سرح العيون على رسالة ابن زيدون ، شرح وتاريخ ولغة وأدب، واستطراد أحياناً .

وقد ظل كتاب ابن غلبون حقباً من الزمن تائهاً مغموراً ومطموراً ! ورحل إلى هنا وهناك وتناقلته أيد عديدة ، بين شرقية وغربية ، حتى وصل به المقام وألقى عصا التسيار ـ إن صح هنا هذا التعبير ـ إلى باريس ، فى أحد مخازنها ؛ وكان المرحوم العلاّمة أحمد تيمور ، شغوفاً بالنوادر والمخطوطات

الإسلامية ، وشاهد هـذا الكتاب الغـريب فى مخزن بـاريس فأخـذ صورة فوتوغرافية له سنة 1344 هـ . وكان مكتوباً بخط مغربى ونقل الصورة إلى مكتبته بالقاهرة . . حتى طبعت سنة 1349 هـ . فى القاهرة . . . ولولا نسخة باريس لما طبع هذا الكتاب ولضاع هذا الأثر . . وسبحان الله . . . بضاعتنا ردت إلينا . . وعاد الغريب إلى أهله . . وكم من ضائع فى مخازن أوروبا وغيرها .

ولأن ابن غلبون كان فى عصره ازدهارٌ للبحرية الطرابلسية وكان للبلاد أسطول وطنى فإنه يختم كتابه بفصل عن إدارة الحكم وما يلزم للحاكم . ثم بفصـل عن الجهاد والـرباط والمحـافظة عـلى الثغور والشـواطىء . وهذان الفصلان لا صلة لهما بالتاريخ أو على الأقل بتاريخ البلاد ، فهما فصلان سرد فيهما أحاديث وآيات وآداب الشريعة فى هذا الميدان ، ولكن لهما كل صلة بالشعور الوطنى والدفاع المقدس . ولم يطبع هذان الفصلان وخرج كتاب ابن غلبون مقصوص الذيل ، وكان بودنا أن يطبع كما هو «طبق الأصل»، وهذا ما يجب إزاء المخطوطات ، وكل أثر علمى قديم يجب أن يخرج للناس كما وضعه المؤلف وكما حبّره صاحبه .

ألَّف ابن غلبون كتابه «التذكار . . فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار» وبناه على قصيدة وجعله شرحاً لها . . فما قصـة القصيدة ؟ ومن ناظمها ؟ إنه الشاعر الأديب «أحمد بن عبدالدائم الأنصارى». ومع الأسف لم نعثر على ترجمة وافية له . وهو من أبناء طرابلس ، وقد كان غيوراً عـلى بلده ، وقد كان سبب إنشاء القصيدة أن «العبدرى» مرَّ بطرابلس واجتمع مع قاضى البلد محمد بن عبدالسيد ، واستمع إلى بعض دروسه . وشأن علماء ذلك الزمن ، كانوا ينتهزون مثل هـذه الفرص من الـرحلات والـزيارات والمقابلات فيتناقشون ويتباحثون . . ولم يكن هناك من عوامل حديثة تشغلهم وتلهيهم فلا صحافة ولا إذاعة ولا أخبار سياسية يتلهون بها . . بل كل همهم كان منصرفاً للنقاش والجدال والنقل والأخذ والسرد والإجازة . هذه عوامل كانت تؤثر فى الحركة الفكـرية وتعـطينا صـورة عن حياة العلماء فى ذلـك

الزمن . . حب للعلم واستغراق فى مواده . . وغوص على الغريب والنادر . . ووجد العبدرى فرصة يتناقش فيها مع قاضى طرابلس ، محمد بن عبدالسيد ، ولكن النقاش صاحبه حدة وشدة ، ولم يوافق العبدرى على آراء قاضى طرابلس بل بلغ جو النقاش حد التوتر بين الاثنين وغضب العبدرى ووصف القاضى بأنه «ضيق الخلق . . قصير النظر . . صاحب شكاسة . . ولا رواية له » . . بل لم يكتف العبدرى بهذا ـ سامحه الله ـ . . فوصف طرابلس الغرب بأقبح النعوت . . والأوصاف . . وذمّها وشنع عليها ونقص من قدرها . . فانبرى له الشاعر الأديب عبدالدائم الأنصارى ، بقصيدة طويلة تبلغ 29 بيتاً ذكر فيها محاسن طرابلس وفضائلها وبعضاً من أدبائها وعلمائها ومنزلتها فى التاريخ الإسلامى . . وكان فى شعره دفاع حار يفيض من قلب مواطن غيور . ومن أبياتها :

أرى زمناً قد جاء يقتنص المها
بلا جارح والأسد فى فلواتها

رأى القيض مبيضاً بمزبلة الحما
فقال كفانى أنه من صفاتها

طرابلس لا تقبل الذم إنها
لها حسنات جاوزت سيئاتها

ويمضى ابن عبدالدائم معدداً مآثر قومه وسارداً فضائل بلاده ، مدافعاً فى حرارة وإخلاص :

إذا أمها من قد نأته بلاده
وأوحشته ذو أمرها فى حماتها

تطامن عن نفس ومال وعشرة
ويضحى بعز ما ثوى بجهاتها

بها فضلاء ما الفضيل يفوقهم
فوارس أنجاد وهم من حماتها

وكان الشاعر معاصراً لأحمد باشا القره مانلى ، وقد أثنى عليه ومدحه فى آخر القصيدة . وهناك مسألة جديرة بالتساؤل أو البحث . . هل العبدرى الذى ذم طرابلس وردَّ عليه ابن عبدالدائم هو العبدرى الرَّحالة المغربى ؟ . . هذا ما يذهب إليه كثيرون وأشار إليه طابع كتاب ابن غلبون ، مع أن هذا خطأ ، وهى غلطة تاريخية : فإن العبدرى المغربى كانت رحلته سنة 688 هـ . بينما كان العبدرى الذى ناقش عبدالسيد القاضى ، والذى ردَّ عليه الشاعر متأخراً جداً عن التاريخ . ثم إن الشاعر يرد على معاصر ويوجه الخطاب إلى موجود فى زمنه وكان سنة 1140 هـ . وما حواليها . وقد يقول قائل : يجوز أن يكون الشاعر الطرابلسى ردَّ على العبدرى بعد قرون ، وهذا جائز فى لغة الأدب وأسلوب الشعر ؛ ولكن ماذا تقولون فى دليل آخر يؤكد أن العبدرى المردود عليه ليس هو العبدرى الرحالة المغربى ؟؟ بدليل أن عبدالدائم يوجه الخطاب إلى رجل شرقى ، جاء من الشرق ، لا العبدرى المشهور وهو مغربى وأسمعه يقول :

فجـاءتـك يـا شـرقى تسعى فـراعهـا
فـكن منصـفـاً ثم اجـن مـن ثـمـراتهـا

فيستخلص من هذا أن العبدرى الذى تصدى له الشاعر غير العبدرى المغربى . وما أكثر العبادرة فى ثنايا التواريخ والكتب . .

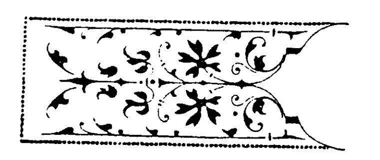
وأيضاً ابن عبدالدائم فى أبيات أخرى يستنجد من الفرنسيين ، ولم يكن هذا فى عصر العبدرى المغربى .

أيها الغطاريف الميامين . . من الملاحظ المستغرب أن «النائب» المؤرخ لم يشر من بعيد ولا من قريب ، لا بالتلميح ولا بتصريح ، إلى كتاب ابن غلبون مع أنه بلا شك معتدّ به عمدة ، ومصدر محترم ، منه أخذ واقتبس . . لماذا كان هذا الإهمال وذلك الإغفال ؟ . . أإغفاله كان عفواً أم إهمالاً مقصوداً متعمداً ؟ وهنا تتكاثر الاحتمالات . . لعل النائب كان فى نفسه شىء نحو ابن غلبون مع أنه ليس معاصراً له ، بل إن ابن غلبون متقدم ، وما أكثر حسد

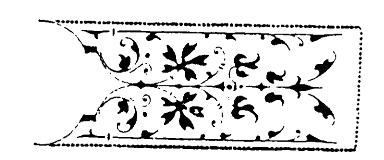
العلماء وتنافس الأدباء ، ولو على بعد الأجيال والسنين . . وقد قالوا مثلاً فيه من الصحة نصيب ومن الواقع سهم كبير . . «صاحب صنعتك عدوك». وما أكثر حزازات أهل الفكر وطيهم لما يجب أن ينشر . . ونشرهم أحياناً لما يجب أن يطوى . وأيضاً لعله أشار فى كتابه «شيم البارق» إلى ترجمة ابن غلبون . . . ولعله لم يقرأ الكتاب وهذا احتمال بعيد غريب ، لأن أثر الاعتماد على ابن غلبون واضح فى كتابة النائب . . ثم إن مكتبة النائب كانت زاخرة بالمخطوطات عامرة بالنوادر ، وخاصة فيما يتعلق بفن التاريخ ، وخاصة أيضاً فيما له صلة بتاريخ طرابلس الغرب . أو لعل الرقابة مدت نصلها فاستأصلت طرفاً فيه ترجمة لابن غلبون ؟ ومن المعلوم أن الرقابة صنعت غير جميل وجزت غير قليل من كتاب النائب . .؟ ولعل الأيام تكشف عن سر هذا الصمت وتزيح الستار عن هذا السبب ، مع أن النائب عندما تكلم عن برقة وإجدابية أشار إلى «عبدالله بن غلبون» وروى خبراً منقولاً عنه . وهذه الرواية أو الخبر أثبته ابن غلبون فى كتابه مما يدل على اطلاع النائب عليه . . ما السبب؟ الحق أن النائب قد غمط حق ابن غلبون عندما لم ينقل لنا ترجمة عن حياته مع أنه ترجم لمن هم أقل منه مقاماً وأدنى منزلة ومعرفة . وهنا أتساءل . . ولا أجيب . . وأشك ولا أجزم . . .

فضل ابن غلبون كثير فى تاريخه ومن فضائله إثباته قصيدة ابن عبدالدائم ، فلولا نقلها وشرحها والاهتمام بها لضاعت كما ضاع شعر أبى إسحاق الوَدَّانى ، الشاعر الطرابلسى الذى عاش عمره بين طرابلس وصقلية والقائل :

من يشترى منى النهار بليلة
لا فرق بين نجومها وصحابى







النائب

أيها الغطاريف الميامين . وأيضاً ليس لدينا ما نقدمه عن النائب ترجمة مستكملة ودراسة مستقصاة ؛ فليس لدينا ما يكفى من الوقت وأيضاً من المراجع ما يعطينا الصورة الكاملة عن هذه الشخصية الطرابلسية ، فقد كاد يندثر مع المندثرين ويطويه الزمن مع المغمورين . ولم يبق لدينا ما يشير إليه ويدلنا عليه سوى شيئين : المكتبة القيمة ؛ والكتاب الذى أرخ به طرابلس الغرب . . المسمى بالمنهل العذب . .

ومكتبة أحمد النائب كانت من أكبر المكتبات فى شمال إفريقية ، وكانت تضاهى مكتبة الأحمدين . . أحمد تيمور . . وأحمد زكى ، شيخ العروبة فى مصر، ومكتبة الكتانى فى مراكش ، فيها كل ثمين قيم . . ومرجع مفيد ومصادر طيبة . . ومخطوطات نادرة . . ورقاع شرقية وغربية وأندلسية . ولكنها مع الأسف . . لعبت بها حوادث الزمان فبعثرت وبيعت بعد وفاته فى المزاد العلنى «بالهيل والهليمان» بالكوم والأقة ، وضاعت كنوز أندلسية وتراث مغربى ومؤلفات طرابلسية وقصائد لشعراء مواطنين وأمهات من الكتب . . وما بقى

منها الآن إلا النزر اليسير ، ولكنه مع ضآلته وقلته يدل على قيمة المكتبة ، وبالتالى على عقلية صاحبها ، ويعطينا جانباً من حياة النائب.

وتحتل المكتبة أو البقية اليسيرة من المكتبة ركناً فى مكتبة الأوقاف الطرابلسية ؛ ونرجو من صديقنا الشاعر أحمد قنابه الاهتمام بها ونفض الغبار عن رفوفها وترتيبها ترتيباً لائقاً . وتذكرنا هذه المكتبة الصامتة بمكتبات مهملة مبعثرة: كمكتبة جامع الشيخ بالإسكندرية ، ومكتبة رواق المغاربة بالأزهر .

أيها الغطاريف الميامين.. شرع أحمد النائب فى جمع تاريخه بطرابلس وهو شاب شغوف بالأدب ، نهمة فى الاطلاع . وكتب بعضاً منه فى استامبول وطبعه برخصة من نظارة المعارف التركية فى مطبعة جمال أفندى منذ ما يزيد عن 57 سنة ، ورجع إلى مراجع كثيرة ومصادر عديدة ؛ ويدلنا الكتاب على أن المؤلف كان مولعاً بتاريخ بلاده طرابلس ، يبحث عن المخطوطات وينقب عن النادرات ويعكف على دراسة الرحلات وكتب الجغرافيا وأخبار الغزوات والفتوحات . . يأخذ من هنا خبراً . . ويقتطع من هنا قطعة . . ومن هناك حديثاً . . ثم يضم ذلك ويجمعه ليعطينا صورة عن تاريخ طرابلس الغرب . ويكوّن من هاتيك القطرات المختلفة منهلاً عذباً .

وطبعاً كان أكثر اعتماده على الرحلات ، وهى خير مرجع ومعين للمؤرخ ؛ لأنها صور من المشاهدات وأحاديث من الواقع . والرحّالون دائماً مرجع خصب وإن كان كثير منهم يشطح ويبالغ ، وأحياناً يهرف ويسرف ويسف ، مثل التجانى والعياشى فى بعض الأخبار والحكايات . . ومن أكثر الاعتمادات كانت رحلة التجانى سنة 706 هـ . وهى أوفى مرجع عن طرابلس فى عصرها ذاك .

وأحسن المراجع التى اعتمد عليها النائب فى تاريخه رحلة التجانى ومكث فى طرابلس ما يقرب من عامين ولم يوافقه التوفيق للحج ، وكأنه المعنيُّ بقول أبى بكر ابن بلال :

رسا فرسى فى سيره ولو أنه
خلا من الأوزار سار ولم يرس
سعى سعى طمّاح لأبعد غاية
فكانت له دار المقام طرابلس

وهى أوفى المراجع عن طرابلس المسلمة وعلمائها وآثارها ، وما زالت مخطوطة نادرة وقد بلغنى أنها طبعت فى تونس طبعة علمية بمناسبة ذكرى تاريخية ، ثم صادرتها السلطات هناك . والعياشى قد طبعت رحلته فى الجزائر بخط مغربى .

وأخذ أيضاً عن «العبدرى» وطبعاً يقصد العبدرى الرحالة المغربى الذى لم يذمّ طرابلس . ويلاحظ هنا أن النائب لم يشر أيضاً إلى ذمِّ العبدرى الشرقى لأهل طرابلس ، وهذا يؤكد لنا أن العبدرى الذى ذمّ طرابلس وردَّ عليه ابن عبدالدائم غير العبدرى الرحالة المغربى الذى اعتمد عليه النائب فى تاريخه . . واعتمد أيضاً على «العياشى» وخاصة فى أخبار المتصوفة والمتدروشة ، ورحلة «البكرى» ثم الرحلة «الظافرية» للشيخ ظافر المدنى ، ولا زالت رحلته أسفاراً عدة مخطوطة فى «استامبول». ومن المراجع التى يشير إليها، كتاب «معالم الأيمان، فى أخبار تونس والقيروان» لأبى يزيد الدباغ وقد طبع فى تونس ، وأيضاً «خلاصة الأثر» و «الاستقصا ، فى أخبار المغرب الأقصى».

والدارس لكتاب النائب يدهشه كثرة اطلاعه فى هذه المادة وغزارة معلوماته فى معرفة القبائل ، وهذا فن جليل كانت له عند العرب مكانة وعلماء نسّابون ومؤلفات ، وكان له ذاتية وخاصية . ورغم اعتماد فن «الأنساب» على التاريخ إلّا أنه ذو طابع وخصائص يقوم بها مستقلاً كفن وعلم ، وألفت فيه الرسائل الطوال والبحوث العميقة والمعاجم المطنبة المدعمة . وقد برهن النائب على دراسة مستفيضة للأنساب والقبائل عند كلامه على دخول العرب من بنى «هلال وسُليم» أرض إفريقية ، فذكر أنساب هؤلاء من عهد «إسماعيل» وعهد ربيعة ومضر . . وذكر بطون «عوف» «ذياب» وزعب حتى وصل بنا إلى «الأصابعة» و «النوائل» و «المحاميد» و «الجوارى» و «السوالم» وأولاد هؤلاء

وأولئك ، وأطال وأطنب وتشعب وأكثر . . مما يدل على عمق معرفته بأنساب قطر طرابلس وما فيه من بطون وأفخاذ وقبائل وعشائر ، وقد استطاع أن يُرجع كُلاً إلى أصله وكلَّ غصن إلى منبته .

وعندما أراد النائب طبع كتابه وتقديمه للناس ذهب إلى أستاذه الشيخ «فالح الظاهرى» لينظر فيه ويقدم له بمقدمة ويعلق عليه . . وكان هذا الشيخ الجليل من أبناء الحجاز وقد أقام بطرابلس وبرقة مدة فى زمن شبابه، وعرف أخبار البلاد الليبية وأحوالها واتصل برجالها وأصبح للشيخ «فالح الظاهرى» تلامذة وأصدقاء، كما حدَّث هو نفسه بهذه العبارة اللطيفة «من جبل نفوسة . . إلى إسكندرية المحروسة».

وقد رحل هذا الشيخ إلى طرابلس من الأراضى المقدسة سنة 1271 هـ ـ 1854 م مع السيد السنوسى الكبير ، رضى الله عنه . . وقد تم التعارف مع السيد السنوسى الكبير فى المدينة المنورة سنة 1268 هـ ـ 1851 م فأعجب به السيد وأخذه معه إلى ليبيا وكان من حسنات الإمام السنوسى . . وكان أستاذاً لكثير من شباب البلاد ومنهم صاحبنا أحمد النائب واطلع على كتابه «المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب» وعلق عليه . . وهمش له . . وأصلحه . ويظهر من تعليقاته وتهميشاته أنه كان فى «الآستانة» منذ تقديم الكتاب للطبع سنة 1317 هـ . ـ 1899 م . ويظهر أن الشيخ وجد فى كتاب تلميذه اختلالاً فى التركيب واعتلالاً فى اللغة . . وتموجاً فى الأسلوب واضطراباً فى التعبير حتى ليكاد أن ينزل إلى العامية . وكان الكتاب فى صورته الأولى يؤذى مسامع سيبويه ويضعضع أضلع الأصمعى ونفطويه ، فأصلحه الشيخ وأدخله فى بوتقة النحو والصرف . وقد شهد بهذا المؤلف فى تقديم كتابه .

وأنت إذا طالعت كتاب النائب تلاحظ حبه للعثمانيين ودفاعه عنهم إلى درجة التملق ، مع أنه كان فى مجالسه الخاصة وفى ندواته الأدبية وفى (صالونه) ينتقد السلطنة العثمانية وسلاطين ذلك الزمن انتقاداً مرّاً . بل حدَّث معاصروه أنه كان فى الآستانة يظهر الامتعاض والانتقاد ، ومن سلاطة لسانه . عُيِّنَ فى

مجلس بلدية إسطامبول براتب قدره 25 جنيهاً ذهباً ، كما عين بعض المغضوب عليهم مثل قدارة من طرابلس وبشالة من فزان . . .

أيها الغطاريف الميامين . . يعطينا النائب فى كتابه صوراً من مراحل التاريخ التى مرت بها هذه البلاد فى العصور الإسلامية حتى ولاية (أحمد راسم)، ولكن بصورة موجزة مقتطفة ؛ وأيضاً يعطينا صورة خاطفة عن الشعراء الذين اشتاقوا إلى طرابلس الغرب عند هجرتهم ، وأثبت قصيدة لأديب أزهرىٍّ طرابلسى . . أحمد ابن حسين البهلول ، صوَّر فيها مدينة طرابلس تصويراً شيِّقاً وأفرغ شوقه ببلاغة وبيان مبدع بالنسبة لأساليب ذلك العصر . . ولولا إثباته لهذه القصيدة وتلك القطعة الأدبية لضاعت كما ضاع مع الأسف تراث كثير وشعر غير قليل وأدب فياض وأثر تائه . وقصيدة حفيد (البهلول) تبلغ 23 بيتاً وأولها :

طرابلس الغرا ترى لى عودة إليك
وهل يدنو الذى كان قد ذهب ؟

ومع أن النائب أثبت هذه القصيدة إلَّا أنه لم يثبت القصيدة الرائعة التى شرحها (ابن غلبون)، كما أنه لم يترجم لأحمد بن عبدالدائم الأنصارى . . أهمل شعره وترجمته مع أنه من سلالته ، ويعتبر الشاعر من أجداد المؤرخ بل إنه نقل عنه خبراً فى ترجمته سعيد الهبرى ص (257) .

وهناك كتاب آخر ألفه النائب (شيم البارق فى ديم المهارق) ولا تهولكم تضاريس الحروف وتلاطم السجعات فهكذا كان أسلوب عصره الذى عاش فيه . . ونقول إن (شيم البارق) من أدب الخواطر ، وفيه تراجم عديدة، وقد ضاع الكتاب فى خضم الأيام .

والنائب فى تراجمه يبدأ بالوفاة فيقول : فى سنة كذا توفى فلان ، وهذه طريقة الأقدمين ؛ ومن هذا المنهج كان وفيات الأعيان لابن خلكان . . ولا غرابة فى هذا لأن الشخصية والعلم عندما تبرز للوجود يولد فرداً عادياً ، والعباقرة وأهل العلم والفن غالباً يكونون من أهل الغمور . . لا يُسأل عنهم

فى بدء حياتهم ولا يُعنى بهم فى أول وجودهم . . ولكن بعد ذلك يشار إليهم ويهتم بأخبارهم وحياتهم الخاصة والعامة . فالنائب إذن لا يلام فى استهلال الترجمة بالوفاة . . لأن «المنهل العذب . .» كان على نمط التواريخ ومناهج القدامى . . لا على منهج التراجم ودراسة الشخصيات بأسلوب العصر الحديث والفن المدروس . .

ويقع الكتاب فى 395 صفحة . . وله جزء ثانٍ ولكنه لم يرد النور ولم يدفع إلى المطبعة، وكان سطوراً أو أوراقاً ضاعت، وبحثنا طويلاً فلم نعثر له على أثر أو بقية . . وكانت ابنة النائب فى سورية وسألها بعض الفضلاء عن بقية تراث والدها فلم يفز بطائل أو جواب كاف . . . والجزء الثانى المفقود مكمل لعصور وأطوار طرابلس حتى سنى الاحتلال البائد البغيض . . وقد كتب النائب فى جزئه الأول الذى بين أيدينا عن الحكام والولاة، وحركات التمرد والحركات الاستقلالية، وترجم لما يقرب من 70 عالماً وأديباً وشاعراً وصوفياً ومتدروشاً وقائداً وفاضلاً؛ وترجم للإمام محمد بن على السنوسى الكبير ترجمة وافية، لعلها الترجمة الأولى التى كتبت عنه.

بعد هذا العرض الموجز السريع، والصورة التى حاولنا إبراز ملامحها نجد جانباً هامًّا نستطيع أن نجول فيه جولة قصيرة حتى نبرز شيئاً من ملامح قد تخفى على بعض الناس؛ هناك مقارنات ومفارقات بين ابن غلبون والنائب . . هناك أوجه تشابه وأوجه تفارق، إن صح هذا التعبير وسلمت هذه العبارة:

● ابن غلبون والنائب . . كلاهما ينحدر من أصل أندلسى . . وكلاهما من عائلة كان لها فضل وتراث فى المجتمع الذى عاشت فيه . . وإن كانت عائلة ابن غلبون مازالت سلالتها وأحفادها هنا وهناك وعائلة النائب تكاد أن تنقرض علماً وأعلاماً، أسماءً وأشخاصاً . . وكم من عائلات كريمات وأصول كرائم انقرضت . . . سنة الحياة وموج الزمان.

● كلاهما متأثر بالسجع فى عنوان كتابه، فابن غلبون يسمى شرحه على

القصيدة «التذكار» . . فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار . . والنائب . . يطلق على كتابه لقباً فيه عذوبة «المنهل العذب ، فى تاريخ طرابلس الغرب» .

● ومما هو جدير بالملاحظة أن كلًّا من الكتابين لم يطبع كما هو، كامل الصفحات، وإن كان كتاب ابن غلبون خرج إلى الناس مطبوعاً كاملاً من ناحية التاريخ وأخبار البلاد فقد حذف الطابع كما أشرنا فصولاً أو خاتمة الكتاب، تتعلق بالرباط والثغور والجهاد والآداب السلطانية ومما يلزم لإدارة الحكم، وحذف هذه الخاتمة لم يجن على الكتاب من جهة التاريخ والحوادث ولكنه طبع غير كامل السطور وموجود فى النسخة الخطية . . ومن أمانة الطابع أنه أشار إلى حذفه . . أما النائب فهو أسوأ حظّاً فى كتابه، فقد استأصلت الرقابة منه ثلاثة أرباع الكتاب، وضاع المحذوف كما ضاع الجزء الثانى . . وخلاصة المقارنة أن الكتابين لم يخرجا لنا كما سطرهما المؤلفان .

● كلاهما مقصر فى عدم ترجمة الشاعر أحمد عبدالدائم الأنصارى ؛ وابن غلبون أكثر تقصيراً لأنه اعتمد فى كتابه على قصيدته .

وهل كان سبب التأليف إلا شرح هذه القصيدة؟ . . وأهمل ترجمة الشاعر بل حتى والإشارة إليه .

والنائب مقصر جدّاً فى عدم ترجمة ابن غلبون، بل حتى الإشارة إليه .

● هناك قرابة بين الأنصارى الشاعر والنائب، فمؤلف «الإرشاد لمعرفة الأجداد» حفيد الشاعر وكان أيضاً جدّاً للنائب المؤرخ .

● ألَّف ابن غلبون مؤلفات ضاعت وإن كانت من فن آخر ، وأيضاً النائب لم يطبع غير كتابه هذا .

● ترجم ابن غلبون لأخيه وآخر من أسرته، وترجم النائب لعدد من أجداده وأصول أسرته كما سبقت إليه الإشارة .

● كان النائب شديد الميل فى الظاهر لإدارة عصره وحكام زمنه، وكان

ابن غلبون شديد الميل والتحيز لأحمد باشا القره مانلى بصورة واضحة فى الكتاب، وكان من المقربين إليه .

● كلاهما وقع فى خطأ عندما صدقا بعض الأساطير والأباطيل المختلفة، وخاصة قصة «السكين والدلاع» التى وقعت لبحارة أو تجار أسبان مع تاجر طرابلسى . والقصة أسطورة مشهورة ، وقد تورط فيها مؤرخون عرب ذكرها النائب فى صفحة 185 وابن غلبون فى صفحة 92 تظهر الأمانة فى النقل فى ثنايا الكتابين أمانة وإن كان ينقصها أحياناً تصفية وتلوين وتشجيب .

● كان ابن غلبون أكثر من النائب دقة وخبرة وحسن عرض واتساق سوق، وتظهر فى كتابة ابن غلبون مادة أكثر وأسلوب أدق وأعمق، وابن غلبون كان عالماً من علماء زمنه، أما النائب فهو أديب مثقف على طراز عهده .

● كان لابن غلبون مجمع علمى أو ندوة علمية فيها علماء وأدباء، وكان لأحمد ندوة أدبية أو «صالون» يجتمع فيه الوجهاء والأدباء ويتناولون أحاديث الحياة والمجتمع ؛ انقرضت مثل هذه الندوات فى العصر الحديث .

● كلاهما دفعه حب وطنه لتسجيل الأدوار التى مرت بها البلاد ؛ ولولا هذان الكتابان كانت الفترة الإسلامية العربية تكتنفها المجاهل والغموض فى تاريخ هذا البلد ، لولا النائب وابن غلبون كانت تلك الفترة قاعاً يباباً يتحير أمامها المتعرض لتاريخ هذا البلد ، ولولاهما لكثر الخيال والتخمين .

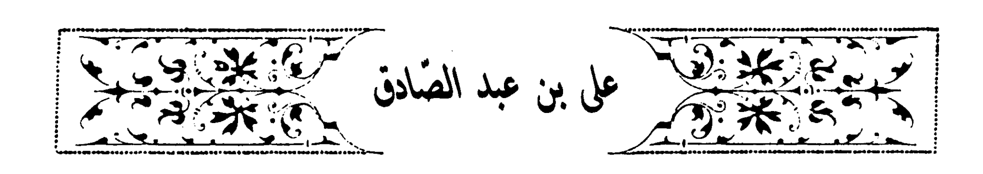
● وكما أن اللغويين والنحاة عالة على كتاب سيبويه ومتأخرى الفقهاء عالة على كتاب خليل . . فإن مؤرخى طرابلس فى عصورها الإسلامية ، وخاصة ما قبل الاحتلال البائد هم عالة على كتاب ابن غلبون وكتاب النائب ؛ كلهم يستندون وينهلون ويغترفون، ومهما تطاول بهم الادعاء، ولو بلغت ادعاءاتهم عنان السماء ، فإن مرجع المراجع فى تاريخ طرابلس فى الحقبة الإسلامية العربية كتابان : «التذكار» و «المنهل» ومؤلفان. . ابن غلبون والنائب؛ ولكن من المؤرخين من يؤدى حق الأمانة العلمية فيشير ، ومنهم من

يسرق ، ومنهم من ينقل ، من غير دقة . وعلى كل حال . . كلهم أجمعون أكتعون أصبعون عالة على هذين الكتابين . .

أيها الغطاريف الميامين ،

قبل أن أغادر مكانى أحب أن أقدم اقتراحاً إلى نظارة المعارف ووزارة المعارف، وإلى المهتمين بالشؤون العلمية الفكرية. . حبذا لو أطلق اسم ابن غلبون والنائب على بعض المدارس تخليداً لذكرهما واعترافاً بفضلهما وإشادة بمجهودهما الأدبى . . لماذا لم نطلق على بعض المدارس هذه الأسماء الخالدة فى التاريخ الأدبى لهذا البلد ؟ . . هناك فى كل بلاد العالم يطلقون أسماء العلماء والأدباء وأهل الفكر على الميادين والشوارع والمدارس والمؤسسات والمنظمات تخليداً للفكر وتقديراً للأدب والوطن . . وإنى شاكر لكم فى البدء والختام على إنصاتكم ، وشاكرٌ إدارة المدرسة على تهيئتها هذه الفرصة وسلام عليكم ورحمة الله أيها الغطاريف الميامين .





على بن عبد الصّادق

المؤلف الباحث والفقيه المصلح

من علماء طرابلس فى القرن الثانى عشر الهجرى.. من أساتذة العهد (القره مانللى).. درس فى مدينة طرابلس ولم تكن له رحلة للخارج. برع فى الفقه وكتب فيه عدة مؤلفات، وشرح بعض الرسائل والمنظومات، وكان يكره البدع والمستنكرات.

ووقعت بينه وبين المبتدعة مصاولات وحروب، أثارها عليهم عندما رآهم يسترزقون بالدين، ويدخلون فى الشرع عادات وتقاليد وطقوساً ما أنزل الله بها من سلطان، وانبرى لهم مفنداً الخرافات مبيناً حقيقة الشرع كما أرادها الله وكما نصّت عليه كتب السنّة الصحيحة.. فكان أهل البدع يكرهـون مجلسه، وكانوا يؤلبون عليه العامة ولكنه صمد لهم. وسار فى طريقه متحرر الفكر مطمئن الخاطر لا يرى منكراً إلا بدَّله ولا بدعة إلا أنكرها، ولا خرافة تلصق بالدين إلاّ ثار عليها. وبيَّن الحق من الباطل. والصواب من الخطأ.

وتصوَّر كم يعانى فى عصر ارتزق الناس فيه كثيراً باسم الدين، وفى أزمنة انتشر فيها كثير من الأقاويل والأباطيل.

ينحدر هذا الشيخ من عرب كرام، وهو من قبيلة (العبائدية) من سلالة (بنى سليم)... كان جده الأكبر استوطن فزان. وأناخت عشيرته (بالخضراء) من أرض فزان هناك، ثم انتقلت الأسرة إلى ساحل طرابلس... ومنها تفرعت فروع، واندمجت فى هذه البقعة بالاختلاط والمصاهرة، ومنهم توجد إلى الآن عائلات فى طرابلس المدينة والساحل. وكان من أخواله أولاد «بن حمودة»، وان أردت الإسم واللقب كاملاً... أبو الحسن على بن الصادق بن حموده بن أحمد بن عبد الصادق العبادى. ويطلقون عليه (الجبالى).

ولهذه التسمية قصة يذكرها معاصرون لوالده، فقد زعموا أن جدة عبد الصادق كانت عسرة الولادة. لا تنجب بسهولة ولا يعيش لها الأولاد. فذهب زوجها إلى الشيخ «أحمد زروق» يعرض عليه هذه الحالة الشاذة، ويخاف أن يذهب نسله. ولا يخلف ذرية من بعده... فطمأنه أحمد زروق ودعا له وأن زوجته ستلد له (جبلاً).. كانت هذه مجرد دعوة واطمئناناً لخاطر الرجل الخائف المضطر المضطرب وكان إن انجب ولداً -... وتذكر الرجل شكواه وخوفه فأطلق على ولده (الجبالى)؛ ولا تزال هذه النسبة فى ولد عبد الصادق بالساحل وطرابلس إلى الآن.

وقصدنا من سرد القصة هو تحقيق هذه الكلمة وذلك اللقب وتلك النسبة لا غيره.. أما صحة القصة وعدم صحتها وما يتصل بها فهذا ليس من شأننا هنا..

أغرم بالفقه والتوحيد يكتب مجلداته فى عصر لم تنتشر فيه الطباعة، فكان يقضى سواد الليل فى التحبير والتسطير والنقل، والمقارنة بين الأصول والأمهات... وكان خطه غير ردىء ولا كثير التعاريج والتعاويج... وقد استطعت قراءة خطه بسهولة... ولا تزال بعض مخطوطاته فى مكاتب طرابلس وعند بعض الأفاضل..

وعلى الرغم من أنه خصم لدود لأهل البدع والمداحين ومن يدخلون الخرافات فى مجالس الذكر إلا أنه كان صوفياً صادق التصوف، زاهداً صادق

التعفف، يدرس التصوف فى أصوله ويسير على منهاج الكتاب المقدس والسنّة الصحيحة. . وله مقالات فى (كلام القوم)؛ وهذه عبارة يقصد بها المتقدمون الصوفية والاصطلاحات والأشعار التى لها طابع خاص واتجاه مميز بدون أن يكون للبدع والمنكرات دخل فى جوهر الدين، وحقيقة الشرع الشريف.

وقد نظم على بن عبد الصادق فى عيوب النفس منظومة حفظها طلاب عصره، ورددها المتذوقون للفن الصوفى، ثم شرحها الناظم بنفسه شرحين: صغيراً وكبيراً؛ ولولا أنها رسالة أوجدت فى وقته صدى ولقيت إعجاباً لما انبرى لشرح منظومته مرتين. ونظم أيضاً أصول الطريقة المنسوبة للزروق، وقد أطلق على ملزومته (هداية العبيد إلى طريق المبتغى الحميد). ثم أيضاً انبرى لشرحها، وتفصيل محتوياتها. ويلاحظ من هذا أنه بجانب الدراسة الفقهية والتدريس كان مولعاً بالنظم وشرح المنظومات. ولا أقول الشعر، فإن من المماحلة إطلاق الشعر على المنظومات العلمية والاصطلاحات المعروفة، وإلا عددنا ألفية ابن مالك من طراز الشعر. . وعلى بن عبد الصادق يشرح ويعلق على منظومة (عبد الغنى الوليدى الفاسى) التى كانت تدور حول موضوع ما يجب عيناً وما يجب كفاية على المكلف، ولعله قصد بالنظم تبسيط المعانى وسهولة الحفظ؛ فقد كان أولئك القوم يحفظون كل الاصطلاحات والحقائق عن طريق النظم.

ويؤلف رجل مواطن منظومة فى التوحيد فيسارع على عبد الصادق إلى نظمها، وأعنى بها رسالة ـ محمد الصالح الأوجلى. . .

هذه منظومات فى الفقه والتصوف والتوحيد. . .

ولعل من الغريب المستطرف أن أشير إلى منظومة لا تخطر بالبال. وليست من ميدان العلماء الفقهاء فى ذلك الأوان. .

هل تصدق أن عبد الصادق يدرس الاقتصاد. . . يدرس الثروة. . . يدرس كيفية المحافظة على تنمية الأموال؟. لا تعجب؛ فإنهم وهبوا كل أوقاتهم للدراسة، وإن كانت بأساليب زمنهم ومقتضى أحوالهم. . . الفقيه

المدرس فى الجامع ينظم رسالة لطيفة فى أسباب الغنى وتنمية الثروة. . . أى فى فن الاقتصاد. . وهذه من طرائف رسائله.

أما مجهوده الأكبر فقد صرفه إلى الفقه المالكى، كما أشرنا. فيه شرح واختصر، ونظم، وكتب، وحقق. . . شرح (الصغرى) للسنوسى، شرحاً كبيراً وشرحاً صغيراً؛ ولعل على بن عبد الصادق يقصد بهذا ألا يحرم الطلاب المبتدئين، فقدم رسالة مختصرة، ولكبار الدارسين قدّم رسالة مطنبة.

وشرح أيضاً المنظومة المشهورة للفقيه عبد الواحد بن عاشر، وهى فى الفقه، تحفظ وتروى، وبها يستشهد، مثل إلفية ابن مالك عند النحاة. . واختصر وشرح (الرسالة) لأبى زيد القيروانى؛ وقد لقيت كتب أبى زيد مجالاً وإقبالاً فى المغرب وليبيا ومصر. . ولا تزال تدرس كتب أبى زيد القيروانى فى الأزهر بمصر، وجامع الزيتونة فى تونس، وجامع القرويين فى مراكش، وفى مساجد ليبيا.

وفى التوحيد ألَّف رسائل ومال إلى الاختصار والنظم كعادته. وقد أشرنا إلى ثورته على أهل البدع والمرتزقة باسم الدين، فانبرى لهم فى مجالسه وحلقاتهم ومجتمعاتهم، وخطب ضدهم، وأوضح فى دروسه خطر هؤلاء المبتدعة على الشريعة. ولم يكتف بالدرس والخطابة، والنصح والإرشاد - بل لجأ إلى ما هو أكثر فائدة، وأعم نفعاً: إلى التأليف والرد عليهم فى رسالة تظل باقية بعده مشيرة إلى مجهوده وجهاده فى ميدان الإصلاح الاجتماعى والدينى.

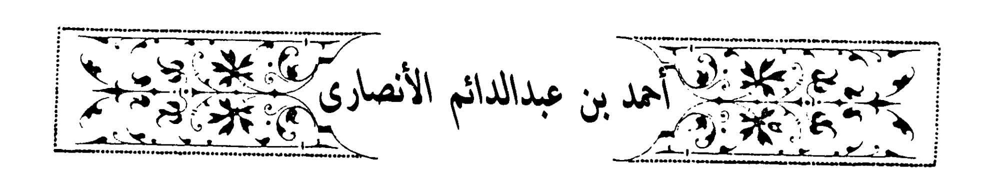
كتب على بن عبد الصادق رسالة فنّد فيها البدع والهراءات، أطلق عليها (تحفة المريد فى الرد على فقراء الزمان) دلت على غيره من أجل الدين. وفقراء الزمان، يقصد بهم الذين يلبسون الخرق ويرتدون المرقّعات ويتركون العمل والاكتساب ويشطحون بشطحات تخالف الكتاب والسنّة. . ويأتون من المنكر أصنافاً وألواناً؛ وهؤلاء منهم فى كل زمن وكل بلد طوائف وطوائف. . .

بلغت مؤلفات على بن عبد الصادق أكثر من عشرين مؤلفاً، كلها مخطوطات وأكثرها فى هذا الميدان الذى ظل يكافح فيه طيلة عمره. . . ولا

تخلو مؤلفاته من نقل ضعيف أو رأى نقله مسرعاً. وقد لفت نظره إلى هذا، ونقده عالم معاصر له المؤرخ (ابن غلبون المصراتى)؛ فقد كلمه فى هذا ونقده فى بعض كتبه التى جمع فيها عبد الصادق بعض الأقاويل والآراء ما كان أحراه لو تثبت قليلاً وغربل وقابل وتمعن. وإليك عبارة ابن غلبون فى هذا الصدد عند الإشارة إلى هذه الشطحة العلمية: «يميل لجمع المسائل دون تحرير». فأجاب ابن عبدالصادق بأن قصده من هذا (حفظ الدين ونقل أقاويل العلماء).. فما كان من ابن غلبون الناقد المعاصر له إلا أن دعا له وأثنى عليه، ومن عبارته (فالله يتقبل عمله، ويحسن ثوابه).

لم أعثر على تاريخ ميلاده، فلم يكن الأوائل يعنون كثيراً بحفظ تاريخ الميلاد... وفى يوم الاثنين بعد الظهر 22 ربيع الأول سنة 1138 هـ الموافق 1725 م انتقل إلى دار الآخرة، وخرجت طرابلس لتوديع عالم فاضل وغيور مصلح.





أحمد بن عبدالدائم الأنصارى

الأديب ، الشاعر ، المجر

نتعرض هنا لأديب مغمور، وشاعر رقيق الشعور، ضاع تراثه وغمرته أمواج الحادثات، فلم نعثر من أثره وشعره إلا على النزر اليسر من أبيات موجزة وكلمات مقتضبة، ثم قصيدة مشهورة مشروحة مطبوعة.. وما عدا تلك النتف وهاتيك القصيدة لا نجد الظلال الكافية لرسم الصورة ذات الأضواء والزوايا.

والقصيدة هى أهم ركيزة نرتكز عليها.. ورب قصيدة أو أبيات تبعث موات الشاعر، ورب وريقات وكلمات تبعث الأنفاس فى الأجداث المندثرة... تلك القصيدة التى مدح بها طرابلس، موطن آبائه وأجداده« قد حفظت اسمه من الضياع ولكنها لم تحفظ الرسم كاملاً.. وقد عارض بها رجلاً ذم طرابلس وذكر مثالبها وأبرز قبائحها.. وكانت بسبب مشادة عنيفة بين ذلك الرجل الرحالة «العبدرى» وبين قاضى طرابلس «ابن عبد السيد» أثارت حفيظة الضيف الراحل فشنّع وقبّح، مما جعل الشاعر أحمد بن عبد الدائم الأنصارى ينبرى له، مدافعاً عن وطنه زائداً عن بلاده مسجلاً الآثار

ومعدداً المآثر، مبيناً الفضل والمحاسن. وقد حفظ أبناء طرابلس الغرب قصيدة الأديب الأنصارى ولهجوا بها ورأوا فيها حدثاً يذكر وحديثاً ينشر وشعراً يحفظ. وقد وجد فيها العالم المؤرخ «ابن غلبون» شيئاً يستحق الشرح والتعليق والإضافة فجعلها ركزة البيت فى كتابه المعتمد المشهور «التذكار». وقد قرأت القصيدة مراراً وأنا طالب فى الجامع الأزهر فوجدت فيها إحساس المواطن الغيور والدفاع الصادق.

وفى القصيدة شاعرية بالنسبة لذلك العصر، شاعرية جديرة بالنقد والحفظ، لأنها غدت مادة من مواد التاريخ ولبنة فى صرح التطور الفكرى الذى مرّ على طرابلس الغرب. فالقصيدة التى نظمها أحمد بن عبد الدائم الأنصارى تعد من التراث الأدبى النادر، ولو أن الأيام جادت لنا بأمثال تلك المقاطع لوجدنا ملامح من شعراء ذلك الجيل؛ ولكن الأيام فى حكمها قاسية وفى تضييعها لتراث الفكر ذات تصرفات مؤلمة غريبة.. ولندع الحديث عن القصيدة إلى أسطر مقبلة، ولنحاول الكشف والتنقيب عن الشاعر نفسه وحياته التى قضاها فى بلده طرابلس الغرب..

ولقد ساءلت كثيراً وبحثت طويلاً عن ترجمة الناظم فلم أجد شيئاً يشفى الغليل ويرضى القلم الجائع، أو كما يعبر الأقدمون، يطفىء غلة الصادى. وكان يطلق عليه «أديب»؛ ومن هذا الإطلاق نفهم أنه كان من الذين يعنون بالدراسة الشعرية حفظاً ورواية وبناءً، ثم يعنون بالثقافة اللغوية والإخبارية، كما هى صفة الأدباء فى ذلك العصر وما قبله من عصور. فقد كان من شرط الأديب أن يكون كثير الحفظ غزير الرواية جيد النقل، حسن الاستشهاد لطيف الإشارة، لطيف العبارة بجانب الانطباع على اللياقة والظرف والذكاء والألمعية. كانت هذه صفات منطبقة على شاعرنا أحمد بن عبد الدائم الأنصارى؛ فقد شهد له معاصروه بهذه الخلال وتلك الصفات من حسن خلق ونبل معاملة فى المجتمع الذى كان يعيش فيه، فلم يكن حقوداً ساخطاً ولا جموحاً مشاكساً ولا معربداً لاهياً، مع جودة فى الحفظ وضبط فى النقل.

ومع كل ما سبق من صفاته فقد كان يمتاز بالعكوف على «دراسة

الحكمة» أو علوم الكيمياء والطبيعة والمحسات؛ فهو لا يكتفى بقراءة الشعر وحفظه وطرائف اللغة ونوادر الأخبار، بل هو يفحص ويجرب و«يحاول»؛ وليس فن «الحكمة» هنا مقصوداً به حكمة القول وحكمة اللفظ بل هى ضرب من الصناعة والتجارب والعمل التجريبى. ولو وجد أحمد بن عبد الدائم فى عصرنا هذا لكان رجلاً «عملياً» عاكفاً فى مصنعه وبين آلاته التجريبية التى يقيس بها ويستنبط ويستخرج، كما يصنع العلماء العمليون فى عصر الكهرباء والذرة. والعكوف على دراسة «الحكمة» تجد له فى التراث الإسلامى مؤلفات مخطوطة وتجد فى هذا المجال جهابذة من فطاحل العلم والفلسفة والأدب... وناهيك (بمسكويه) الفيلسوف الذى أهلكه البحث فى استخراج الذهب من معادن مختلفة حتى كاد يقضى عليه البحث عن الذهب وقلب المعادن، ويدفعه إلى موكب الفلاكة والمفلوكين.

كان ابن عبدالدائم يبحث فى الخلائط والمواد وطبائع الأشياء وخصائص المعادن وطبقات الأرض ودراسة «الجيولوجيا»، ويصل من هذه المحاولات والتجارب إلى أشياء مفيدة، ولكنه لم يستطع أن يجد من يستفيد منها. وكان هذا يغيظه ويحرقه حرقة العالم الغريب فى محيطه، ويأسف لهذا. ويقول أحمد بن عبد الدائم عن نفسه، ومبيناً المجتمع الذى كان يعيش فيه وإعراض الناس عن تجاربه: «لى معرفة بسبعين حكمة، وعمرى الآن ما ينيف عن الخمسين سنة، ولم يسألنى أحد من أهالى طرابلس عن واحدة منها»... لك الله أيها العالم الذى أحرق أنفاسه وأضاع عمره فى البحث عن طبائع الأشياء والتأمل فى محراب الطبيعة حتى توصل إلى فوائد لم يقدر لها الظهور ولم يسأله الناس عنها. لقد كان أحمد بن عبدالدائم الأنصارى يشتغل بنفسه ويبحث بدافع من حسه، راغباً تائقاً للعلم من أجل العلم والبحث.. من أجل البحث.. ثم يذكر لنا أحمد بن عبدالدائم حكمة أو فوائد من التى استطاع أن يتوصل إليها ويستنبطها وأيضاً يستفيد منها عملياً: إخراج الماء من الأرض حتى يتصاعد إلى فوق بغير عناء وكثير مشقة. وقد لا تُعنى أيها القارىء بهذه الفائدة كثيراً لأنك تجد بجانبك الماء حلواً مستساغاً فى صنابيره، ولكن لو رجعت قليلاً إلى عصر «ابن عبدالدائم» ونظرت مشقة الحصول على الماء

وطريقة نقله ووسائل حفره لوجدت كل ذلك شيئاً صعباً ، وخاصة فى أرض مثل أرض طرابلس ، قد يكون الحصول على الماء فيها يتطلب كل الجهد والمحاولة ، وكان ابن عبدالدائم بصنيعه واستنباطه يستطيع إخراج الماء بلا مضخات ولا آلات ضخمة ، ولا شك أنه توصل إلى هذا بعد كد فكر وإجهاد نظر وتجارب ، تفشل حيناً وتصل إلى مرتبة النجاح أخيراً .

واستخراج الماء من الأرض يدلنا على مدى توجيه فكره وسداد بحثه ، فهو لا يستعمل «حكمته» ودراسته فى غير طائل وفى استخراج الذهب الإبريز كما يصنع الباحثون عن الحكمة فى عصور مضت .

ولنترك هذا الجانب العلمى ونلاحظ أن أحمد بن عبدالدائم كان صاحب خط جيد جميل رغم أن أهل الشمال الإفريقى اشتهروا بخطوطهم الرديئة وحروفهم الملتوية وتخاطيطهم المنعرجة المتسرعة . . إلا أننا نجد فى أدباء طرابلس الغرب من حسن خطه وتجود تخطيطه مثل العالم اللغوى (أبى اسحاق الإجدابى) كما أشرنا فى ترجمته ، وأيضاً الشاعر أحمد بن عبدالدائم كان حسن الخط جيد التسطير ، حتى أنهم زعموا أنه (اخترع) طريقة فى الخط الجيد انفرد بها . . هكذا زعموا وإن كان هذا الحكم لا يمكن أن نقبله بدون تحفظ لأننا أولاً وقبل كل شىء لم نعثر على رقعة من خطه أو أسطر من تخاطيطه ؛ وقد يكون مرجع رأى معاصريه فى خطه أنه لم يكن معروفاً فى أوساطهم وبلدهم ، لأنه مثل خطوط المشارقة فاعتقدوا أنه اخترع طريقة جديدة واستنبط وهو المشهور بينهم بالاستنباط والتجديد . وعلى كلا الحالين ، سواء كان (مخترعاً) لخط جديد أو (مقلداً) خطوط المشارقة فإنه بشهادة معاصريه كان حسن الخط أنيق الحرف صاحب جودة وإتقان ، وهذا بلا شك يدل على ذوق سليم وتنظيم وعناية .

ومن استعراضنا لحياته ندرك أنه كان شاعراً ينظم وخطاطاً يجوِّد وباحثاً يجرِّب ومستنبطاً لبعض الفوائد . وليس هذا فقط ، بل كان شيخاً عالماً يشارك فى البحث العلمى الفقهى ، كما يشارك فى البحث (التجريبى) المادى، ويتعرض لأجوبة السائلين فى شؤون دينهم . . فقد كان فى عصره يوجد فى

طرابلس علماء أجلاء يدرسون الفقه الإسلامى ودقائق التشريع ، وكانت هناك نهضة ، أو بوادر نهضة ، وإن كانت محدودة الثقافة ، مندثرة المعالم إلا أنها حركة ونشاط فكرى . . تدل على ذلـك المدارس الـدينية وأسماء الأعلام والفقهاء الذين تناثروا فى تاريخ طرابلس الغرب ، ثم قد تجد الخبر أو الحادثة الصغيرة منزوياً فى بعض المخطوطات إلا أنه يدل على أشياء كثيرة ويشير إلى حقائق عدة .

من هذا القبيل سؤال أبناء (جزيرة جربة) لعلماء طرابلس. فقد أرسل أهل «جربة» يسألون علماء طرابلس عن مسائل شرعية وأحوال دينية . ومن الظواهر الجديرة بالملاحظة أن أهل (جربة) لم يسألوا علماء تونس، وعندهم جامع الزيتونة يموج بالعلم والعلماء ، وهم أقرب إلى تونس علاقةً وموطناً ، وأيضاً لم يسألوا علماء مصر وعندهم منارة الإسلام وقبلة الشريعة . . الجامع الأزهر . . إنما اختاروا لسؤالهم علماء طرابلس الغرب ، وهذا يدل على ازدهار الحركة العلمية الفقهية فى طرابلس من ناحية ، ويدل أيضاً على مشاركة أحمد ابن عبدالدائم الأنصارى فى تلك الحركة . فقد ساهم واشترك فى الجواب الشرعى فى أبيات نظمها وأرسلها بصورة جواب إلى أهلِ (جربة). وإنه وإن عز علينا منال هذه الأبيات إلا أن صداها بقى مشيراً إلى مدى مساهمتـه العلمية .

وكانت أجوبة عبدالـدائم وفتواه مـوجودة فى المتنـاول إلى عهد ليس بالبعيد . وأيضاً جوابه بالشعر يدلنا على أنه كان له مقطوعات أخرى وليس من المعقول أنه اكتفى فى حياته الطويلة بنظم (قصيدة) واحدة، تلك التى سنتعرض لها بعد قليل. وأيضاً هو متأثر ـ رغم محاولته التجديد ـ بمدارس الأقدمين فى معالجة المسائل الشرعية عن طريق المقطوعات والأراجيز .

وكان الشاعر من سلالة (الأشراف) ومن (الأنصار). يدلنا على هذا لقبه (الأنصارى). وتوجد من سلالة الأنصار عائلات وأسر فى طرابلس انحدرت من الجزيرة العربية ، ومنهم من عاد من الأندلس بعد غروب شمسه واختفاء

نجمه وتلاشى مجده وتبعثر آثاره وأعلامه . ومن (الأنصار) فى هذا البلد أخلاط وأنساب ، ويوجد ولى يزار يدعى (سيدى الأنصارى).

هل كان للشاعر رحلة للحج ؟ أو مصر أو تونس والجزائر ؟ كأكثر علماء وأعلام طرابلس ؟ أم ليس له رحلة ، ولم يغادر بلده مثل اللغوى (الإجدابى)؟ الجواب على هذا ضرب من التخمين ونوع من الاحتمال وفروعه لا يفيد كثيراً فى صناعة التراجم وصياغتها ، وإن كان كل هذا مناط تساؤل . . ونكتفى هنا بوضع علامات الاستفهام .

وكما هو غيور أشد الغيرة متأثر أعنف التأثر من الذى هجا طرابلس فانبرى له مدافعاً فقد هز شعوره أيضاً أن يرى أسطولاً يهدد الشاطىء ، أسطولاً أجنبياً فى شعاره وشعوره ، وكان أسطولاً «فرنسياً»، وأظهر تأثره فى أبيات نظمها وأرسلها إلى سلطان (القسطنطينية). فهو يكره أشد الكره أن تذم بلاده ، كما يكره أشد الكره أن يغزو أسطول أجنبىٌ شاطئاً من شواطىء المسلمين . ويقال إن هجوم الأسطول كان سنة 1140 هـ ـ 1727 م . ومن هذا نفهم عصر الشاعر وأنه كان معاصراً (لأحمد القره مانللى باشا). ولكن يثبت التاريخ أن (فرنسا) لم تغز طرابلس بأسطولها . . فكيف يستنجد أحمد ابن عبدالدائم من هذا الأسطول ؟ وكيف يستغيث بالقسطنطينية ؟ وكانت طرابلس الغرب فى وقته حرة لا تخضع لأسطول فرنسا ؟ . . بل لها أسطول بحرى ؟ ويظهر أنه كانت هناك مجرد (محاولة) من أسطول فرنسا ؛ والمحاولات فى التاريخ وفى الحوادث كثيرة . ويظهر أيضاً أن الأسطول المذكور هاجم شاطئاً من شواطىء المسلمين وقلعةً كانت تابعة للقسطنطينية فانبرى الشاعر غيوراً مدافعاً مستنجداً ، وبلاد الإسلام كلها واحدة . . قد يكون هذا أقرب إلى الواقع المقبول ، أما أن الأبيات نظمت من أجل شاطىء طرابلس فهو أمر يستبعده التاريخ ، وهذا هو الرأى الذى يمكن الاعتماد عليه إذا أسندنا الأبيات إلى أحمد بن عبدالدائم . أما إذا أصررنا على أنها دفاع عن شاطىء طرابلس فإن ذلك يجعلنا نشك فى نسبة الأبيات إليه ويجعلنا نتطلب تخريجاً آخر لها . والأبيات لم نعثر عليها كلها وإنما الموجود منها يخاطب سلطان القسطنطينية :

يـا واحـداً مـا فى الـبـسـيـطة مـثـله
مـلك المـلوك بـتـاجـه المـتـكـلل
فـاسـمـع لقـصـة مـن أتـاك بـحـرقـة
خـذ ثـاره مـن كـل خـصـم مـبـطـل
أوَمَـا يـغـيـظك حـال قـلعتـك الـتى
فـازت بـفـتـحـك فى الـزمـان الأول
يـا سيـدى فـانـظر لحـالـة ضعفـنـا
مـن شـيـمـة الأخـيـار ألا تـبـتـلى

أنا لنرجو منك الثأر . . . الخ .

وهذا يفهم منه أن الشاعر كان مهتماً بشئون البلاد الإسلامية ولم يكن يعيش فى غار أو فى تلاعب ألفاظ ويقضى أدبه فى التلاعب بالأحاجى والألغاز ، كما يصنع شعراء كثيرون فى عصره .

. . . ولكن الشاعر فى الشطرة الأخيرة التى سقناها لم يكن منصفاً فى قوله . . . من شيمة الأخيار ألا تبتلى . . . بل عكس هذا هو الواقع والحادث . . . بل من شيمة الأخيار وشيمة الفضلاء . . . أفراداً وشعوباً الابتلاء والامتحان والاختبار . . . ولعل الشطرة كانت على غير ما وصلتنا ، ولعلها كانت «من شيمة الأخيار أن تبتلى» لأن الابتلاء محك الرجال . . ومسن العزائم . . ومن أبياتها التى وصلت إلينا :

فى يـوم عـيـد المـسـلمـين ونـحـرِهـم
مـتـرقـبـين بـفـرحـة لـلمـدخـل
عـام أربـعـين مضـت لهـجـرة أحمـد
مـن بـعـد مـائـة وألـف كـمـل

من هنا نعرف الفترة التى كان يعيش فيها الشاعر الأديب كما سبقت الإشارة إليه 1140 هـ ـ 1727 م ، ومنها نفهم أيضاً أن هجوم ذلك الأسطول على ذلك الشاطىء كان يوم عيد الأضحى ، وأيضاً لم يكن على شاطىء

طرابلس ، كما ظن كثير من فضلاء الباحثين والذين حاولوا الكشف عن شخصية أحمد بن عبدالدائم الأنصارى .

ومنذ وقت غير بعيد كانت نسخة من كتيب صغير يطلق عليه (الأجداد) وقد دبجه قلم الشيخ عبدالكريم عبدالرحمن الأنصارى ويقال إنه فرغ من كتابه فى 24 محرم 1212 هـ ـ 1797 م وكان موجوداً عند المرحوم مدير الأوقاف اسماعيل كمالى . . ولكن لم أجده ولم أعثر عليه وقد ضاع من جملة الآثار القيمة الضائعة . . ويهمنا من هذا كله أن كتاب الأجداد أشار فيه مؤلفه إلى سلسلة أجداده ومن جملتهم صاحبنا الشاعر أحمد بن عبدالدائم الأنصارى ، وكان الجد الأول من ناحية الأم لصاحب كتاب الأجداد . وعندما أراد الأديب الأستاذ أحمد الفقي حسن أن يكتب شيئاً عن الأنصاري لم يجد معتمداً ولا مستنداً سوى هذا الكتيب المفقود فنقل أسطراً مقتضبة ، وليته حفظ لنا هذا الكتاب ، كما حفظ بعض الآثار والأشعار مشكوراً مأجوراً . . وقد سألته كثيراً فلم أجد منه ما يفيد عن هذه الشخصية سوى ما نقله من أسطر ضئيلة لا تعطى الضوء الكافى . .

ومع أن ابن غلبون شرح قصيدته إلاّ أنه أهمل ترجمته كما سبق أن أشرت فى محاضرتى بمدرسة طرابلس الثانوية ، وأيضاً لا يكون كثير الغرابة بجانب إهمال (النائب) له مع أنه من أجداده؛ فقد كان جده محمد بن عبدالكريم مؤلف (الأجداد) أو الإرشاد من سلالة أحمد بن عبدالدائم ، من ناحية الأم كما ذكرنا . . أهمله ترجمةً ودراسةً وإن أشار إلى أحمد بن عبدالدائم الأنصارى إشارة خاطفة عابرة ، ونقل خبراً عنه ، وإن كان النقل بالطبع ليس معناه المشافهة وذلك فى صفحة 357 ـ عندما تعرض لترجمة الشيخ سعيد الهبرى . «أخبر الشيخ أحمد بن عبدالدائم الأنصارى، قال: حدثنى الشيخ محمد بن سعيد عن سبب قدومه طرابلس» الخ . . . وكان هذا الحديث الذى نقله الأنصارى قبل سنة 1093 هـ . أى أن صاحبنا كان موجوداً فى القرن الحادى عشر ، من أواخره ، وتشير الأبيات التى يستنجد فيها بالقسطنطينية إلى أنه كان موجوداً سنة 1140 هـ ، أى فى زمن أحمد باشا القره مانلى ، وبين سنة

1094 وسنة 1140 حوالى 47 عاماً ، فكيف تقارن وتخرج الصواب من الروايتين ، مع أن النائب فى روايته صادق صدق القصيدة التى شرحت وحفظت ؟؟ ليس لنا مخرج صائب سوى أن أحمد بن عبدالدائم الأنصارى قد عمّر طويلاً ، كما حدَّث هو نفسه عند تحسره على ضياع حكمه وتجاربه بدون استعمال أو تقدير ، وظل موجوداً قبل سنة 1093 هـ حتى عصر أحمد القره مانلى وقصيدته سنة 1140 هـ . ومن هنا أيضاً ندرك أن الشاعر قد نظم قصيدته ، التى عارض بها (العبدرى) وهو فى سن طاعنة ومرحلة من العمر متقدمة . . أما وجوده فى زمن أحمد باشا فمن غير نزاع ولا احتمال ، لأنه مدحه فى آخر القصيدة .

ومهما يكن من أمر فهو مظلوم من طرف المؤرخين جميعاً؛ مرُّوا عليه مروراً سريعاً ولم يأخذ حقه . وكم من الأدباء المفكرين يظلمون ويهضمون أحياءً وأمواتاً . .

والقصيدة تبلغ 29 بيتاً ، بدأها بقوله :

أرى زمناً قد جاء يقتنص المها
بلا جارج والأُسد فى فلواتها
رأى القيض مبيضاً بمزبلة الحمى
فقال كفانى أنه من صفاتها
أتى أهله يهوى وبشر أنه
بربقة من ظبيانها ومهاتها

وبعد أن وصف العبدرى من غير أن يذكر لقبه ولا اسمه ، دافع عن بلده طرابلس وأخذ يسرد محاسنها ويعدد فضائلها . ومن الجدير بالملاحظة هنا أن عبدريَّ الأنصارى غير العبدرىِّ الرحالة ، لأسباب ذكرتها فيما سبق ؛ وأضيف إليها سبباً أكثر إيضاحاً وذلك أن الرحالة المغربى قد أثنى على طرابلس فى ثنايا رحلته ، وهذا أكبر دليل يُخطِّىء الذين زعموا أنه العبدرى المغربى ؛ وذكر الأنصارى حماية طرابلس لمن لجأ إليها وحالتها البحرية وسفنها ومرساها

المزدهر وعسكرها ، ثم عرَّج على الأولياء وأصحاب التصوف الصافى مثل أتباع (أويس) و (الجنيد) وأهل الفضل الأنجاد الأجواد. ثم يبرهن على فضلها :

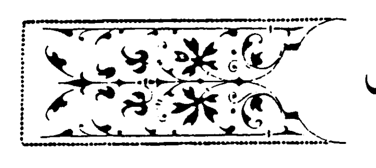
قـد اختـارهـا الـزروق داراً ومـوطنـاً
كـذا ابـن سـعـيـد مقـتـدٍ بهـداتهـا

أما الزروق فهو أشهر من أن يعرف وابن سعيد الهبرى كان معاصراً للشاعر . ثم عَرَّج بعد المتصوفة على العلماء وعدم وجود الغش فى البلاد وعدم الإقسام والأيْمان فى البيع والشراء ، كما هى عادة أهل السوق فى البلاد الأخرى . ثم أشار إلى أنهم فى وقت الصلاة يتسارعون سراعاً ويتركون الأسواق . ثم خاطب صاحبه آمراً له أن يتمهل فى الذمِّ ولا يتعجل ، فالإسلام كان يباهى بغزوات طرابلس . ثم عرَّج على مدح حاكم البلدة فى زمنه ، وأشاد بكرمه وعطفه على الأغراب . وبعدها يدعو على صاحبه دعاء ما كان أحراه أن يتعفَّف عنه لولا شطحات الشعراء ، فهو يريد أن يسلبه نور العلم . . ويطلب منه أن يتوب وينتصح . . ولا يصح أن يهجو (أم الثغور) الحنونة ـ كفاها مديحاً عدّكم هفواتها . . وهذه الشطرة إشارة لقول المتنبى . . كفى المرء نبلاً أن تُعَدَّ معايبه ، . . ويذكر أنها «رباط»، وهذا يشير إلى عصرها البحرى . ويختم مثل شعراء السلف :

فجـاءتـك يـا شـرقىُّ تسعى فـراعهـا
وكـن منصفـاً ثـم اجـن مـن ثـمـراتهـا
وصـلِّ وسـلِّم يـا إلهـى عـلى الـذى
نهى عن حـظوظ النفس مـع شهـواتهـا

هذا ملخص موجز واستعراض مقتضب لقصيدة أحمد بن عبدالدائم الأنصارى ؛ ولا أريد أن أطيل بنقلها ، فهى موجودة فى المتناول ، وهى الأثر الوحيد الذى بقى مشيراً إلى الشاعر الأديب المجرّب ، أحسن الله إليه ، كما أحسن فى حياته وأحسن فيما عمل من أثر وآثار .

محمد بن العربى



الشاعر المغمور

أديب شاعر، تألب عليه الخصوم، وكاد له الوشاة، وتألم من زملائه وقاسى ألواناً من عذاب النفس عندما تأخر به حظه، ولم يعل نجمه. كان عزيز النفس، عازفاً عن أساليب التملق، ولكنه ما سلم من أصحابه فشكا وبكى، وأرسل قصائده يستجير ويستنجد بحاكم وقته، وسيد بلده، ولهذا مدح ورجا، عسى أن يفرِّج عن كربته، ويُنجده من وقعته. ولكن مدائحه كانت أقل إجادة من غزله ومن شعر الحب والصبابة، لأن مدائحه كانت للحاجة والضرورة أما غزله ووصف الجمال فقد كان فيه فائقاً بارعاً لأنه يصدر من نفس تقدر الجمال وتصبو إلى ربات الحجال. . .

هذا الأديب ولد بطرابلس ودرس فى مصر وتتلمذ على شيوخ الأزهر فى القرن الثانى عشر الهجرى؛ ومكث فى وادى النيل وقتاً غير قصير حتى أخذ من علوم عصره ما شحذ ملكته وقوّى قريحته، وعاد إلى بلده طرابلس حوالى سنة 1130 هـ ـ 1717 م.

أدبه أكثر من علمه، وشعره أكثر من درسه له رقة فى الطبع، ومتانة فى

الخلق وحساسية مرهفة، وهذه بضاعة يتألم صاحبها عندما تصدمه العقبات وتتألب عليه الأزمات. وكادت آماله التى بناها تنهار لولا أن استنجد بـ «أحمد القره مانلى» بقصيده سنعرضها، فعطف عليه، وجبر خاطره وقرَّبه إليه، وأعطاه مسكناً فى مدرسة «محمد باشا»، ورتَّب له مرتباً يدفع عنه غائلة الحاجة. فتنفس الأديب الشاعر والشيخ المدرس، وأقام بالمسجد للدراسة والإفادة، وأقبل عليه طلابه فوجدوا علماً غير جامد، وأدباً غير متكلف.

ومن الذين أُعجبوا به وأثنوا عليه وأوصوا به حاكمَ طرابلس «أحمد القره مانلى» ابنُ غلبون العالم المؤرخ؛ وقد ذكر فى ترجمته أنه «الفقيه الأديب العالم الشريف»، وهذه شهادة من عالم فاضل ومؤرخ معاصر.. فهو عربى هاشمى، واسمه بالكامل أبو عبد الله محمد بن العربى بن محمد بن حمودة الصغير الهاشمى.

وشعره - كما أشرنا - قسمان: شعر الشكوى والمدائح، وهو أقل لمعاناً؛ وشعر الغزل والحب، وتظهر فيه الشاعرية على حقيقتها بل فى أوجها، وطبعاً، بالنسبة لعصرها. فلا تزنها بميزان العصر الحديث فيختل فى يدك الميزان.. فعندما بلغت ثورته حدَّها كادت أن تدفعه إلى التشاؤم؛ وما أقرب النفوس العزيزة المرهفة إلى التشاؤم. فهى سريعة الغضب والإنفعال:

ألا هل ترى العين الأُلى قبل ودعوا؟
وهل سيل أجفانى التأرق والهجعُ
وهل تبلغا نفسى الأمانٌ برهة
وهل يسرج الأحلاك من ليلنا شمع
أو الموت أدنى من لبانة قاصد
يسامره جنح الدجى الشعر والدمع؟
بلى إن دهرى والع بتبدُّدى
إلى الله أشكو من زمانٍ به ولع
فمالى وللأفراح من بعد جيرة
تقضى بهم رشدى وأعوزنى الجمع

ثم يشتم الحياة ويمل تصاريفها ويتساوى عنده كل شىء. . . :

لقد سئمتْ نفسى الحياة وطولها
تساوى لدىَّ القبر والسوق والربعُ
ولا سيما فى منبر الجهل هذه
فكل سليم الذوق ضاق به الذرع
فلولا الأمير المرتضى لم يكن بها
لجس الليالى فى خواطرنا وقع

وهذه من غضبات الشعراء. فقد وصف بلده بأنها منبر الجهل. والشعراء، إذا غضبوا كانت ثورتهم حادة وغدا سبُّهم فظيعاً، وقالوا ما أعجبهم. ويقصد بالأمير هنا صاحبَه «أحمد القره مانلى» الذى عينه مدرِّساً وأعطاه مسكناً وراتباً، ومسح بعطفه ظلال التشاؤم والغضب. . ويظهر أنه قالها على كبر السن وتقدم فى العمر بعدما رأى عدم التقدير من أهل بلده.

ومن قطع مدائحه الشعرية التى تنعكس عليها أخيلة القدماء وتظهر فيها تشبيهاتهم: عروج على الطلل، وخلع النعال، صادحات الوُرْق، وليل نابغى، وأحزان يعقوب الخ. . ونكتفى بأبيات من هذه القطعة التى تبلغ 22 بيتاً أوردها ابن غلبون:

لك الخير عرِّج بى على طلل الربع
محط المنى مغنى الكمىِّ المقنع
وكن خالعاً نعليك بين مرابع
مقدسة تبلغ مناك وترفع
هناك المنى والعز حيث تقطعت
تمائه والمجد منك بمسمع
به صادحات الوُرْق تصدح فى الضحى
تنادى هديلاً بين أرواح أجرع
يحاكينى إذا شط عنى وليتهم
وقد خلفوا جمر الغضا بين أضلعى

وبتُّ بليلٍ نابغيٍّ كأنني
ظبية شرك فرخها وسط بلقع

وأحزان يعقوب تسربلت درعها
وحيك فراش من سلالة أدمعي

وزهر رياض مائس بين جدول
به الماء منساب إلى كل ممرع

يحاكي جنى وردٍ ندىٌّ بوجنة
فباء بفضح في صدور ومشرع

فماذا عليهم لو أباحوا اجتناءه
لمقلة صب مدمن السهد مصرع

ومن هذا يستطرد إلى مدح صاحبه الحاكم مبتدئاً بالغزل أو الشكوى، شأن الشعراء، ثم يستهدفون غرضهم. وقد أشار صديقنا الهادي عرفة إلى أن كلمة طلل في مطلع القصيدة قد هبطت بها.. إنها ثورة نفسية وساعة قلق ومنطبعة في مخيلته أخيلة القدماء من الأطلال والمرابع.. الخ

ولنترك هذا اللون من أشعار محمد بن العربي ونأتِ إلى القسم الآخر الذي أبدع فيه وأجاد.. شعره الغزلي ووصف الصبابة ؛ وهذه القصائد نادرة يتعذر الحصول عليها، فقد عثرنا عليها في مخطوطة تشمل ألواناً من الموشحات والأزجال والأغانيّ تسمى «ترويح الأرواح». وهذا الديوان لم نعثر على اسم جامعة ولا تاريخه، بيد أننا وجدنا على غلافه أنه كان ملكاً للشيخ محمد الوحيشي، وأيضاً للسيد بن محمد عمر بن زين الدين في القرن الثالث عشر الهجري سنة 1244 هـ - 1828 م. وبعدها لا نعلم شيئاً عن جامع ديوان «ترويح الأرواح». ويكفيه قيمة المقطوعات الشعرية التي سجّلها للشاعر الطرابلسي محمد بن العربي. وإليك لوناً منها:

أما ومبسمك المفتر عن برد
وما بثغرك من خمر ومن شهدِ

ومـا بـطرفـك من كحـل ومـن كحـل
وما بـقـدك مـن مـيـل ومـن مـيـد
لـقـد حللت محـل الـنـور من بـصـرى
لا بـل حللت محل الـروح من جسدى
يـا راقـد الليـلِ خلواً من أليـم هـوى
لـيـهـنَـك الـنـوم إنى دائـم الـسـهـد
سقـا الحيا عـذبـات الـرنـد من أضم
حيـث الـظبـاء حمتـهـا أعـين الأُسـد
قـد كـان لى كـبـد بـالـشـوق آهـلة
والـيـوم أصبحت ذا شـوق بـلا كـبـد
فهـل درى من رعـيت الـنجـم بعـدهـم
أنى تـعـلـمـت فـيـهـم صـنـعـة الـرصـد

ومحمد بن العربى يتغزل فى محبوبته ويصور الخد والنظر والعذاب والحزن، ويقسم ببديع الجمال ولا يخشى السلو والإعراض الخ . . :

يـاقـوت خـدك لـلقـلوب مـفـرِّح
أيُّ الجـوانـح نـحـوه لا تجـنـحُ؟
قـالـوا العـذار غـدا لحسنـك كـاتمـاً
هـيهـات وجـهـك بـالجـمـال مصـرح
نـظرى إلـيـك كـما يـقـال عـبـادة
إذ كـنـت لمـا أراك أسـبـح
ولئـن غـدوتَ بعـذب ريـقـك بـاخـلاً
فـأنـا الـذى بـدمـى ودمـعـى أسـمـح
إنى لأحـزن حـين تُـعـرض نـائـيـاً
عـنى، وأطـربُ إذ أراك وأفـرح
قـسـماً، وحـقـك يـا بـديـع جمـالـه
إن الـتـصـبـر عـنـك شـىء يـقـبـح

يهتز من مرح الشبيبة قلـ
ـصا أنت غصن البان إذ يترنح
وإذا بدا القمر المنير ووجهه
لم أدر أيُّهما وحقك أملح
لا تخش سلواى عليك فإننى
عن رتبة العشاق لا أتزحزح
بابُ التسلى عن جمالك مغلق
حَكَمَ الغرام بأنه لا يفتح

فهو عاشق ثابت المبدأ متثبت لا يتزحزح ولا يتسلى ولا يتخلى، عنيد فى غرامه متحرق الكبد دائم السهد، وهذا حكم الغرام؛ ولولا أن صاحبة الشاعر غير معرضة وصاحبة دلال وتجن لما ألهب فى تصويره وعاند فى حبه. فالعناد يقابله العناد والإعراض من المحبوب يزيد العاشق ولعاً واحتراقاً.

واسمع هذه القطعة السينية، وفيها صورة طيبة من العاشق والمعشوق:

وحياة وجهك يا حياة الأنفس
لا حلت عنك أسأت لى أو لم تُسى
فلئن جفوت فإنَّ طيفك واصل
أو غبت عن عينى فذكرك مؤنسى
أمطيلَ ليلى منذ طالَ صدوده
من لى بصبح جبينك المتنفِّس
ما ضر ذا الوجه الجميل لو أنه
برضاه يلبسنى جميل الملبس
لله عصر شبيبة قضيَّته
حلف المسرة من ظباء كنس
ترنو بأحداق إلىَّ فواتِراً
أرأيتَ قط حديقة من نرجس؟
وبمهجتى رشأٌ أتانى زائراً
متبختراً فى حلة من سندس

كـذب المنجـم فى الـذى هـو قـائـل
أنـا من رأى بـدر الـدجى فى الأطـلس

ويظهر أنه نظم هذه القطعة فى سن متقدمة، ويتذكر عصر الشبيبة والظباء الكنس.. ولم يكتف الشاعر بوجه واحد.. ومتى شبع الشعراء من الجمال.؟ يموتون وهم جوعى وعطشى جمال:

دب الـعـذار بـعـارضـيـه وإنـنى
لأحـب ديـبـاج الخـدود مـقـنـدسِ
أرأيـت خـطـاً لا انـتـهـاء لحـسـنـه
فـلقـد تحـيَّر فـيـه كـل مـهـنـدس
يـا مـوحـشـاً طَـرفى ويـعـلـم أنـنى
أبـداً بـغـير هـواه لم أسـتـأنسِ
خـدَّاك مـن ورد وريـقـك قـهـوة
فـإذا سـخـوت بهـا تـكـمَّـل مجـلسى

ويلاحظ هنا اصطلاح المهندسين والمنجّمين مما يدل على سعة ثقافة الشاعر ومعرفته باصطلاحات العلوم المختلفة مع أنه شيخ مدرس فى مسجد... بل إن الشاعر محمد العربى عثرنا له على قصيدة قسَّم فيها الجمال، وجعل لكل قسم أعداداً وإحصاءات... جعل لطعم الحب أعداداً ولصفاتِ المحبوب أعداداً والخد واللحظ والثغر قسَّمه أعداداً، وهذه الأعداد كلها خماسية لكل شىء خمسة أعداد. بل إنه يعلم منه خمساً وأورثه المحبوب خمساً ويطلب من ربة الجمال خمساً ويخالف فيه خمساً... وهذه تقاسيم عجيبة سار فيها الشاعر على منهاج ما أظن أحداً من الشعراء قبله قسَّم هذه القسمة وعدَّد ذلك العدد.. ومن هنا يظهر غرامه باصطلاحات فنون الحساب؛ والشعراء السابقون يدمجون الاصطلاحات العلمية ولكنهم يفسدون الشعر بها، أما محمد العربى ففى تقاسيمه الحسابية يجعل فى كل بيت خمسة أشياء فيضطر إلى حذف حرف العطف ويضطر إلى تخفيف الكلمة أحياناً ولكنها قصيدة لا تخلو من طرافة ولمحات شاعرية. وإليك القطعة بقضها وقضيضها:

حوى الحب خمساً، نكهته لما
سنا، رونقاً، لولا جمعتنى به، لما

وقد حاز خمساً رقة ولطافة
وحسناً، وإحساناً، وثغراً تبسما

حوى خده خمساً، بياضاً وحمرة
وخالاً، وناراً، يا خليلىَّ ثم ما

حوى لحظه خمساً، فتراً وفتنة
وغزلاً وسحراً ثم سهماً لقد رمى

حوى ثغره خمساً سَلافاً وسكراً
ومسكاً وشهداً ثم درًّا منظَّماً

لقد فاق خمساً غصن بان جآذراً
وشمساً إذا لاحت وبدراً وأنجما

تعشّقت خمساً عجبه ودلاله
ولفظاً حلا والقد إذ ماس والفما

وأعشق خمساً فيه، بسماً ولفتة
ودعجاً وسحراً ثم صدغاً منمنماً

وقد حاز خمساً عزة ولطافة
وملكاً، وحظًّا وافراً وتحكما

تعلم خمساً قسوة، غضباً، قلى
جفاً، وهجراً ثم الا واقتسما

وأورثنى خمساً سهاداً وحسرة
ووجداً وسقماً زائداً وتألما

سأطلب منه خمساً، طاعة ورضاً
وداداً، وعطفاً ثم وصلاً مسلما

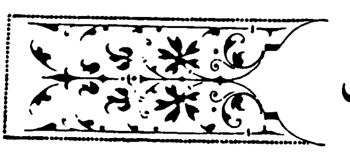
أخالف خمساً فيه أهلى وأهله
رقيباً وعذالاً، كذلك لُوَّما

وينهى قصيدته بالتوسل وبالتشفع برسول الله ومدح سيدنا محمد كعادة شعراء عصره والعصور المتقدمة:

وحسن خلاصى بالذى حاز خمسة
هدى، وتقى، جوداً، ندى، وتكرما
وقد عمه خمساً، رضا، سؤدداً، علا
كمالاً، مقاماً فى الأنام لقد سما

ولم نعثر للشاعر الأديب على شىء سوى هذه المقطوعات التى سقناها إليك وعرضناها عليك وتفاصيل حياته أيضاً كان من المتعذر النادر ونكتفى بهذا العرض البسيط آملين أن يجد غيرنا ما لم نصل إليه.





كامل بن مصطفى



صاحب الفتاوى

فى بيت متواضع من بيوت الزاوية الغربية، ولرجل له شىء من علوم الدين وله كثير من الفضل والتدين، ولد الصبى فكان زينة للبيت وأملاً للأب وفرحة للأم، وكان ذلك عام 1244 هـ ـ 1828 م.

وقال الوالد، وهو يداعب ابنه ويحدث زوجه عن مستقبل الوليد.. لن أجعله تاجراً يجوب الآفاق، ويحمل الأقمشة والعطور؛ ولن أجعله مزارعاً يبذر البذور؛ ولن أجعله صانعاً يحيك الثياب، ولا نجاراً يصنع الأبواب.. وقالت الأم... إذن ماذا تريده أن يكون؟ قال الوالد.. أريد أن أرى ابنى عالماً فقيهاً ورجلاً كاملاً فاضلاً يحفظ كتاب الله ، ويحافظ على سنّة رسول الله. أريد ولدى يحفظ مذهب الإمام أبى حنيفة، هذا المذهب ليس له فى طرابلس علماء أفذاذ وكاد أن ينقرض من طرابلس.

وفرحت الأم بهذه الأمنيّة الغالية والخطة التى رسمها الأب الحنون لابنه الوحيد.. وصار الشيخ الصغير موضع العناية والرعاية،، وأصبح فى البلدة

الصغيرة قبلة الأنظار، محترماً مبجّلاً.. والفطنة والنبوغ يحتمان على الناس الاحترام حتى فى زمن الطفولة وأيام الصبا.

وحفظ الشيخ الصغير كتاب الله بالزاوية الغربية على شيخ من شيوخها، وأتمة إجادةً وحفظاً وتجويداً، ولم يتم السادسة عشرة؛ ثم رحل إلى طرابلس ليدرس فى مدارسها ويجلس فى حلقات مساجدها؛ يدرس النحو وتوابعه والفقه وملاحقه والحديث وفروعه. لقد كان كامل بن مصطفى تلميذاً نشيطاً يتوقد ذكاء، وتلمع الألمعية من عينيه، ينطلق كالطائر من فنن إلى فنن، من مدرسة أحمد باشا، إلى مدرسة عثمان باشا ومسجد الناقة ومسجد المغاربة. ومكث بين المدارس والمساجد ثلاثة أعوام، يلتقط الشوارد ويشارك فى تفهُّم المسائل.

ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره، جلس الأب مرة ثانية يحدث الأم عن مستقبل الشيخ محمد كامل وقد رأى اجتهاد ولده وطموحه وشغفه بالعلم؛ وتذكر الوالد عهده الذى قطعه على نفسه وأمله المعقود؛ وعقد المؤتمر العائلى من الجَدّ والوالد والعم والأم... وبسط الوالد أمنيّته وقال: أريد إرساله إلى الجامع الأزهر ليتوسع إدراكه ويزداد علمه ويدرس مذهب أبى حنيفة، ويعود إلى طرابلس عالماً مجتهداً ويكون أستاذاً فاضلاً. وانفض المؤتمر العائلى بزغردة من الأم، وقامت لتقبّل الشيخ الصغير وتودعه وتهيىء له ما يلزم فى هذه الرحلة الطويلة، والسفرة البعيدة. وودع الفتى الشيخ جده وعمه، وسمع كثيراً من الوصايا وعديداً من النصائح خلاصتها، أنه هبة العلم ووقف على الدرس.

وذهب محمد كامل بن مصطفى إلى مصر. ودخل الأزهر عام 1263 هـ - 1846 م وكان عمره إذ ذاك تسعة عشر عاماً. وفى مصر أصبح كامل بن مصطفى مثالاً للطالب المجدِّ، الذى رسم هدفه ووضع برنامجه وأدرك المهمة الملقاة على عاتقه. وأمعن كل الإمعان فى دراسة فقه أبى حنيفة النعمان وآراء أبى يوسف. وكم أوصاه والده أن يتبحر فى مذهب الأحناف، ولكنه بجانب هذا يدرس الفقه المالكى دراسة مستوفاة، وخاصة أن آراء مالك وأتباعه منتشرة فى بلاده وبلاد المغرب قاطبة. يدرس فقه مالك وأبى حنيفة، وينظر فى

فقه الشافعى وغيره، لأن فقه الإسلام متصل بعضه ببعض، ومترابطة حلقاته ومتفقة مذاهبه فى الأصول، تتلاقى عند هدف واحد وتسقى من ماء واحد، وكلهم كما صوّر البوصيرى. . . وكلهم من رسول الله ملتمس. . . غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم.

قرأ الشيخ محمد كامل بن مصطفى: أقرب المسالك للشيخ الدردير، وشرح الدردير على كتاب خليل - وحواشى الشيخ الدسوقى ومرجعه والخرشى ومجموع الشيخ الأمير؛ ولا شك أن كتاب خليل عند متأخرى الفقهاء مثل «العين» للفراهيدى و «كتاب» سيبويه. وبعد أن استوعب الشيخ الفطن هذه الكتب المالكية ذهب لكتب أبى حنيفة فقرأ متدرجاً مراقى الفلاح وحواشيه للشيخ أحمد الطحطاوى، وتحفة الملوك والسلاطين، ثم شرح العين، وكتاب الكنز، وقرأ شرح الدر المختار على متن تنوير الأبصار بحواشى الشيخ الطحطاوى أيضاً.

كان الشيخ يحفظ ويدرس، ويعلق ويتسنبط، ويخزن ويستوعب، ودوماً بذكر وصية والده وهمسات أمه، وحاجة وطنه، ثم رغبته الملحة فى أن يصبح فى طرابلس عالماً دارساً ومرجعاً، فأستاذاً لفقه أبى حنيفة النعمان، الإمام الأعظم. . . سبع سنوات متواليات قضاها كامل بن مصطفى يدرس فى الجامع الأزهر، يواصل ليله بنهاره، وصبحه بمسائه، فى الغوص على دقائق التفسير والفقه وعلوم الشريعة السمحاء. لا يخرج من حلقات الدراسة ولا يترك مباحثه إلا مساء الخميس، عندما يذهب للتنزه والتريض على شاطىء النيل عند الجزيرة، فى مكان حديقة الأندلس الآن. . يجلس مع رفاقه من شتى الأقطار الإسلامية تحت الأشجار، يتفكهون ويتبسطون، وكلٌ يذكر طرائف عن بلاده؛ فكانت جلسة الخميس عند شاطىء النيل بجانب التريض والتنزه فيها جلسة علم وأدب وتفكه.

وقد أعطانا كامل بن مصطفى فى كتابه «الفتاوى» صورة من نزهته عند شاطىء النيل؛ فقد أشار إلى جدال ثار بينه وبين قسيس فى مسألة، أجابه مصطفى مستنبطاً بالعقل مما يدل على حدة فطنته وشحذ ملكته. ومن طرائف

ما يذكر أن كامل طلب من والده طاقية طرابلسية زهيدة الثمن... إنها شىء هين: . ، ولكن الوالد فى طرابلس يرسل إلى الشيخ الذى يدرس عليه كامل يسأله: هل ولدى كامل مجتهد؟ ومثابر على دروسه؟ فكان الجواب شهادة طيبة. ثم أرسل الوالد طاقية طرابلسية فاخرة.

وعاد الفتى الشيخ، عالماً مدققاً لم ينسه شاطىء النيل طرابلس، ولم تأخذه معالم القاهرة لتنسيه صحراء ليبيا. عاد إلى بلده ليحمل رسالة العلم ونشر تعاليم الكتاب المقدس. ولكن المؤتمر العائلى لم يعقد كاملاً لاستقباله. فقد مات جده وعمه وأمه، واستقبله أبوه بكل ترحاب. فقد حقّق الابن رغباته. عاد عالماً ممتلئاً حيوية ونشاطاً، وحباً للبحث والتدريس، وجلس للإفادة فى المساجد والمدارس، وهو شاب لم يتجاوز السادسة والعشرين. يُسأل فيجيب ويدرِّس فيفيد، ويقول فيسمع الناس قوله.

درّس فى مدرسة «عثمان باشا» ومدرسة أحمد باشا ومصطفى كورجى. وكانت هناك المدرسة «الرشدية» التى ما كانت تضارعها فى البلاد مدرسة فى حسن النظام واختيار الأساتذة وإعداد الطلاب. كانت المدرسة الرشدية عند «باب البحر» هى المدرسة النظامية الوحيدة التى أسسها الأتراك، وليس سواها أوجدوا لنا مدرسة تفيد وتنفع إلا المدارس العسكرية. وهذا هو طابع العصر العثمانى وأثره فى كل البلاد العربية؛ وفى المدرسة «الرشدية» أصبح كامل بن مصطفى مدرِّساً للغة العربية، يقوِّم من الألسن معوجها، وفى المساجد واعظاً يهدى النفوس إلى طريقها. وعلى يديه وبفضل توجيهه العلمى تخرج للبلاد تلامذة نجباء وأساتذة فضلاء أفادوا البلاد وخدموا لغة الضاد نذكر منهم الشيخ عبد الرحمن البوصيرى والشيخ الإزمرلى.

ولم تكن إحاطة الشيخ كامل قاصرة على الفقه واللغة، بل إنه لذو اطلاع واسع ودراية كبيرة بفن التفسير؛ وهذا الفن يتطلب سعة اطلاع وغزارة مادة وأسلحة عديدة من فنون الشريعة والمنطق. وكان له غرام بتفسير «البيضاوى»؛ درّسه مراراً فى مسجد «عثمان باشا»- كما أنه درّس صحيح «البخارى»، وكتاب الشفا للقاضى عياض. درَّس هذا مرات فى جامع

«مصطفى كورجى» ووزع الشيخ حياته بين وعظ وتدريس أو اطلاع واعتكاف، وتأمل وإدراك. . . هذا بجانب عضويته فى إدارة الولاية. وولى الإفتاء عام 1311 هـ ـ 1893 م. وبقى مفتياً لطرابلس إلى أن عادت النفس المطمئنة إلى ربها راضية مرضية سنة 1315 هـ ـ 1897 م.

لم يكب الشيخ كامل بن مصطفى مثل كثير من علماء هذا الزمن يذهبون من غير أثر، ويودعون من غير تركة؛ بل ذهب كامل بن مصطفى وبقى أثره وخلّف تركته «الفتاوى الكاملية»، وتعليقاً على تفسير البيضاوى. ويحتوى كتاب الفتاوى الكاملية على ألفين ونيف من الأسئلة التى وجّهها إليه أبناء طرابلس وأجوبتها، وهذا فى مختلف أنواع العبادات والمعاملات والاعتقادات والأحوال الاجتماعية.

وأسلوبه سهل، وعبارته واضحة، لا لبس فيها ولا غموض بها ولا إبهام يحوطها. كما هى العادة فى أساليب الفقهاء وأهل الإفتاء؛ والفتاوى الكاملية فقه مبسط، وحبّذا لو أُعيد نشره، ففيه فوائد وعوائد، ولكن كلمتى هذه فى بقاع وهمسة من مذياع وأسطر ورقاع.

بدأ الشيخ كامل بن مصطفى فى جمع فتاويه وضمها فى سنة 1308 هـ ـ 1890 م. ومعنى هذا أنه كان يفتى الناس ويجاوب على الأسئلة التى توجه إليه قبل أن يصبح مفتياً رسمياً، وقبل أن ينصّب؛ فالعالم لا يتقيد بمنصب ولا يبخل بعلمه. وعندما أخذ يضم الفتاوى ويعدها للطبع حذف كثيراً من الأسئلة، واختصر بعضها وهذب بعض الأجوبة، كما ضم إلى فتاويه بعض الأسئلة التى وجهت إليه وهو طالب فى مصر. . . وهو مدرِّس فى طرابلس. . . وهو زائر فى تونس. . . وهو حاج فى الأراضى المقدسة. إذن ليست الفتاوى إلّا موسوعة فقهية، ودائرة معارف دينية، جعلت كثيراً مما يخطر على البال ويأخذ بالبال.

وكان الشيخ الأستاذ فى فتاويه صاحب رأى واستنباط وتعقل، فإذا لم يجد فى المراجع جواباً أو تطرق إليه الشك لم يفتِ بما لا يعلم، بل أسرع

يسأل علماء مصر وأبناء الأزهر وعلماء الزيتونة بتونس. ويلاحظ المطالع للفتاوى أنه راسل صديقه وزميله مفتى الديار المصرية، العباسى المهدى، وصديقه أحمد بن الخوجه مفتى تونس. . .

خمسة أعوام ظل كتاب الفتاوى معدًا للطبع وللنشر حتى ساعده على طبعه الحاج محمد الحلو؛ وهذا الرجل كان يتولى فى مصر وظيفة المعتمد السلطانى من طرف دولة المغرب الأقصى فى الديار المصرية. وساعده على طبع الفتاوى أيضاً التاجر بطرابلس السيد أحمد بن غلبون، فقد كان للمغاربة وخاصة فى المغرب الأقصى غرام بالفقه وتشجيع على حفظه ونشره وطبعه. فقد طبع السلطان مولاى عبد الحفيظ كثيراً من مراجع الفقه المالكى.

«الفتاوى الكاملية فى الحوادث الطرابلسية» مجلد ضخم يقع فى 308 صفحة من القطع الكبير، طبع سنة 1313 هـ الموافق 1895 م أى قبل موته بعامين. وقرّظه نثرا محمد النائب، ولم ينس الدعاء للسلطان عبد الحميد الثانى. ولست أدرى ما العلاقة بين السلطان والفتاوى وما المناسبة!؟ إلا التملق للسلطان من نائبه الشرعى فى طرابلس؛ كما قرّظه بثلاثة عشر بيتاً من الشعر «المعكز». . شاب ليبى سالم المبروك الورشفانى من طلبة رواق المغاربة وقصيدته على هذه الشاكلة:

أدر من حديث الفضل كاساً على سمعى
وسر بى وراء السرب ربعاً إلى ربع

رحل الشيخ إلى مصر وتونس وتركيا والحجاز؛ وفى تونس شاهد دخول الفرنسيين تونس، وكان من أصدقائه هناك الشيخ صالح التبرسقى، وقد بلغ الثمانين، ولكنه ما احتاج إلى ترجمان. وكثيراً ما جلس مع علامة تونس يتناقشان ويتفلسفان فى هذه الحالة التى وصل إليها المسلمون، وكيف أصبحوا فى ديارهم أذلة. . . وكانت رحلة كامل بن مصطفى إلى تونس سنة 1298 هـ الموافق 1881 م. وكان الشيخ صالح التبرسقى يستعمل العقل ويقيس بالمنطق؛ وكثيراً ما سامره كامل بن مصطفى، ويروى عنه عديداً من

الذكريات. حدّث كامل: اجتمعت بالتبرسقى فى بيته فاستقبلنى عند باب داره، فلما رآنى قبَّل عينى وعانقنى وأنشد:

تحيـــا بكـــم كـــل أرض تنـــزلـــون بهـــا
وأنـــتـــم فى عـــيـــون الـــنـــاس أقـــمـــار

ولما دخلنا البيت بزاوية منه أمر بفتح كوة لزيادة الضوء فدخلت الشمس وقال الخادم: أخاف أن تصيب الشمس الشيخ كـامل.. فـأجاب الشيـخ التبرسقى على البديهة: لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر.. فما ألطف هذا بعد الاستشهاد: «وأنتم فى أعين الناس أقمار».

وفى تركيا يتعرف بعلامة زمانه وفيلسوف اللغـة والبيان أحمـد فارس الشدياق، ويتعرف به على الجسر، ثم تكون مجادلات لغوية ومعرفة وصداقة بشيخ طرابلس. وفى الحجاز يؤدى فريضة الحج عام 1295 هـ ـ 1877 م. وأيضاً يظهر هناك علمه ويفتى ويوافق الشيخ كامل الشيخ عليش المالكى والشيخ دحلان الشافعى، ويوضع اسمه مع أعلام الفقه والتشريع.

والشيـخ كامـل له مـطالعات ودراسـات فى التصوف وأعـلامه، وفى الفلسفة؛ فيسأل عن أقوال تنسب للشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى فيظهر ما دسه عليه الزنادقة، ويستدل بما فى «الفتوحات المكية» وبما يذكره عبد الوهاب الشعرانى فى اليواقيت.

ومن لطائف كامل بن مصطفى أنه لا يحب السهر ولا يخرج من المنزل ليلاً، ولكن لاحظ الناس مداومته للسهر أخيراً، والسهر عند الحاكم التركى. وسئل الشيخ، فقال: لذلك سر، ويا له من سر. لقد ترك الحاكم عادته وحطم كأسه واستحيا من مضايقة الأستاذ له.. وهذه طريقة حسنة فى الوعظ والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وصدق الله فى خطابه لرسوله: ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك. ولاحظت وأنا أبحث عـن حياة الشيخ وآثاره أنـه ليس له شىء من الشعر إلا أبياتاً نظمها على طريقة الفقهاء عندما كان فى الأزهر يحضر درس الشنشورى:

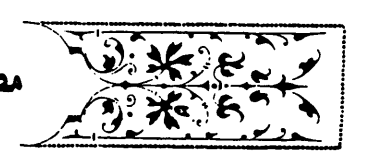
إن رمت ما من أمور الدين قد شهرا
بين الخلائق فاحفظ خير أشعارى
فصحة العقد مع صدق بمقصدنا
وزد وفاء بعهد الخالق البارى
كذا اجتناب لحد وهو يختمها
فاطلب ثواباً لنا يأيها القارى

وليس لنا ما نعتب به على الشيخ كامل بن مصطفى سوى عدم دراسته لبعض المذاهب الإسلامية وتحامله على أحد المذاهب الإسلامية. فقد درس فقه مالك وأبى حنيفة، ولكن يظهر لى أنه لم يدرس أحد المذاهب دراسة منهجية وافية، ولهذا كان منه بعض التحامل.

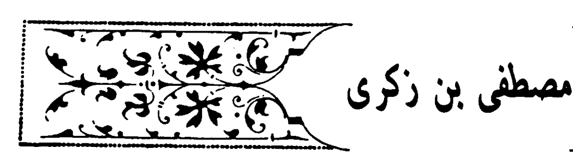
ويرقد المرحوم كامل بن مصطفى بين المنيذر والبهلول، وقد وجدت منقوشاً على قبره هذه الأبيات:

ألا أيها الإنسان إنك كادح
فتجرى ولا تدرى وأنت على شفا
أيا عقلاء المؤمنين تأملوا
تروا هذه الدنيا بلاقع صفصفا
توالى نزولا بارتحال مسرمد
فَمنْ حلّها يوماً ترحَّل واختفى
وأدخلها المفتى وسار مؤرخاً
ففى جنة الفردوس حل ابن مصطفى

رحمه الله، لقد أعطى للعلم حقه، وللإفتاء حقه، وكان كاملاً: اسماً ومعنى.



مصطفى بن زكرى



هناك شعر ولكنه تائه فى خضم النسيان، وهناك شعراء ينظمون ويبدعون ويسترسلون ويحسنون، وأيضاً يقولون ما لا يفعلون... هناك شعر وشعراء ولكنه مع الأسف تراث ضائع وأدب غير شائع... مهمل غير مسطور وكأنه مجهول مغمور. هناك شعر فيه أدب الحماسة وصور من الإحساس... شعر فيه أدب عاطفى وأدب دينى ولكنه على... «قد الحال»، والبلاغة هى مقتضى الحال. وهل يوجد الأدب الرفيع فجأة؟ وهل يخلق الشعراء العماليق طفرة؟ لا بد من تطور، ولا بد من صعود السلم درجة درجة.

وشعراء وأدباء وعلماء هذا البلد بالنسبة لحاله وأحواله وظروفه قد أبدعوا وأحسنوا... وما على الجيل الناشىء وأشبال العهد الجديد إلا أن يرفعوا الرأس ويشمّروا عن الساعد ويطمحوا إلى القمة ويخلقوا فى ليبيا نهضة علمية أدبية جديرة بشعب يتوثب وأمة تتحرك وحياة جديدة وآفاق واسعة.

لا تظلموا العصر الماضى ، فإن المشاعل كانت تعاكسها الرياح من كل جانب... لا تظلموا الشعر والأدب والفن... فإن الرقاب كانت مخنوقة

والعواطف كانت مكبوتة والأدب لا يتحرك إلا عند الحرية، ولا يعيش ويبهر إلا فى أجواء طليقة. . . إذا راعينا هذا فإننا نعجب بأدب هذا حاله وشعر هذه مقتضياته. ثم لا تحكموا ولا تتسرعوا قبل أن تفتشوا وتبحثوا. . وكل مشمر يجد وليس المكسال كالمجد.

وحديثى هنا موجز قصير، وسهل غير عسير؛ إنه مقتطفات ولحظات وقصيد وأبيات. . إنه شاعر ليبى جدير بالقراءة والبحث؛ شاعر منسى فى قومه، مهمل فى بنى جنسه، عالم، أديب رقيق الحاشية عذب الأسلوب حلو التصوير؛ سألت عن حياته بأوسع فلم أجد جواباً ولم أُزل حجاباً. فذهبت إلى الديوان فوجدت فيه صوراً من البيان، وكفى بشعر الشاعر دلالة عليه، وطريقاً موصلاً إليه. وشاعرنا الرقيق هو الشيخ العالم مصطفى بن السيد محمد بن إبراهيم بن زكرى؛ من أسرة طيبة المنبت شريفة الأصل، لها باع فى الفضل وذراع.

وعلمت أن الشاعر ابن زكرى لم يكن أزهريًا ولكنى عجبت من هذه الظاهرة عندما وجدته ينظم فى النحو منظومة يعارض بها ابن معطى وابن مالك؛ فهو أزهرى وإن لم يذهب إلى الأزهر. وقد اكتسب مصطفى بن زكرى من الإسكندرية رقة الشعر ودقة الإحساس، كما اكتسب من طرابلس صفاء البال وصفاء الحال. لقد كـان ابن زكرى عظيماً، حيث أنه كان شاعراً لا يتكسَّب بالشعر؛ ترفع به عن التزلف والتملق فكان شعره طاهراً من أدناس المادة، بعيداً عن دنيا الطمع، يميس فى رياض من حسن الوجوه وحسن القلوب. وكان حسناً يدل على حسن، ونبيلاً يدل على نبل العاطفة وصفاء القريحة. إنه فى غايته وفى عفته وترفعه عن بيع الشعر أطهر من أحمد المتنبى، الذى قالوا عنه: لو كان هناك دانق فى أست. . . لبحث عنه. وقالوا أنه فتش عن الدانق بأظافره فى الحصير، ويرسل القصيدة آلاف الأميال ليرسـل له الأمراء ثمنها. شعر مصطفى بن زكرى فيه رقة وبه وجدان مذاب وكبد حرَّى ومهجة ملتاعة ونفس فياضة. . ديوان صغير يدل على حب كامن وشاعرية

قوية كامنة كمون النار، قوية قوة الإعصار، سهل سهولة المياه المنسابة تحت أضواء الأقمار المنيرة فى الليالى الهادئة.

كان ابن زكرى أندلسياً فى مواضيعه، عباسياً فى أساليبه، رائعاً بديعاً لا يتكلف ولا يتقعر؛ يرسل الأبيات حلوة قصيرة، لكنها كالسهام فيها إصابة الهدف وحدة المرمى. ديوان ابن زكرى يقع فى 48 % صفحة من القطع الصغير، وطبع طبعة رديئة على ورق أصفر. وعلى صغر حجمه وقلة صفحاته كان به ستٌّ وخمسون غلطة نحوية ولغوية وإملائية. وليس كل الثمانى والأربعين من الأدب وروائع التصوير والشعر الرائق، بل إن الديوان الحقيقى لا يتجاوز 33 صفحة، ثم ما بقى منظومة فى النحو من الرجز سمَّاها «الكافية فى نظم القواعد الشافية»، ابتدأها مقلداً ابن مالك فى ألفيته الشهيرة:

أول ما يقول ابن زكرى	لك حمدى دائماً وشكرى
ثم الصلاة والسلام ما جنى	فكر من التصريف يانع الجنا
على النبى المصطفى والآل	وصحبه مصادر الكمال

وتقع المنظومة فى 231 بيتاً، لا أقول من الشعر، بل من الاصطلاحات النحوية والقواعد الصرفية؛ وهذا يدل على أن الشيخ ابن زكرى كان عالماً فى النحو، دارساً لقواعده مطلعاً على اصطلاحاته وضوابطه؛ وهذا يعطينا صورة من الثقافة العربية وأسلوباً من أساليب العلماء فى العصور المتقدمة الذى أثّر حتى فى هذا العصر.

طبع الديوان بعد جمعه بعام فى مصر فى المطبعة العثمانية بحارة سوق الزلط فى أواخر ربيع الأول سنة 1310 هـ ـ 1894 م. ويظهر تواضع ابن زكرى فى المقدمة الوجيزة التى قدم بها ديوانه، وهى متأثرة بالسجع شأن أسلوب هاتيك الأيام. وبارك الله فى هذه الشاعرية التى أبرزت صوراً من الحب وصوراً من الأحاسيس والعواطف فى قالب عربى سليم وبيان واضح وشعر يقرأ ويسمع، ويصح أن يعتز به الأدب العربى فى ليبيا يكون نموذجاً ودليلاً لمن ينكر أن فى البلاد شعراً وأدباً. يا سبحان الله... كل على قدر حاله، ولا

يكلف الله نفساً إلا وسعها. . وكل له مقتضيات ومؤثرات، ولكل عصر أدب وبيان.

شعر ابن زكرى لا يصك الآذان بل يطربها ولا يؤذيها. إنه يغذى النفوس. نبغ فى الشعر وهو صغير فى عصر «العثمانيين». . أو عصر قولمك بوزلمك عزلتو، حضرتلو. وتعالى معى نلق على مقدمة الديوان نظرة فاحصة. . «هذا ما سمح به فكرى من طرائف الأبيات الغزلية ولطائف النكات الأدبية؛ ولا يغرك ما أدعيه ولست من أربابه وذويه، فغاية مرامى ومرمى سهامى، أن أرد من فم الأدب رضابه، وأرتشف من راحه حبابه، وأقرع باب معانيه، وأسوم شباب أغانيه، وأتضلع من حكم آياته واستجلى مخدرات نكاته». . وهنا يظهر تواضع العلماء وينهج فى مقدمته نهج الأقدمين ولكنه لا يقبر نفسه بسور المذلة والقصور، كما يفعلون. فيقول: «ولا أدعى مجاراة فرسانه بغرورى، ولكن أتعاثر فى ذيل قصورى».

ويرينا ابن زكرى كيف أن شعره كان هنا وهناك مبعثراً فأخذ العدة لجمعه وضمه. . . «ولما تفقدت شواردها وتقفيت أوابدها صادفت جل الأبيات فى جب الخمول مقبوراً، وقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً».

ويرينا ابن زكرى حرصه على تراثه الشعرى وقيمته ومحافظته عليه. . . «وحذراً من ضياعها ودثور رقاعها طفقت أجوس مفاوز أفكارى، وأطارد شوارد أوطارى، إلى أن ظفرت ببعضها، وقمت بقضاء فرضها فركضت جواد أقدامى وفوقت سنان أقلامى، وثنيت عنان البيان إلى ميدان الطروس». وهناك يترك تواضع العلماء ويصيبه غرور الشعراء، أو قل اعتزاز الأدباء، ويرى أن للشعر قيمة ومقاماً، وأن شعره غالٍ عالٍ فيقول بالحرف: «وأدرت من بديع المعانى ألذ الكؤوس». .

ويظهر لنا ابن زكرى أنه ذواقة حساس موسيقى، له أذن مرهفة؛ وهذا شىء يدل عليه أنه فى ديوانه الصغير لم ينهج طريقة القدامى، يرتبه على حسب حروف الهجاء، لا بل إنه يتبع طريقة موسيقية، ويسير على الأوتار،

يتبع أذنه ولا يتبع الحروف الهجائية فى الترتيب... هذا ذواقة بليغ وشاعر بديع... «واعتبرت فى التكتيب البحور دون الحروف، وإن كان غير المألوف، لكيلا تذهب عند القراءة طلاوة الاتصال بوحشة تبيان الأوزان والانتقال».

وبعد هذا يظهر أسلوب أدب المتصوفة والدعاء وملاحقه. ومقدمة الديوان نرى فيها أربع نقاط:

I ـ تواضع العلماء.

2 ـ غرور أو اعتزاز الشعراء.

3 ـ الأسلوب اتصوفى.

4 ـ ثم حساسية الذوق وموسيقية الإيقاع فى الترتيب حسب الأوزان .

وكان الشيخ العلامة عبد الله المغراوى من رجالات مصراتة أزهرياً، بل من معمّرى الأزهر؛ وكان فى العلم والأدب لا يعجبه العجب، مُرُّ الانتقاد صعب القياد، شأن العلماء الذين سمعوا طويلاً واعتكفوا كثيراً، ولكنه فرح بديوان الشاب الشاعر مصطفى بن زكرى وهلّل له وأثنى عليه فى حلقات العلم وندوات الأدب، وقرظه بأربعة أبيات مؤرخاً له على طريقة المتقدمين، أو قل إن أردت الإنصاف المتأخرين. وإليك باقات من ابن زكرى، وهى صورة من الشعر الرقيق، فيه خفة البهاء زهير المصرى ـ ص 32 ـ:

هواك قوت فؤادى ... وفى يديك قيادى
فارحم بفضلك وجدى ... وحرقتى وسهادى
أذبت قلبى فهب لى ... قلباً لحفظ ودادى
أنا الغريب المعنًى ... فى شيعتى وبلادى
أموت فيك اشتياقاً ... إن طال عمر البعاد
وفيك داريت قوماً ... لهم طباع الجماد
لولاك ما كنت أدرى ... بأنهم فى العباد
قالوا لقد ذبت وجداً ... فقلت ذاك مرادى

قالوا قضيت زماناً في غيِّك المتمادى
أسرفت جدًّا فماذا أعددت يوم المعادِ
وعدتى حسن ظنى في قوله: يا عبادى
وكيف يقنط عبدٌ وافاه من غير زاد

ويشاهد الشاعر مصطفى ابن زكرى وجهاً جميلاً يسجد لرب الجمال فيملأ هذا (المنظر) جوانب نفسه، ويأخذ بمجامع حسه، ويهيم به؛ ولكنه لا يستطيع أن يملأ ناظريه ولا أن يظهر ما يدور بين جنبيه، يطرق الشاعر إطراقة الحائر، ويذهب إلى الأوراق، ليبثها سرائر الأشواق في ثلاثة أبيات. . ويصور معانى ينسجها غيره من الشعراء في معلقة طويلة:

يا فتنة النساك رفقاً بمن حبّك لم يترك له رمقا
منعت أن أملأ طرفى من حسنك واستملأته أرقا
أتمنع المسكين عبدك أن يملأ من أوصافك الورقا؟

وحسناً ما فعل ابن زكرى. . فلو ملأ ناظريه وملأ طرفه من حسنه فقط لما وصل إلينا شيء من لوعته وتراثه وحرقة أنفاسه؛ وطبعاً ملء الورق خير لنا ألف مرة من ملء ناظريه وإفراغ ما بين جنبيه.

وإذا كان الشاعر مسلم بن الوليد لقب نفسه صريع الغوانى فإن مصطفى بن زكرى أطلق على نفسه لقب صريع الغرام، ولكنه لم يجد مسارح بغداد وقصور بغداد وجسور بغداد ولياليها الساحرات، وإلا لكان لنا من ابن زكرى وليد آخر وصريع جديد، وسل هل أتى عن صريع الغرام. .

أنا ذلك العبد فامنن برقِّى وجُدْ للمشوق بأنس لقاك

واسمع هذه الشاعرية وفيها موطن دراسة ومحط يستحق الالتفات،

تعجَّب قومى من بديع تغزِّلى
وقالوا لقد زفت إليك البدائع
وما بفتى يستخرق الدرَّ بدعة
وفى نسخ الوجه الجميل يطالع

وجعل الشاعر الطرابلسى للحب محكمة وجعل له قانوناً ودستوراً، وجعله معرضاً صوَّر فيه ألوان الجمال فقانون الغرام:

حسنت قوانين الأمور وإنما
قانونه يسبى العقول بلا وتر
فترى بدستور الغرام أسيرنا
لا يفتدى وقتيلنا دمه هدر

ثم يذكر الشاعر الترغيب فيه وفائدة الغرام الذى يصقل النفوس ويهذب الطباع ويسمو بالمدارك:

يستخرج الدر الفريد من النهى
ويهذب الأخلاق فى زمن الصغر
ويعطِّر الأرواح من نفحاته
ويخلد الذكر الجميل المفتخر

ولكن هل حقاً يكون الغرام دائماً هكذا؟ يستخرج الدرّ الفريد ويهذب الأخلاق ويعطر الأرواح؟؟ سرعان ما يدرك ابن زكرى خطر الغرام، ويسرع ليسجل فى محكمته التحذير منه والابتعاد عنه:

واحذر لحاظ الغيد إن لم تستطع
صبراً وكن من سودهن على حذر
واسلم بنفسك إننى لك ناصح
وَسَلِ الخبير بها ودع الخبر

والعيون السود يحذر منها شاعرنا... ويظهر أنه انكوى بتلك اللحاظ، والحب فى طبعه طاهر ولكنه يدنس بما وراء المظاهر؛ بما وراء النظر وما بعد اللقا خطر:

ودع النفوس تميس فى روض المنى
طمعاً ولا تجنى الثمار من الشجر

فـالحـب أصــدقــه لــدى العـشــاق مــا
عــزت مــطالــبــه وعـــز المــصــطبــر

ويظهر أثر الأدب الصوفى وتخيلات الشعر الدينى - إن صحت هذه التسمية - يظهر هذا فى شاعرنا:

ســأسـعـف قـلبـى فى الهــوى بــعــذابــه
وأتــرك ذكــرى خــالــداً بــذهــابــه
وأمــنــع لحــظى أن يفــوز مــن الـكــرى
بــطيفِ خـيــال يـقـتـضـى ســد بــابــه
فســـر بى، رعـاك الله، يــا داعىَ الهــوى
إلى مــنـــتــهـــى وادى الأســى وســرابــه
وعــرِّج عــلى حــىٍّ الــغــرام وحــيِّــه
وســلـه متى نــحــظى بــوصــل تــرابــه
وروح فـؤادى مــن شــمــائــل مبــعــدى
بــراح يهــيــم الــصــب قــبــل شــرابــه

ألا تلاحظ معى، سيِّدى القارىء، أن فى هذه الأبيات تأثراً بالشاعر الصوفى أحمد البهلول؟ نعم فيه من أدب التصوف وأدب الترفع والتعفف. . . أدب فيه رسوم محاطة بهالة من التقديس. . . صور فنية فى إطار من الدين، وشعر فى قوالب من التصوف.

ويصور الشاعر جنة الأمانىّ ومحراب النظر:

وجــنــا الجــنــتــين مــن وجــنــتــيــه
يــانــع غــير أنــه غــير دان
جــنــة تجــنى الأمــانى
ولا تجنى بغــير الجفــون تــلك الأمــانى
هــذه الجــنــة المــحــاســن لــو ألــقــى
لــديهــا لمــا قــدمــتــه الــيــدان

هــذه كـعــبــة لــلطـائــف لــكــن
طــوافى بهــا مــن الإيمــان

الأمــان الأمــان مــن ســود ألحــا
ظ تــقــود الــنهــى بــغــير عــنــان

تــرى أنها ســكــارى ومــا ظــنــك
بــالــســهــم فى يــد الــســكــران

وبعد أن تقرأ هذه الأبيات أُحب أن تلاحظ معى أولاً : الألحاظ السود، هى التى بلورت شاعرية شاعرنا، وكم عاكسته العيون السود. . . يا ساتر يا حفيظ. . .

ولاحظ معى أيضاً أن التصوير فى البيت الأخير بلغ القمة. وما ظنك بالسهم فى يد السكران. . وأيضاً يا ساتر يا حفيظ. . اللهم احفظنا من عيون سود وسهام فى يد سكران. .

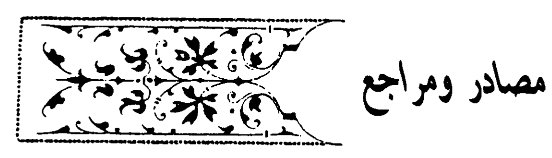
ويخدم الشاعر وطنه[1] ويصور عواطفه. ولو لم يضع الديوان لما أثبت شيئاً من ذلك. ويمدح السلطان عبد الحميد ولكنى آخذ عليه قوله فى القصيدة:

قمر تجلى فى سماء كماله. . .،

إذ لا يليق المدح بهذا الوصف (قمر)، بل إن الشعراء - عفا الله عنهم - بالغوا فى هذه الأوصاف ووصفوا سيد الرجال وعميد الأبطال، محمداً رسول الله، بالجمال، وأنه قمر وبدر وغصن بان ومليح القد، ونسوا أوصاف النبوة ومعالم البطولة والشجاعة والرجولة وسطوع الفكر وعمق الشخصية. . . وهذه من مزالق أسيادنا الشعراء.

(1) تجد فى كتاب «لمحات أدبية عن ليبيا» للمؤلف، فصلاً عن شاعرية ابن ذكرى، كما تجد دراسة عن الشاعر وفنه فى مقدمة الديوان الذى حققه المصراق .





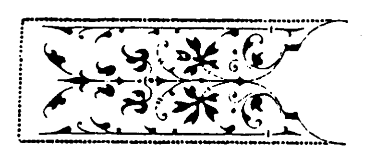
مصادر ومراجع

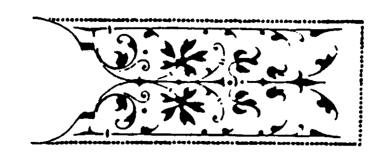
كتاب	المؤلف	طبع
التذكار	ابن غلبون	القاهرة
المنهل العذب	النائب	إسطمبول
الديباج المذهب	ابن فرحون	القاهرة
العبر	ابن خلدون	القاهرة
معالم الايمان	الدباغ	تونس
المغرب	البكرى	ليدن
معجم الأدباء	ياقوت	القاهرة
معجم البلدان	ياقوت	القاهرة
لسان العرب	ابن منظور	القاهرة
كشف الظنون	حاجى خليفه	إسطمبول
دائرة المعارف	البساق	القاهرة
رحلة ابن بطوطة		القاهرة
رحلة ابن جبير		القاهرة

كتاب	المؤلف	طبع
تاريخ الذهبى		القاهرة
نباتات ابن البيطار		القاهرة
تاريخ ابن شهبة		
كفاية المتحفظ	الأجدابى	لبنان
بغية الوعاة فى طبقات النحاة	السيوطى	القاهرة
أساس البلاغة	الزمخشرى	القاهرة
نزهة المشتاق	الإدريسى	ليدن
ديوان	مصطفى بن زكرى	القاهرة
ديوان	أحمد البهلول	
اللواء الطرابلسى		طرابلس الغرب
(مجموعة جريدة عثمان الفيزانى)		
الفتاوى الكاملية	كامل بن مصطفى	القاهرة

مخطوطات

رحلة التجانى
رحلة العياشى
جلاء الكرب للحشائشى
ترويح الأرواح
كناش الزروق
تعليق على تفسير البيضاوى
منظومة فى التوحيد للبهلول
وثائق وأوراق متناثرة ومخطوطات متنوعة من هنا وهناك.



فهرس


استطاع الأستاذ على مصطفى المصراتى، بكتابه هذا الذى بين أيدينا، استطاع أن يستخرج من أعماق الماضى، عالماً جديداً، وأن يوردنا معه قطعة من ذلك الماضى، لنلمح معه طرفاً من حياة الأجداد الذين عمروا الأرض بالحياة المليئة، ثم ذهبوا ولم يخلِّفوا وراءهم إلا آثاراً ضئيلة عفى عليها الزمن وجعلها كما قال الشاعر القديم - تبدو مثل وشم حائل على معصم. .

ولست أشك فى أن هذا الكتاب، الذى بين أيدينا الآن، سيحمل معه ألوفاً وألوفاً من أبناء هذه الأمة الليبية، وألوفاً أخرى من أبناء أمم أخرى من الشعوب العربية، لأنه يرتاد لنا عصراً مشتركاً نستمد منه جميعاً. . وننتسب إليه جميعاً. . عندما كانت الشعوب العربية لا تعرف فيها بينها حدوداً، وعندما كانت تتعارف وتتمازج وتتزاور وتتشاور، وكل منها يقتبس مما عند الشعوب الأخرى، وكلٌّ منها يهب مما عنده أقباساً إلى الشعوب الأخرى. . كان العالم العربى عند ذلك عالماً زاخراً بالحياة والقوة، عامراً بأسمى ما فى الإنسانية من معانى السلام ومحبة العلم ورغبة الخير.